

آية الله السيد محمد تقي المدرسي

التوحيد
يتجلى في الحياة



الكتاب : التوحيد يتجلي في الحياة
المؤلف : آية الله السيد محمد تقي المدرسي

الطبعة الاولى : ١٤١٨ هـ - ٢٠٠٠ ق

المطبعة : ستاره

الناشر : انتشارات مدرسي

عدد النسخ : ١٠٠٠

السعر : ٤٠٠٠ ريال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الهداة الميامين .
التوحيد صبغة الحياة ، وضمير العالم ، وغيب الوجود .. وحين يعي الانسان
حقائق التوحيد ويتصل قلبه بنوره السني ، فانه يتواصل وكل سنن الحياة وانظمتها ،
ويتناغم مع معاني العوالم ، ويتفاعل مع غيب الوجود ..
ولكن اذا يتجافى القلب عن هذا النور ، واحتجب عنه بالمخلوقات ، فانه يرتطم
بالحواجز التي تمنعه عن ذلك الضمير ، ويعوق مسيرته التصاعدية الى ذلك النور .
واذا تأملت في آيات القرآن واحاديث الرسول وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله ،
فانك تجد الهدف الاسمى لكل التعاليم والاحكام ، الارتفاع بك الى ذلك الافق
المبين ، حيث يتصل قلبك عبر العمل بتعاليم الرب واحكام الشريعة ؛ يتصل بذلك
النور البهي ، نور الله الساطع في كل شيء ، والمتجلي في كل افق .
وكم هي خسارة الانسان الذي يمد في عمره طويلا ، ويقضي آلاف الساعات في
هذه الدنيا دون ان يحظى ولو في ساعة واحدة منها بلقاء ربه ، ويسعد بمجالسته
ومحادثته ومناجاته ، ويشرب من ورد حبه ، ويصدر عن ربي رضوانه .. ولكي لا
نبقى - نحن ايضا - في ظلام البعد عن الرب ، ونشقى بعطش لقائه .. فعلينا ان نبادر

بغسل افئدتنا بماء التوبة ، وتطهيرها عن الحجب بالذكر والشكر والتسليم والانطلاق
في رحاب رضوانه بالسعي في سبيل معرفته .
وما هذا الكتاب الذي بين يديك الا تفحات في تجليات التوحيد في الحياة ، حيث
نرجو ان يكون وسيلة للذكرى ، وبصيرة للمعرفة ، وسبيلا الى الهدى بإذن الله
سبحانه .
نسأل الله ان يوفقنا والقارئ الكريم الى ما يحقق رضاه ، ويزيدنا معرفة به ، وزلفى
منه انه ولي التوفيق .

محمد تقي المدرسي
١١ / ربيع الثاني / ١٤١٧ هـ

الباب الأول

المعرفة الربانية

الفصل الأول

معرفة الله قمة الغايات

ترى هل خلق الانسان من أجل ان يأكل ويشرب ويعمل وينتج وينشغل بسائر الأمور المادية ، وهل ستسد هذه الممارسات فراغ النفس وحاجتها الى ان تعيش مستقرة ومطمئنة ؟

ان الناس على صنفين في هذا المجال ؛ اي في هدفية هذه الحياة ، فهناك من استطاع ان يشبع حاجاته فاطمأنت معيشته وعرف كيف يتعامل مع الحياة حتى يحين أجله ويمضي الى ربه مطمئنا بالحقيقة التي عرفها ، وهؤلاء هم المؤمنون بالله من الناس وهم الصنف الأول .

اما الصنف الثاني - ولعله هو الغالب في المجتمعات الانسانية - فانهم يبقون على تيههم وضلالهم ومعاناتهم من فراغ الحياة مهما وفرت لهم من ملاذها وبهارجها وما تشتهيه انفسهم فيها ، فهم يبقون في حاجة مستمرة الى اشباع الجانب الروحي من

حياتهم ، ويظلون يعيشون فراغا فى حياتهم فلا يصلون الى الشعور بالسعادة واللذة الحقيقية ، ذلك لانهم غير مؤمنين في واقع انفسهم وان ادّعوا الايمان ، ومثل هؤلاء يظلون يعانون من القلق العميق في انفسهم ، وتبقى قلوبهم في توتر ، واضطراب حتى يسلموا انفسهم الى بارئها .

وعلى هذا فان الأموال والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والقصور الفخمة ... كلها لا يمكن ان تسد الحاجة الاساسية في النفس الانسانية ، ولا يمكن ان تشعل فيها شمعة السعادة والطمأنينة الحقيقية ، ومن المستحيل ان توقف اضطراب الروح وقلق القلب ، فالذي يفعل كل ذلك انما هو الايمان بالله الواحد الاحدي ، الأبدى السرمدي ، الرحمان الرحيم ، واللطيف الكريم ، فعنده - سبحانه وتعالى - تجد النفس برد اليقين وفيء الايمان .

بالايمان تستشعر النفس الراحة :

وعندما تصل النفس الى شاطئ الايمان وتتسم نسيم الوجدانية المطلقة فهناك يستشعر الانسان الراحة ، وعندما نجد النفس نور الايمان وتنعم بالاتصال الروحي بالله - عز وجل - فحينئذ يزول القلق والاضطراب منها ، فتسعد وتطمئن بضالتها التي عثرت عليها كما يقول - عز من قائل - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (الفجر / ٢٧ - ٢٨)

وفي دعاء عرفة يقول سيد الشهداء ابو عبد الله الحسين (عليه السلام) وهو يناجي ربه : " ما فقد من وجدك ، وما الذي وجد من فقدك " ، فالذي لا يعرف ربه ولا يجده من خلال الايمان فان قلبه سيبقى خاويا فارغا مليئا بالتوتر وان اعطيته الدنيا وما فيها ، ولعل في الحياة شواهد كثيرة تبرهن على صدق هذه الحقيقة .

والانسان الذي لا يريد بلوغ الحقيقة العظمى ، ولا يريد لقلبه برد اليقين والطمأنينة ، ويصر على ضلاله وغيه ، فانما هو نموذج للانسان المغرور الذي خاطبه الله

- عز وجل - قائلا : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الإنفطار/٦-٧)

ان ابن آدم لابد ان يبحث عن ربه - من حيث يدري او لا يدري - ؛ فمرة يهتدي ، وتستقر روحه وتطمئن نفسه ويستريح قلبه المتعب ، ومرة يخطئ الطريق فيضل ، وقد يهتدي من بعد ذلك ان ابصر النور وفتح قلبه للهداية ، وقد يصر على الضلالة فيزداد تيتها وخسرانا .

ساعة المناجاة عند المؤمنين :

ولا توجد ساعة ألد وأحلى عند اولئك المهتدين من ساعة يختلون فيها مع ربهم فيدعونه ويناجونه ويتضرعون اليه بقلوب صهرها حب المعشوق السرمدي فازدادت تعلقا به - سبحانه - .

ولاشك ان ليس هناك مثل النبي (صلى الله عليه وآله) والائمة المعصومين (عليهم السلام) في دعائهم ومناجاتهم وانصرافهم الى ربهم ، وانشغالهم عن الدنيا الا عن ما أحل لهم الله - تعالى - من طيباتها واقتضته ضرورة الحياة ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يصلي ليله ونهاره ، وانها لاكبر متعة واجمل لحظات عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) والائمة (عليهم السلام) عندما يختلون بربهم الكريم يناجونه ويدعونه بقلوب ملؤها الخشوع ، وعيون تنساب منها الدموع ، وحناجر يزفر منها الانين ، وجوارح يهزها الحب والحنين .

وقد كانت الزهراء (عليها السلام) اذا وقفت ساعة الصلاة طال وقوفها حتى تتورم قدمها وكذلك ولداها الحسن والحسين (عليهما السلام) ؛ فاما المجتبي فقد كان اذا نهض وتهيا للصلاة اصفر وجهه وارتعدت فرائضه حتى يكاد ينكره من عرفه من اصحابه .

ولو تعرضنا لحياة الامام زين العابدين (عليه السلام) فيكفي ما أطلق عليه من الكنى والالقباب دليلا وشاهدا على عظيم عبادته ؛ فهو زين العابدين وسيد الساجدين

حتى غدت عبادته وانشداده الى الله - سبحانه وتعالى - مثلاً في العالمين .
وهكذا فانك - ايها الانسان - لم تخلق لكي تأكل فتشبع ، وتشرب لترتوي ، ولا لتنام وتشبع غرائزك الحيوانية ، بل خلقت لتكون خليل الله وكليمه ولتكون كما قال الله - تعالى - في حديث قدسي : " عبدي اطعني تكن مثلي أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

الهدف الأسمى من الحياة :

فالهدف - إذن - هو بلوغ الكمال والمعرفة الالهية ، وما الحياة وما فيها من حركة ونشاط وعمل الا وسيلة لبلوغ هذا الكمال ، واسباب للاستمرار في الحركة التكاملية للانسان ، وحقا فان الانسان - ساعة الموت - ينفذ يديه من كل شيء ولا يبقى له الا عمله ، وما بلغه من درجات في رحلة الكمال ، فأما ان يموت وهو لا يعرف شيئاً من الحقائق القدسية بل وهو غارق في التيه والضلال ، وأما ان يموت بنفس مطمئنة ترجو رحمة وغفران ربها بما عرفتته من القدس ثم عملت بحسب معرفتها هذه .

ان الله - سبحانه وتعالى - يريد من العبد حين يدعو ويلهج بثنائه وحمده وذكره لأسمائه الحسنى والتوسل بها ان يرفع من شأنه وقدره ومنزلته عنده ، ولذلك فان أسمى الاهداف وأنبهها جميعاً وأعظم نعم الله على الانسان في هذه الدنيا أن يبلغ هذا الانسان بايمانه وتقواه وورعه ومعرفته لربه مقام القرب منه - تعالى - اسمه .

وتأسيساً على ما سبق فان الحياة الدنيا وما فيها من مشاغل مادية ليست هي الغاية بل هي وسيلة لبلوغ الايمان ، ونيل رضا الله - عز وجل - بالشكر والحمد والثناء كما يشير الى ذلك - سبحانه - في قوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الجاثية/ ١٢)

الشكر غاية الغايات :

فالانسان - لوحده - غير قادر على تسخير البحر ، بل ان الله - جلّت قدرته -

هو الذي سخره له ، والهدف من هذا التسخير - كما هو واضح من الآية الكريمة - ان تجري الفلك بأمره اولا ، وان يبتغي الانسان من فضله ؛ اي لكي يستثمر هذا البحر بما فيه من ثروات هائلة ثانيا ، ولكي يشكر هذا الانسان ربه ثالثا ، وهذه هي الغاية العظمى ، فالهدف ليس هو التمتع بالملاذ الدنيوية ، وانما هو ارتقاء الانسان ، وسموه الى مستوى شكر الله - تبارك وتعالى - .

وفي الحقيقة فان الانسان ينسى الشكر اذا ما جاع وربما يكون الجوع في كثير من الأحيان سببا في كفرانه ان لم يكن على مستوى من الايمان يعينه على صيانة دينه ، اما اذا شبع فانه ينسى دعاء ربه ، ولذلك فان الحكمة الالهية اقتضت ان يمر المؤمنون في حياتهم بفترات يمرون فيها بظروف صعبة فيدعون ربهم ، وبأخرى موأتية لكي يشكروا نعمه .

الحكمة من الابتلاء :

فالحكمة من نزول المصائب والملمات الدعاء والضراعة كما قال - تعالى - : ﴿ فَآخِذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (الانعام/٤٢) ، فهذه الضراعة هي التي تزيل قساوة القلب التي صنعتها الذنوب والمعاصي والغفلة ، وبذلك يكون نزول المصائب سببا في التطهر من الذنوب .

لقد كان باستطاعة الله - سبحانه وتعالى - ان يقضي على الطغاة والظلمة فيزيلهم جميعا عن آخرهم خلال لحظة واحدة ، ويوفر للمؤمنين عناء الجهاد واعباءه ، ولكن حكمته اقتضت ان تجري الأمور في السنن التي خلقها ، فجعل الجهاد وكلف المؤمنين بخوض غماره من أجل رفع شأنهم وقدرهم عنده - سبحانه - ولكي يمحص ايمانهم واخلاصهم وبالتالي يتيح لهم الفرصة لأن يكونوا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ولذلك نجد الرغبات الملحة والدعوات الصادقة عند المؤمنين الرساليين في ان

يختتم الله حياتهم بالحسنى وحسن العاقبة ، وهي الغاية التي يتمناها كل مؤمن ، ولكن الافضل والاحسن من ذلك هو الشهادة ولذلك جاء في الدعاء : " وقتلا في سبيلك مع وليك فوفق لنا "

التزكية هدف العبادات الاول :

وعلى هذا فان الجهاد والشهادة في سبيل الله ، والصلاة والحج والصيام كلها ممارسات تطهر روح الانسان ، وتغسل أدران ذنوبه ان هو اداها خير اداء ، وبنية خالصة لله - عز وجل - فهذا هو الهدف من الفرائض الالهية ، وهذه هي غايتها وفلسفة إدائها .

فبالاضافة الى الفوائد الجمة للصلاة ولكن الهدف الأسمى منها يبقى تزكية الروح والقلب بالتقرب الى الله ، ولذلك كانت الصلاة معراج المؤمن ، ونهاية عن الفحشاء والمنكر كما يقول رب العزة : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت/٤٥)

من ذلك كله نستنتج الحقيقة التي يجب ان لاتغيب عن أذهاننا ونحن نتحرك ونعمل في سبيل الله - تعالى - ونصارع الظلم والباطل والظغيان ، وهي اننا يجب ان نجعل رضى الله عنا نصب اعيننا ، وهدفنا الاول والاخير ، فنؤدي ما علينا بقلوب مطمئنة ، ونيات خالصة لله - عز وجل - ، واما قطف الثمار وبلوغ الاهداف المرسومة في التحرك ، فهذا أمر موقوف على الله بعد ان نؤدي ما علينا من السعي والبذل والعمل لكي نبلغ هذه الاهداف السامية .

وصايا الى المؤمنين الرساليين :

وفي ختام هذا الفصل اوصي اخوتي المؤمنين :

اولا : ان يخلصوا النية لله قبل ان يقدموا على اي عمل ، لان النية - ان لم ترسخ

في النفس - فان هذا يعني ان اعمالنا وجهودنا ستكون مهددة بالسرقة والسلب من قبل الشيطان الرجيم الذي يتربص بنا الدوائر لكي يضلنا ويدخلنا جحيم الشرك والضلال برياء او غرور او كبر يدخله في انفسنا وما الى ذلك من مداخل الشيطان ومنافذه الى النفس .

ولقد جاء في الروايات ان العبد المخلص في صلاته تأتية هذه الصلاة يوم القيامة بصورة انسان جميل الهيئة والمنظر ، اما الصلاة التي خالطها الرياء والعجب فانها تأتي لصاحبها بهيئة انسان قبيح المنظر ، تنفر منه الانظار ، وتزكم الانوف رائحته النتنة .

وهكذا الحال بالنسبة الى جميع اعمالنا الصالحة التي نقوم بها ، فلا بد ان نخلص النية فيها .

ثانيا : علينا ان لانضيع جهودنا وتضحياتنا بأسف نظهره او ندم نبديه او بمنة نمناها على الله - جل وعلا - ، او بعجب وافتخار ومباهاة ، فلا تقل اني قدمت كذا وكذا ، واني جاهدت في الميدان الفلاني ، ولا تظهر الأسى والأسف على جهاد شاركت فيه ثم لم تتل ثماره ، او تحقق اهدافه المرجوة منه ، فمثل هذا الاحساس قد يضيع عملك وأجرك ، وربما يسخط الله عليك ويجعل عاقبة أمرك الى سوء ، فنحن عندما قدمنا وبذلنا المهجة والمال فان كل ذلك انما كان صفقة عقدناها مع ربنا لنشتري منه رضوانه وجنته .

ثالثا : احذر المؤمنین هنا مرة اخرى من الرياء ومخاطر الشرك ، ولذلك فان من الأفضل لهم ان يعملوا ويجاهدوا في السر .

وبكلمة : فليعمل الجميع بنية خالصة ، وجهد متواصل دون كلل او ملل ، وليحاولوا ان يدرؤوا عن انفسهم ما يفسد أعمالهم وجهودهم من مكدرات الاعمال وشوائبها كالرياء والعجب والافتخار والأنانية والعصبية الحزبية والفتوية ، ويا حبذا لو كانوا مجاهدين مجهولين لا يعرف الناس أقدارهم بقدر ما يعرفهم الله - تبارك

وتعالى - لطيب نياتهم وعظيم اخلاصهم .
ولنعمل بكل طمأنينة لان العمل الخالص لا يمكن ان يضيع أجره وثوابه عند الله :
﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة/١٠٥)



الفصل الثاني

الطريق الى معرفة الله

الموت هو النهاية المحتومة التي تنتظر الجميع ، ولكن الانسان غالبا ما يغفل عنها ولو زار هذا الانسان المقابر ورأى الحفر المتراسة التي يرقد فيها العشرات بل المئات من بني جنسه ، ولو اجال النظر في المغتسل ورأى كيف تقلب اجساد الموتى بين الايدي وكيف يعتصر الألم قلوب الآخرين الذين يتمنون في تلك اللحظات لو يستطيعوا رد احبائهم الى الحياة ... لو انتبه الانسان الى كل ذلك لأدرك بشكل عملي انه هو الآخر لابد وان يصل الى هذه النهاية الحتمية .

واذا كان الأمر كذلك فما الذي ينبغي ان نفعله ؟

ان كل شيء في الحياة لايمكن ان يعرف حق معرفته الا اذا عرفنا نهاية ذلك ، لان بداية كثير من الأشياء حسنة ولكن نهايتها سيئة ؛ واذا لم نُعرف النهاية فكيف يكون

يُمكن الإنسان أن يشرع في البداية ؟

ولذلك لا مناص لنا من أن ندرس الحياة بجميع جوانبها من منظار نهايتها المتمثلة في الموت الذي ما بعده أدهى وأعظم ، إذ أن الحساب عسير والناقد بصير والجزاء شديد وخالد لانهاية له أبدا .

ومن الحقائق المرتبطة بمرحلة ما بعد الموت وهي - الحقائق الخافية على الكثير من الناس - العلاقة التي ستربطنا بالله - سبحانه وتعالى - في هذه المرحلة . فهناك من يزعم أن الروح بمجرد أن تفارق البدن فإن الحقائق ستتكشف للإنسان ويتصل علمه بالغيب فيعرف ظاهر الأشياء وباطنها ، وبالطبع فإن المسألة ليست بهذه السهولة ؛ فمعرفة الإنسان بالله - جل وعلا - والغيب وبالتالي معرفته بالحياة في الآخرة تكون بمقدار معرفته في الدنيا ، فمن يموت جاهلا بربه يبقى على جهله هذا وإن انتقل إلى الآخرة فسوف يكون محجوبا عن خالقه ، وممنوعا عليه التحدث معه بل وحتى دعاؤه وطلب الحاجات منه ، وبالعكس فمن مات وهو على معرفة من ربه فإنه سيرى كل شيء على حقيقته أي ليس هناك ما يحجبه من الحقائق .

معرفة الله اعظم النعم :

ولذلك فإن من أعظم النعم الالهية التي يتمتع بها الإنسان في الدنيا فسح المجال أمامه لمعرفة خالقه ، ومن سلبت منه هذه النعمة فإن سيحرم من نعمة عظيمة لا يمكن أن تعوض عنها نعمة أخرى ، وفي هذا المجال يقول الامام علي (عليه السلام) :
" معرفة الله سبحانه أعلى المعارف " .

وحتى في الآخرة تبقى هذه النعمة محتفظة بمستواها من العظمة ، لأن نعمة المعرفة هي غذاء الروح والحاجة التي تستشعرها النفس دائما ، فالمؤمنون لا يجدون لذة أعظم من لذة المناجاة ، ولا حلاوة أحلى من حلاوة الاتصال الروحي بين قلوبهم وبين أنوار القدس الالهية ، لذلك تراهم يبادرون إلى العبادة والتبتل والمناجاة ليلا

والناس نيام .

ولذلك فان علينا ان لانفوت هذه اللذة العظيمة ؛ فلو اتصل قلب الواحد منا ولو لمدة ساعة بنور ربه واضيء بشعاع معرفة الله - عز وجل - لكفت هذه الساعة حاجة الانسان الى الاتصال بالله في العمر كله .

كيف نعرف الله :

ومثل هذا الهدف لايمكن ان يتحقق الا بعد ان تتساقط ذنوب الانسان ، لان هذه الذنوب تفصل بين القلب والرب ، فاذا زالت اتصل القلب بخالقه ، فمن وجد نفسه منشغلا عن ذكر الله بالدنيا فليعلم ان الذنوب هي التي تحجبه وتمنعه من اقامة هذا الاتصال ، وبالتالي فان عليه في هذه الحالة ان يتوسل الى خالقه وبارئه لان يعينه على اسقاط تلك الحجب ، وحينئذ سيستتير القلب بنور الايمان ، وسيشتاق دوما الى لقاء الله .

وهكذا فان الانسان اذا فقد المعرفة بالله - جل وعلا - في الدنيا الى ان جاءه الأجل المحتوم فعليه ان ييأس من معرفة الله في الآخرة ، وهذا يعني انه سيدخل الجحيم - والعياذ بالله - لان الجنة هي دار ضيافة الله ، ولايمكن ان يدخل هذه الدار الا من كان عارفا به - سبحانه - .

والنتيجة الطبيعية لعدم معرفة الله هي البعد عنه ؛ فمن نسي نفسه لا بد ان ينساه الله كما يقول القرآن الكريم : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ اَعْمٰى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا * قَالَ كَذٰلِكَ اَتَتْكَ ءَايٰتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسٰى ﴾ (طه/١٢٥-١٢٦) ، ومع ان الله - تعالى - لا ينسب اليه النسيان الا ان الانسان الذي يلقي في نار جهنم يكون حكمه حكم من نسي .

وعلى هذا الاساس فان النعمة الكبرى التي نحصل عليها في هذه الدنيا هي معرفة الله فنحن لدينا اله عزيز رحيم هو أنيس المحبين وقادر مقتدر ، ولكنه - تعالى - مع

ذلك سينسانا ان نحن نسيناه في الدنيا .

ومع ذلك فان الله يتجلى الى قلوبنا بين الفترة والاخرى ويدعونا الى نفسه ، وعلى سبيل المثال فعند قراءة الادعية يتجلى الله - سبحانه وتعالى - لعبده ويطلب منه ان يأتيه ويناجيه .

معرفة الله في القرآن الكريم :

والآيات التالية من سورة الانبياء هي دعوة الى الله من خلال آياته في الكون حيث يقول - عز وجل - في هذه الآيات المباركة :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَلَا يَنْتَفِعُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

(الانبياء/ ٣٠-٤١)

منشأ الحياة :

وفيما يتعلق بالآية الاولى فقد اكدت الابحاث العلمية الحديثة على ان الكواكب والمجرات والمنظومات وكل الوجود كان في يوم من الايام كتلة متراسة ومتداخلة حجمها اقل من حجم الفضاء بملايين المرات ، فكانت - حسب تعبير القرآن الكريم - رتقا اي متصلة ببعضها البعض ، ثم حدث لها انفجار قبل آلاف الملايين من السنين ، وربما توحى الآية الكريمة التي تقول : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (هود/٧) بأن المادة الاصلية لهذا الكون شبيهة بالماء .

والملاحظ ان كل شيء في هذا الوجود يكون متصلا بشيء آخر في بداية أمره ثم ينفصل ، وحتى الانسان فانه كان متصلا بوالديه ثم انفصل عنهما بالولادة ، وهذه هي سنة الحياة ، والتعمق في هذه الناحية من شأنه ان يزودنا بالمعرفة بالله - سبحانه وتعالى - وذلك من خلال معرفتنا في كيفية فصل المتصل وفتق الرتق بهذا الاسلوب الدقيق اللطيف ، بل ان الانسان لو فكر اساسا في كيفية حمل الله - تعالى - للسحاب والرياح وهذه الاطنان الهائلة من المياه لينزلها الى الارض ثم يخزنها داخل الجبال من خلال تحويلها الى ثلج ، وكلما احتاجت الارض الى المزيد من الامطار قامت الشمس بصهر هذه الثلوج واحالتها الى ماء تسقى به الارض ، ان الانسان لو تأمل كل ذلك لازدادت - لاريب - معرفته بالله - عز وجل - .

الجبال تحفظ الارض :

ثم يقول - تعالى - عارضا لنا آية اخرى من آيات عظمته في الكون : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

ان ارضا هذه مشبعة بسلسلة من الصخور تمتد الجبال فيها من تحت الارض لتتصل ببعضها البعض ، ولو لم يكن ترتيب الجبال بهذه الصورة لكان بإمكان الرياح

العاصفة ان تحرك وتهز الارض بشكل مستمر ، ولكثرت الزلازل والهزات ، وبناء على ذلك فان الجبال وامتداداتها في باطن الارض هي بمثابة الدروع التي تحفظ الارض من الميلان والتحرك والاهتزاز .

ولقد حدد علم الجغرافيا والجيولوجيا مواقع الجبال على الارض ، واثبت انها مواقع دقيقة جدا ؛ فلو ان جبال الألب - مثلا - أزيحت من مكانها الى اندونيسيا ، او نقلت قمة (افرست) الى مكان آخر ، او تحركت جبال الهملايا الى بلد آخر غير الهند لتغيرت كل الارض وسادتها الفوضى ولهزتها الزلازل بصورة مستمرة .

ثم يستأنف - عز وجل - قائلا : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ، فلو ان الله - تعالى - كان قد جعل الجبال كجدران السجون لأصبح من غير الممكن التنقل بين مناطق الارض المختلفة ، ولكنه - جلّت قدرته - خلقها بحيث فصل بينها بوديان ، وجعل فيما بينها فجاجا وطرقا على الانسان ان يهتدي الى ربه من خلال هذه الآيات العظيمة .

السماء سقف محفوظ :

ويستعرض لنا القرآن الكريم آية اخرى من آيات الخلق والابداع فيقول : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ، فالغلاف الغازي الذي يحفظ الارض من ملايين الشهب والنيازك المتجهة كل يوم الى الارض ، هو الذي يقي الارض من تلك القذائف ومن الامواج والاشعة الخطيرة التي من شأنها ان تبديد وتفني الحياة ان هي وصلت الى الارض .

فالى متى اللهو واللعب ، والى متى عدم الشعور بالمسؤولية ؟

ان الآيات السابقة جاءت في إطار الحديث عن المسؤولية ، وان الحياة حق ، وان كل شيء فيها يحقق هدفا محددا ويتحرك وفق ميزان . فاللهو لا يوجد في الكون لان الدقة والهدفية هما اللتان تسودانه كما يقول - عز وجل - : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ

لَهُوَ لَا تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ (الانبياء/١٧)

فمن جملة ما بينه القرآن في هذه الآيات انه قد حدثنا عن ظاهرة الاستهزاء بالحقائق لدى الانسان وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

والله - سبحانه وتعالى - يحذر الانسان بشدة من هذه الصفة السلبية وينهاه عن الاستهزاء بالحقائق ، فحتى الجرثومة الصغيرة التي يستهزئ الانسان بها كقيلة بالقضاء عليه ، والمرض البسيط الذي قد يستصغره الانسان من الممكن ان يتعاضم ويتنامى حتى يتحول الى وبال عليه .

ان الحياة مليئة بالحقائق الدالة على عظمة وقدرة الخالق - تعالى - ، وقد استعرض القرآن الكريم جوانب منها في الارض وفي السماء ، بغية ان يقف الانسان اجلالا لخالقها فيؤمن به ، ويجعل منها اهدافا لتحركه وسعيه في هذه الارض .

خلق الانسان من عجل :

ثم يقول - عز من قائل - مشيرا الى طبيعة الانسان الميالة الى الجهل والعجلة وسرعة اصدار الاحكام دون تأمل وتريث :

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

فمن طبيعة الانسان الجهل ، والجهل بدوره يدعو الى العجلة ، ذلك لان الانسان العارف ينظر الى المستقبل في حين ان الانسان الجاهل لا يرى الا لحظته التي يعيش فيها ، ولذلك ترى الانسان الكافر يستعجل العذاب على نفسه قائلا :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ

بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٢﴾

ان جميع الآيات القرآنية السابقة موجهة إلينا بالأساس ، وهي تمسنا قبل ان تمس غيرنا ، فلنسع من أجل تطبيقها ، ولنكن اكثر جدية في الحياة ، ليتسنى لنا الحصول على نعمة معرفة الله في الدنيا قبل الآخرة .



الفصل الثالث

السبيل الى المعرفة الالهية

هنالك ثلاثة اسئلة مترابطة تشكل بمجموعها محور استفهام رئيسي ، هي :

- ١- ما المسافة التي تفصل بين الانسان وربه ؟
- ٢- كيف يمكن للانسان الضعيف المحدود ان يقطع هذه المسافة ؟
- ٣- لماذا كلف الانسان ان يقطعها لبلوغ هدفه المتمثل في لوصول الى رحاب رب عزيز كريم هو جبار السماوات والارضين ؟

الدنيا مدرسة تكامل :

وقبل ان نبدأ بالاجابة على هذا الاستفهام باسئلته الثلاثة وما قد يتفرع عنه من اسئلة اخرى لابد ان نشير الى حقيقة ينبغي ادراكها ؛ وهي ان الدنيا ليست دار

امتحان وتمحيص فحسب يجتازها الانسان نحو عالم الآخرة والحياة الابدية بل هي ايضا مدرسة تكاملية يتكامل فيها الانسان ليبلغ بعدها الكمال الاخروي ، فمن استطاع ان يبلغ أعلى قدر من الكمال الدنيوي فقد حظي برحمة الله ونعمته ورضوانه بقدر تلك الدرجة من الكمال التي بلغها في الدنيا ، اما الذين يستوفون ما قدر لهم من الحياة ثم يبلغون أجلهم دون ان ينالوا شيئا من الكمال ودرجاته فان ملف هؤلاء سيغلق ولن يكون بإمكانهم التكامل في الآخرة .

المعرفة محور تكامل الانسان :

ولعل أهم المحاور التي يتكامل الانسان من خلال الالتزام بها هو محور معرفة الله والتقرب منه . فلو ان الانسان المؤمن سعى ليبلغ الكمال في صلاته وصيامه وكل عباداته فان فضل الكمال هذا وثوابه يقيان وقفا على درجة معرفته بربه الكريم ، وقد جاء التأكيد في الاحاديث الشريفة عن اهل بيت العصمة والطهارة على اهمية المعرفة بالله - عز وجل - منها ما جاء عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : " من صلى ركعتين يعلم ما يقول فيهما ، انصرف وليس بينه وبين الله ذنب " ^(١)

وهكذا فان كمال الانسان وقيمة عمله يرتبطان بمقدار معرفته بربه لابهجم وكثرة اعماله ، ولذلك كانت معرفة الله - سبحانه وتعالى - اهم الدرجات المعنوية التي ينبغي على الانسان ان يجهد لبلوغ ما أمكنه بلوغه منها والا فان الأجل هو المحطة الاخيرة لهذه الرحلة التكاملية في الدنيا من حيث التزود بالمعرفة . فمن لم يستطع التزود ولو باليسير منها فلن يمكنه التزود بعد ذلك في الآخرة ذلك لان الدنيا هي مزرعة الآخرة .

وان من اعظم العذاب الالهي الذي يعذب به الاشرار والملحدون والكفار

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٦٦ رواية ١٢

والمشركون والمتمادون في غيهم وعصيانهم هو ان الله - تعالى - يحرمهم في يوم القيامة من معرفته والاتصال به ، وهذا ما يشير اليه دعاء كميل المعروف : " الهى فهبتى صبرت على حر نارك فكيف اصبر عن النظر الى كرامتك " ، فمن شديد عقاب الله - عز وجل - لهؤلاء هو انه يحرمهم من خطابه ودعائه فليس باستطاعة اهل النار مخاطبة ربهم مباشرة ، ولا يجوز لهم يومئذ ان يلهجوا بأسمه المبارك ، فالعلاقة مقطوعة ابدا والنداء غير مسموع .

الدنيا فرصة التكامل :

وهكذا فان الدنيا هي فرصة التكامل بالمعرفة الالهية ، فلا بد من ان تقطع المسافة التي تفصلنا عن ربنا - سبحانه - بالمسير اليه من خلال معرفته ، فما أشد حرمان ذلك المغبون الخائب الذي يحيى عشرات السنين في حياته الدنيا ثم يموت ولا يستثمر فرصة العمر الطويل حيث أبواب الرحمة الالهية مفتوحة أمامه ، وقد دعاه ربه الى نفسه قائلا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة/١٨٦).

وفي الروايات تأكيد على ان الله - جل وعلا - يبعث في اول كل ليلة جمعة ، وقيل في منتصف كل ليلة ملكا الى السماء الدنيا يدعو الناس الى دعوة الله ، ويقول عن لسان الله - تعالى - ان يا عبادي ادعوا ، اطلبوا ، فما اخسر وما اكسر حرمان ذلك الذي يصم اذنه ويسد عينيه ويحجب قلبه عن ذكر الله ودعوته رغم هذه الأبواب الواسعة المفتحة في هذه الدنيا .

فأين نحن من دعوات ربنا الرؤوف الرحيم لنا ؟! انه - سبحانه - يحب دعوة عبده ويحب الالحاق منه في دعائه ، ومن ذلك نفهم انه لا ينبغي للمؤمنين ان ييأسوا ويقتنطوا من روح الله وواسع رحمته حين يبطأ الجواب ، فربما لا يستجاب لهم لمصلحة وخير لهم فالله - جلت قدرته - أعلم بعباده ومصلحتهم وبما ينفعهم

ويضرهم فهو - تعالى - يحب ان يرى عبده وهو في تلك الحالة من الذوبان في قدسه ورحابه ، والخضوع والتذلل والتوجه له .

المسافة بيننا وبين ربنا :

بعد هذه المقدمة الضرورية نعود الى محور استفهامنا الرئيسي ، ومجموعة اسئلته

المتراپطة ، ونحاول ان نجيب عليها بما يلي :

ان الله - سبحانه - ليس ببعيد عن عباده ولكن العباد هم البعيدون عنه ، وبأمكان الانسان بالايمان والورع والتقوى ان يطوي المسافة المعنوية بينه وبين ربه ، كما ان بإمكانه في نفس الوقت بالعصيان والتمرد والتماذي في الأثم والفجور ان يعمق الهوة فتتأى ، وتتسع المسافة بينه وبين الخالق حتى يكاد ينقطع عنه ، فينساه ربه بعد ان نسيه هو ببغيه وعصيانه وتمرده .

ان الله - سبحانه - لا يحده زمان ولا مكان ، وليس وجوده بمزاولة ولا استيعاب ولا بأحاطة وانما هو الرب القيوم الحي الذي تقوم به السماوات والارضون ، والذي يمتلك غيب الغيوب ، والشاهد على كل شيء .

وعلى هذا فان تقصير المسافة بين الانسان وربه او زيادتها يتوقفان على الانسان ذاته ، وكل له عوامله واسبابه ؛ فالغفلة والامعان في العصيان ، والشرك بالله بكل أشكاله وألوانه وغير ذلك مما يسخط الله ورسوله ... كل ذلك عوامل واسباب تجعل المسافة طويلة وبعيدة ، وبهذا الابتعاد عن الله - تعالى - يظلم الانسان نفسه أشد الظلم ، وفي الدعاء الشريف تعبير رائع في هذا الصدد حيث جاء : " وانك لاتحتجب عن خلقك الا انه تحجبهم الاعمال دونك ، وان الراحل اليك قريب المسافة " .

ويروى في هذا المجال ان الامام علي (عليه السلام) سئل عن طول المسافة بين السماء والارض فقال (عليه السلام) : " انها دعوة مستجابة " ، فعلا فان القلب الذائب الذي يعيش اللوعة والحنين الى الله وخاصة اذا كان قلب عبد مظلوم ، فان

مثله عندما يهتف باسم الله فان هذه الكلمة النابعة من هذا القلب ذي النية الصافية الخالصة ستعدهم كل بعد ومسافة بين هذا العبد الداعي وربّه المجيب ، فحينما يكون القلب زكيا نقيا ، والنية خالصة فلا حجاب حينئذ بين العبد وربّه انما النور الالهي هو الرابط بين هذا القلب وبارئّه .

واذا كانت هناك حجب وظلمات حالكة فانما هي من صنع النفوس التي خضعت للشيطان ووساوسه ، ولا يمكن تحطيمها الا بمعول الارادة الايمانية ؛ فإرادة الانسان وتقواه وورعه يمكن اسقاط كل ما يفصل بينه وبين ربّه ، ولعل حجاب الشرك الخفي ، والخضوع للمخلوقين ، وإتخاذهم أربابا وأندادا من دون الله - سبحانه - يقف على رأس هذه الحجب .

التوحيد الخالص سلم المعرفة :

فلا جدر بالانسان المؤمن - اذن - ان يزيل عن نفسه حجب الخلق ، ولا يجعل في اعتقاده ان موجودا ما له قدرة مستقلة ذاتية ، فمثل هذا الاعتقاد هو منزلق الشرك الذي لا غفران له ، فليقطع أمله بكل ما هو غير الله ، ولا يخشى احدا سوى ربّه ، ولا يخف فيه لومة لائم ، وحين تجتمع هذه الميزات والخصائص الايمانية في المؤمن فانه سيشعر ويلمس كيف تتجلى الانوار الالهية البهية في قلبه .

ان الانبياء ، والائمة والاولياء والصالحين لم يبلغوا ما بلغوه من درجات العلو والسمو في القدس الالهي الا بما امتازوا به من ميزات التوحيد والتقوى ، ولذلك كان معراجهم الى ربهم التسبيح والتنزيه والثناء والحمد وكل سبل ووسائل العرفان الاخرى .

فالتسبيح محطة من محطات الانطلاق نحو عالم العرفان عندما يعي الانسان هذا التسبيح ويبلغ مستواه ويستلهم من آفاقه الرحبة ، والتسبيح وحده غير كاف من دون التقديس والتنزيه العمليين في حياتنا ؛ فهو يعني ان نطرد من اذهاننا كل الاوهام

والتخيلات والتصورات عن الله والتي تؤدي الى الشرك ، فكل تصور او تخيل شكلي سواء كان زمانيا او مكانيا عن الله - تعالى - معناه اننا جعلنا الله موجودا من الموجودات الممكنة ، الناقصة ، المحتاجة ، ويمكننا ان نصف أثر هذه التصورات التي تقود الى الشرك شيئا فشيئا بانها اول الحجب بيننا وبين الله ، فلا بد من إزالتها قبل تراكمها واستفحالها .

ان الانسان المؤمن عندما يسبح بحمد ربه بكل جوانحه ومن اعماق قلبه وضميره ومشاعره فان هذا معناه انه يعمل على اسقاط حجاب الكبر والعجب الذي لا يكاد يخلو منه انسان ، وهاتان الصفتان تمثلان واحدا من أخطر الحجب الفاصلة بين العبد وربّه ، بل هما مبعث السخط الالهي على الانسان فأية قوة يمتلكها الانسان إزاء القوى والطاقت الهائلة التي تملأ هذا الكون بكل آفاقه ؟ كما يشير الى ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الاسراء/٣٧)

فالاجدر بالمؤمنين - اذن - ان لا يدعوا الكبر والعجب يدخلان في نفوسهم ويلوثان قلوبهم ، وان ينبذوا الانانيات والاحقاد والعصبيات ويحرروا انفسهم من كل انواع الغل كي يعيشوا في رحاب ربهم الكريم ، ويحيوا فيما بينهم حياة طيبة هائلة .

طريق الصديقين نحو المعرفة :

ان الفضلاء والزهاد من العلماء واصحاب الائمة (عليه السلام) لم يكونوا يشعرون بالتكلف والتعب حين يؤدون الفرائض والمستحبات من العبادات ، بل كانوا يؤدونها وملء نفوسهم السعادة والرضى لما كانت لهم من علاقة حب وطيدة مع ربهم ، فكانوا ينتظرون على أحر من الجمر تلك الساعات في جوف الليل حيث تهدأ الأنفوس وتنام الأعين ، ليستغرقوها بين قيام وقعود وركوع وسجود يتهجّدون ويسبحون ويستغفرون كما يصفهم الله - تعالى - في قوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ النَّاسِ

مَا يَهْجَعُونَ * وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٧﴾ (الذاريات/١٧-١٨).

وفي هذا المجال يروى عن الامام الحسين (عليه السلام) انه بعث أخاه العباس (عليه السلام) الى القوم الذين خرجوا لقتاله ليطلب منهم امهاله ليلة عاشوراء ، لا خوفا من القتل المنتظر ، ولا حرصا على الحياة لساعات أخر ، بل لتجديد العهد بالصلاة والدعاء والتسبيح والتهجد ، فقد كان (عليه السلام) ممن يعشق الصلاة والعبادة ، وهكذا كانت النخبة الوفية من اصحابه .

ان الحديث هنا ليس حديث خوف من نار ، ولا طمعا في جنة بل هو حديث القلوب العارفة ، ولقاء الحبيب بالحبيب ، فالاتصال بالله - عز وجل - سواء بالصلاة أم بانواع العبادات المستحبة كالدعاء والمناجاة لا يقف عند حد في هذه الحياة الدنيا ، فليس هناك عبد مخلص يكتفي بذلك ، او يدعي انه عبد لله دعاه وأدى كل ما أمكنه من المستحبات بما فيه الكفاية ، فالأمر لا ينتهي عند الصديقين والصالحين من العباد فكيف بالنسبة الينا ؟

التقرب الى الله أعظم المسؤوليات :

ان التقرب الى الله بأي وسيلة طاعة ، والغاء المسافة والهوة الحاصلة بين العبد وربّه يمثلان أعظم مسؤولية يجند الانسان المؤمن نفسه لتحملها ابتغاء مرضاة ربّه الكريم فالأليق بالانسان ان يلقي ربّه بوجه أبيض وان يتقرب اليه عبر قناعة ورضى وسرور روعي في إداء العبادات المستحبة ، فهي وسيلة التقرب التي تسمو به الى رحاب القدس الأعلى بالاضافة الى ثواب الفرائض ، والتزام سبيل التقوى والورع عن محارم الله ؛ فليكثر الانسان المؤمن من صلواته ما أمكنه لان التقرب الى الله هو أهم هدف للصلاة ، بل لا صلاة بدون نية التقرب الخالصة لله - تعالى إسمه - بالاضافة الى الاهداف الايمانية التزكوية الأخرى التي نجد خلاصتها في قوله - تعالى - :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت/٤٥) .

وهكذا الحال بالنسبة الى انواع التكاليف الاخرى التي شرعها الله لنا كالحج والجهاد والقيام بالاعمال الصالحة ، وعلى العموم فان كل عبادة وعمل صالح لا يمكن ان يعطي ثماره الا بعد ان يكون هدفه القربى الى الله ، وهذا يعني إزالة الحجب وإختصار المسافة الفاصلة بين العبد وربّه ، والسعي من أجل إلغائها جهد الامكان ، وهذا هو سبيل معرفة الله .

فالمعرفة - اذن - هي اختصار المسافة ، وإزالة كل حجاب يبعدنا عن وجه ربنا الرؤوف الرحيم ، وهذا يتم بالعبادة المستفيضة والسعي الدؤوب في العمل الصالح ، إضافة الى التخلق بأخلاق الله - تعالى - ، وأخلاق انبيائه ورسله ، كالتواضع لله من خلال التواضع لإخواننا المؤمنين ، وعدم السماح لأدنى قدر من الكبر ان يدخل القلب ، اللهم الا التكبر على الانسان المتكبر لردعه ، ثم علينا ان لانحسب ان مايقع في ايدينا مما نفتنيه من زخارف الدنيا وبهاجها او ما تناله من مقام يجعل من حقنا ان نتكبر على الناس ..

وبعد التخلق بأخلاق الله يأتي طلب العلم الالهي والنهل والتزود منه ؛ فالعلم وسيلة ذو أهمية كبرى في التقرب والمعرفة الالهية ، وهو لا يكون نافعا ، ومثمرا بالخير والبركات الا اذا كان طلبه بنية التقرب الى الله - سبحانه - ، وانها لأعظم مكافأة من الرب الرحيم ان يموت المؤمن وهو على معرفة من ربه ، وحب واشتياق للقاءه ، والشهادة في سبيل الله هي ذروة هذه المكافأة وهي لا تمنح ولا توهب الا لأهلها من الشهداء كما يقول - تعالى - :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّاتِي ﴾ (الفجر/٢٧-٣٠) ، فالرجوع والدخول هما أعظم النعم

الالهية لما فيهما من الرضا المتبادل بين الراجع الداخل ، والمستقبل الكريم الذي يقوم بالضيافة بنفسه .

فاذا كان السرور والفرح يغمرانك عندما تجد مضيفك يقف على عتبة داره لاستقبالك ثم يخدمك ويكرمك بيده في حين ان هذا المضيف هو انسان عادي فكيف الأمر اذا كان المضيف في الغد ربا غفورا كريما ؟ بل واي كرامة وعزة ورفعة للانسان عندما يوهب ذلك المقام الجليل الذي وصفه - تعالى - في قوله : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (الْقَمَر/٥٥) ، فمقعد الصديق هذا يتحسر على بلوغه حتى أهل الجنة انفسهم ، والحسرة هذه لا يجب ان نفهم منها الالم واللوعة بما ينغص النعيم الذي يعيشه أهل الجنة ، وانما تعني طموحا يتطلع اليه أهل الجنة ، والطموح هذا لا يبلغه الانسان بحوله وقوته ، بل بحول الله وقوته .

الرضا تجسيد للسعادة :

والرضا هو تجسيد للسعادة الدنيوية التي ينعم بها الانسان المؤمن في حياته الدنيا ، فاذا ما وعى وادرك المؤمن قيمة نعمة واحدة فقط من هذه النعم فان هذا الادراك سيغمر قلبه بالرضا ، وعلى سبيل المثال فان علينا ان ندرك نعمة العافية والسلامة التي في أبداننا ونفوسنا ، والنعمة هذه ليست في الحقيقة نعمة واحدة بل هي مجموعة عظيمة من النعم تتأطر في نعمة واحدة نسميها (نعمة العافية) ، واما وسيلة التقرب بنعمة العافية الى الله فتمثل في شكرها العملي بالاضافة الى الشكر النظري بالقلب واللسان .

والعبرة والاتعاظ هما ايضا مصدر من المصادر التي تبعث الرضا والقناعة في قلب الانسان ، ويتجسدان من خلال وسائلهما العديدة منها زيارة ذوي النقص والخلل في عافيتهم ، او ذوي العوز والفقر وإعانتهم ، وزيارة أهل القبور الذين ذكرت الروايات بشأنهم إنهم يمرون بمرحلة عصيبة في برزخهم بحيث انهم يتمنون لو يرجعون الى الحياة الدنيا ولو ليوم واحد ، فالاعتبار بهؤلاء يشد الانسان الى التقوى ويعزز ايمانه ،

وبذلك يتقرب الى الله - سبحانه - .

والى جانب النعمة الكبرى المتمثلة في العافية هناك نعمة الأمن ، فليُنظر الانسان الى عظمه هذه النعمة التي يحياها في الوقت الذي يعاني فيه إخوانه من اسباب الهلاك والدمار ، ويتجرعون الموت الزؤام في مختلف بقاع الارض أفلا ينبغي بعد ذلك ان نتقرب الى ربنا - عز وجل - من خلال شكر هذه النعمة العظيمة عمليا ونظريا ؟

وبشكل عام فان الباعث على الرضا والقناعة هو النظر الى الأدنى حالا وعلى جميع الاصعدة ، وعلى العكس من ذلك فان النظر الى من هو أفضل وأرقى حالا سيؤدي الى التخلق بالأخلاق السلبية والتطبع بالأطباع التي تتنافى مع الايمان وتميت روح التقوى ، ومن ذلك ان الانسان يصبح أنانيا فضا غارقا في طمعه ، لا يشبع ولا يشكر هذا اذا لم يؤد به هذا السلوك المنحرف الى المعصية وإرتكاب المحرمات والموبقات .

ان هدف الحياة الدنيا أسمى وأنبل من ان يولد الانسان وينشأ لمجرد اشباع بطنه وفرجه ، بل الهدف هو التزود ب زاد الآخرة من خلال العبادة الخالصة والعمل الصالح ؛ فالانسان انما جاء الى الحياة الدنيا لكي يزرع فيها ما سيحصده غدا في آخرته ، والا فان الاطماع بكل اشكالها انما هي في الغد هباء منثورا ، فليسع الانسان في دنياه بما يقدمه من عمل صالح يبتغي به مرضاة ربه والقربة اليه ، والا فان الندم سوف لا ينفع في الغد ، فغدا سيعلم الجميع ان كل ساعة في الدنيا تعدل عشرات الملايين من ساعات الآخرة ، لان ساعة الدنيا قد تضمن لصاحبها من خلال انفاقها في العمل الصالح سعادة آلاف السنين في الآخرة ، وفي نفس الوقت قد تدخله في النار لدهور عديدة اذا ما ارتكب الانسان فيها معصية كبيرة . ومن ذلك كله نستنتج ان المسافة التي تفصلنا عن ربنا انما هي مصطنعة ، فبإمكاننا اختصارها وربما

إزالتها بالإجتهاد في الصالحات ، وبامكاننا أيضا توسيعها وتحويلها الى هوة
سحيقة ، وحجاب معتم سميك يبعدنا عن ربنا الكريم ، ونفحات رحمته ولطفه
ورأفته .

فلنعمل - اذن - على طي هذه المسافة والاقتراب الى الله - جل وعلا -
بالتسبيح والتتزيه والتقديس والتزكية والشكر ، لتتطهر نفوسنا وقلوبنا وتتزكى
أرواحنا ، حتى نلقى ربنا يوم غد بوجه مشرق ينسجم مع مقام النور الذي أعده لنا ،
وان نسعى ما أمكننا لكي نصل الى هذا المقام السامي ، كما وعلينا ان ننبذ ونتجنب
كل سلوك سلبي يبعدنا عن ربنا ويسقطنا في مهاوي جهنم ووديانها السحيقة حيث
لاينفع الندم ولا تجدي دعوة للمصفح والعفو .



كيف نحیی ربانیین ؟

في حديث مأثور عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) ورد قوله مناجيا الخالق - سبحانه - : " اللهم انت كما احب فاجعلني كما تحب " ، وهذه كلمة مختصرة ولكنها تحمل في طياتها معارف لا تحد بالعلاقة بين الانسان وربه فمسيرة الانسان في الدنيا انما تكون نافعة له اذا كانت باتجاه رب العالمين ، اما اذا كانت هذه المسيرة منكوسة باتجاه اهواء الذات ، وشهوات النفس ، وبالتالي باتجاه الارض فان الانسان سوف لا ينتفع بعمره فحسب ، بل انه لا يزداد في حياته الا بعدا عن تلك الاهداف والطموحات التي يريد ان يحققها في حياته .

ومسيرة التكامل الى الله - عز وجل - تتمثل في ان نردد مع انبياء الله الصالحين : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(الانعام/٧٩) وان نقول :

﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الانعام/١٦٢) . فمسيرة الانسان الفطرية الطبيعية الانتقال من الدرجات المادية الصرفة الى الدرجات العالية من الكمال ، وحتى عندما يدخل الانسان الجنة فان الله - سبحانه - لا يدعه على مستوى واحد ، بل يزيده كمالا وعلوا . وهذا يعني ان تكامل الانسان لا ينتهي ، بل يظل مستمرا الى أبد الآبدين .

ومن هنا فان هذه المسيرة هي مسيرة تصاعدية يتحرك على ضوئها الانسان الى الله ، ولعل الآية القرآنية التي تقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات/٥٦) تشير الى هذه الحقيقة ، لان الانسان انما يتكامل بسبب عبادته وطاعته وخضوعه لله وتسليمه له ، فكلما عبد الله اكثر ، كلما تكاملت حياته اكثر . فلقد اودع الله - تبارك وتعالى - في ضميره حب التكامل والتسامي والعروج الى العلا . وعبادة الله - سبحانه - هي التحرك نحوه ؛ اي ان يكون همه واعظم غاياته في الحياة ان يعيش الهيا ربانيا كما يريد الخالق ، ففيه - تعالى - الكرم والجود ، وهو ارحم الراحمين ، وغفار الذنوب ، وكل ما نفكر فيه من جمال وعظمة ومجد عند الله - سبحانه وتعالى - .

كيف نكون الهيين :

وعلى هذا فان اهم عمل يجب ان نقوم به في حياتنا ان نسعى من أجل ان نكون الهيين ، وان نعيش كما يريد الله - عز وجل - ، فهو يريد منا ان نتخلق باخلاقه . وفي الحقيقة فان هذه هي مسيرة الانسان ، فأهم هدف وغاية له ان يتقرب الى الله - سبحانه - ؛ اي ان يعوذ به وتكون فيه صفات مما يحب - جل وعلا - . ونحن كلما زدنا من هذه الصفات في انفسنا ، كلما ازددنا قربا من الله من مثل صفة العلم ؛ فالله يحب العالم ، ولا يريد الجاهل ، وقد جاء في الحديث الشريف : " فضل العالم

على العابد كفضل القمر على سائر النجوم " ، والسبب في ذلك ان العالم عندما يقوم بنشر العلم فانه سيكون افضل من العابد الذي يسعى من اجل ان ينقذ نفسه فحسب . وقد عاش ائمتنا المعصومون (عليهم السلام) لله - سبحانه - فأحياهم الله ، وخلصهم باذنه ، وعملوا له فبارك فيهم ، واخلصوا له فاخلص لهم مودة اوليائهم ، فكانت حياتهم كلها لله .

ومن جملة ما جاء في سورة الاحزاب التي يبدو انها مخصصة للحديث عن علاقة الامة بالرسول (صلى الله عليه وآله) ، التأكيد على ان النبي اسوة حيث يقول - تعالى - : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الاحزاب/ ٢١) . فالذي يريد ان يعيش الهيا فلا بد ان يتبع منهج الرسول ، فان قال احد : اريد ان اكون الهيا ربانيا ولكن شريطة ان اخترع ديننا لنفسي واتبعه ، قلنا له : اذا اردت ان تتقرب الى الخالق - جل وعلا - فعليك ان تسلك الطريق الذي يوصلك اليه كما يقول - تعالى - : ﴿وَأَتُوا بُيُوتَ مِّنْ أَبْوَابِهَا﴾ (البقرة/ ١٨٩) . فان كان هناك شخص يريد ان يقفز من الجدران فان الله - سبحانه - يعتبره سارقا ، ويأمره ان يعود من حيث أتى ، ولذلك جاء في الحديث الشريف : " انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد المدينة فليأتها من بابها " .

وفي هذا المجال يقول الامام الرضا (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن جبرائيل عن رب العزة : " كلمة لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " ، ثم قال (عليه السلام) : " بشرطها وانا من شروطها " . ونحن نقول يوميا : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة/ ٦) فما هو هذا الصراط المستقيم ؟ انه صراط الذي انعم الله عليهم ، وهم أهل البيت (عليهم السلام) لذلك يقول - عز من قائل - : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (لاحزاب/ ٢١) اذا أردنا ان نعيش الهيين فلنعش محمديين ، واذا اردنا ان نعيش ربانيين فلنعش علويين .

لنتنازل قليلا عن حقنا :

وفي العصر الراهن علينا ان نجاهد انفسنا ، وان نتبع الامام عليا (عليه السلام) الذي كان يمر بمثل هذه الظروف ، فقد عاتبته فاطمة الزهراء (عليها السلام) يوما قائلة : " يا ابن ابي طالب اشتملت شيمة الجنين ، وقعدت حجرة الظنين " مطالبة اياه ان يقوم ويطالب بحقه وحقها " فأجابها أمير المؤمنين (عليه السلام) ... نهني عن وجدك يا بنية الصفوة ، وبقية النبوة ، فما وثبت عن ديني ، ولا اخطأت مقدوري فاحتسبي الله ، فقالت : حسبي الله ونعم الوكيل .^(١)

كما انه (عليه السلام) وبعد ان خرج من الشورى بعد انتخاب الخليفة الثالث قال : " لنا حق ، فإن اعطيناه ، والا ركبنا اعجاز الابل ، وان طال السرى " ^(٢) ، وبهذه الكلمة اشار الامام (عليه السلام) انه وشيعته لا يبدؤون القتال ولا يثيرون الفتنة في الارض ، ولا يريقون الدماء .

ونحن يجب ان نتعلم من ائمتنا (عليهم السلام) ان تتنازل قليلا عن حقنا ، فان كان من حقي ان اكون رئيسا ، وكان هناك شخص آخر من حقه ايضا ان يكون رئيسا ، فعلي ان ابادر الى التنازل عن حقي ، وان لا اتسبب في قتل الآلاف من الابرياء . وهذا يعني ان مسؤولية المحافظة على الدماء هي مسؤولية صعبة فقد جاء في الحديث الشريف : " من جاء يوم القيامة وقد شارك في قتل مؤمن بشطر كلمة جاء وقد كتب على جبهته آيس من رحمة الله " .

وعلى هذا فان ائمتنا المعصومين (عليهم السلام) وعلى الرغم من الظروف المختلفة التي مرت بهم كانوا في طريق الله - جل اسمه - ، فكل ما اراده منهم عملوه ؛ فان اراد - تعالى - منهم السكوت سكتوا عن حقهم ، وصبروا كما فعل ذلك الامام علي (عليه

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ١٤٨ رواية ٤

(١) نهج البلاغة قصار الحكم ٢٢

السلام) الذي كان يقول : " فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى " .

الاقتداء بالأئمة في مساعدة الآخرين :

ولا يفوتني هنا ان اذكر بان علينا ان نقتدي بامام في عصرنا ، فائمتنا (عليهم السلام) كانوا كلهم يقومون بعمل اشتركوا فيه ؛ ففي اخريات الليل كانوا يحملون الجراب ، ويدورون على بيوت الفقراء والارامل والاتيام ، ويقدمون لهم المساعدات والهدايا ، وعلى سبيل المثال فان فاطمة الزهراء (عليها السلام) كانت تحمل الماء ، وزوجها الامام علي (عليه السلام) كان يحمل معها الحطب والدقيق ليطوفوا على بيوت الفقراء ليلا ، والامام الحسن والحسين (عليهما السلام) كانا يذهبان الى المساجد ، ويطوفان على النائمين فيها ليضعوا تحت رؤوسهم مقدارا من الطعام ، وعلى الواحد منا ان لا يجلس وينتظر ان يأتي الفقير الى باب بيته ، فربما منعه الخجل من سؤال الناس ، ولذلك فاني اوصي اخوتي المؤمنين ان ينتمي كل واحد منهم الى هيئة خيرية ليقدم العون الى المساكين ، والفقراء لان من يبخل فانما يبخل عن نفسه .

واعود هنا لاؤكد على ضرورة التأسي بالرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) ، ولذلك فان القرآن الكريم بعد ان يشير الى هذه الضرورة في قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فانه يقول : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (الاحزاب/ ٢٣) ، وهذه الآية نزلت في الأئمة المعصومين (عليهم السلام) الذين يمثلون اسمى مصاديقها اعتبارا من الامام علي (عليه السلام) ، وحتى الامام الحجة (عجل الله فرجه الشريف) .



تجليات اسماء الله في الحياة

ان لكل شيء في الخليقة هدفاً ، ونحن لانجد انى توجهنا بابصارنا شيئاً من دون هدف او غاية حتى وان كان ذرة متناهية في الصغر ، فهل من الممكن ان تكون الخليقة كلها بما فيها من بحار وقفار وجبال وكواكب ومنظومات ومجرات قد خلقت عبثاً ؟!

ان اول ما يدركه الضمير الحي الذي يتوجه الى الكون ، وينظر في السماوات والارض هو حتمية وجود هدف ، وانعدام وجود العبث في الخلق ، كما اشار الى ذلك تعالى على لسان المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران/ ١٩١)

الهدف من الخلق :

واذا كان الامر كذلك فما هو الهدف من خلق الكائنات ؟
من المعروف ان الارض وما حولها من كواكب قد سخرت للانسان ، فقد اصبح
هذا الانسان قادرا على امتطاء صهوة المركبات الفضائية الى الكواكب الاخرى ،
فيبدو انه قد خولت اليه السلطة في هذه الارض وما حولها ، فهو يغور اليوم في
اعماق المحيطات ، ويسبر اغوار الفضاء ، ويتحرك في الارض ، ويزيل الجبال ،
ويسخر الرياح .

وعلى هذا فان هدف خلق الارض وما حولها هو الانسان ؛ فما هو الهدف من خلق
الانسان نفسه ؟

هذا السؤال يجيب عنه القرآن الكريم في سورة الذاريات ، التي تذكرنا ببصيرة
المسؤولية ؛ ففي هذه السورة آية كريمة تشير الى بصيرة المسؤولية وهي : ﴿ وَأَن
لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ (النجم/ ٣٩-٤٠) ، وفي
خاتمة سورة الذاريات المباركة نجد الاية التي تقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ
إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات/ ٥٦)

العلاقة بين الخلق والعبادة :

وفي هذه الاية الاخيرة التي هي موضوع بحثنا كلمتان تتعاكسان وتتكاملان وهما :
كلمة (الخلق) وكلمة (العبادة) ، فيبدو ان الاية تبين العلاقة بين الله والانسان ، كما
توضح الصلة بين الانسان وبين الله ، فعلاقة الله بالانسان - ان صح التعبير - هي
علاقة الخلق ، فهو الذي خلق ، اما صلة الانسان بالله - تعالى - فينبغي ان تكون
صلة العبادة .

فهناك - اذن - خلق ، وهناك عبادة ، فما معناهما ؟

يبدو لي اننا نستطيع ان ندرك عمق كلمة العبادة ، اذا عرفنا عمق معنى كلمة الخلق ، لان هذه الكلمة تتواجه وتتعاكس مع الكلمة الاخرى ، فما هو - اذن - الخلق ؟

ان الخلق كلمة واحدة تدل على ثلاثة معان اساسية :

١- ان الانسان - كما هو حال سائر الكائنات - عبارة عن حقيقة قائمة لا وهم ، لان هناك بعض الفلاسفة القدماء وحتى المعاصرين يزعمون ان الانسان وهم ، وان ليس في عالم الكون الا الفكر ، فما نراه ونلمسه ونتعامل معه ليس الا وهما .
اما القرآن الكريم فانه يرفض هذا التفكير ويرى ان هناك مخلوقات ، وان هذه المخلوقات قائمة وذات وجود عيني وواقعي .

٢- ان هذه الكائنات التي هي موجودات قائمة وحقيقية حقيقتها قائمة بغيرها لانها ليست وجودات ذاتية والا لم تكن محتاجة الى الخلق ، وبناء على ذلك فانها وجودات غيرية قائمة بالغير ، ولذلك فاننا نرى كل شيء اعتبارا من العرش وما دونه قائم بالله - سبحانه وتعالى - ، فلو سلب الاشياء تأييده ونوره ولطفه وفيضه فانها ستتلاشى وتنتهي في أقل من لحظة . وعلى هذا فان هناك حيا قيوما قائما بذاته ، ومقيما لغيره .

٣- اما المعنى الثالث الذي هو المهم في هذا البحث فهو ان كل شيء مخلوق قابل للانتها ، اي انه عبارة اخرى قابل لان يصغر وقابل لان ينمو ويكبر في نفس الوقت ، فالله - تعالى - قد جعلني من حفنة تراب ، فاصبحت هذه الحفنة الترابية انسانا سويا فيه من الآيات والمعاجز ما لا يحصى .

وعلى هذا فان من معاني الخلق الاساسية قابلية النمو ؛ اي ان كل شيء من الممكن ان ينمو ويتطور ، ويتسامى ويتعالى .

وتأسيا على ما سبق تتحصل لدينا ثلاثة معان هي : ان الشيء قائم ، وانه قائم بغيره ، وانه ممكن الزيادة والنمو ، وعلى هذا فمادام الانسان من الممكن ان يغنى

ويتقدم فلا بد ان نسأل الله الغنى والزيادة ، والزيادة هنا تعني العبادة ، والعبادة تعني اضافة فكرة وبصيرة جديدتين ، وهنا لابد من التأكيد ان الزيادة يجب ان تكون في الاتجاه الصحيح ، لان بعض الزيادة تمنع المزيد كما يشير الى ذلك الحديث الشريف : " رب نعمة خلفت حسرات " ؛ فربما يطالب الانسان ببغية بسيطة فتأتي وراءها الحسرات .

متى تمنع الزيادة من المزيد :

فهناك بعض النعم والزيادات تكون مانعة عن المزيد كأن يزداد الانسان علما ولكنه لا يزداد مع هذا العلم تواضعا ، فزيادة العلم هذه ستضر به لان الحديث الشريف يقول : " من ازداد علما ولم يزد تواضعا ما ازداد عن الله الا بعدا " وكذلك الحال بالنسبة الى زيادة المال ، والى الحصول على الجاه والسلطة ، فقد يكون كل ذلك سببا لعدم نمو الانسان .

وعلى هذا فان الزيادة يجب ان تكون في الطريق الصحيح وحينئذ تكون (عبادة) وفي الحقيقة فان هذه السلوكية السليمة هي تجسيد لاسماء الله الحسنى ، فنحن نقرأ في القرآن الكريم في سورة الحشر هذه الآيات المباركات : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر/ ٢٢-٢٤)

وهذه هي بعض من اسماء الله التي هي وسيلة للتقرب اليه - سبحانه - ، ووسيلة التعبد الحقيقية ، ونحن أمرنا ان نعبد الله باسمائه : " والله الاسماء الحسنى فادعوه بها " ، فنحن عندما نتعمق في فهم هذه الاسماء نجد انها كلها تتمثل كمالات

ودرجات لنمو الانسان وحركته .

العلم عبادة :

ومن ضمن هذه الاسماء التي اشارت اليها الآيات السابقة (العلم) في قوله - تعالى - : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ، فالعلم هو الحبل الموصل بين الانسان وبين الله ، فاذا كان هذا العلم في طريق الله فانه يكون وسيلة للتقرب ، فمن ازداد علما ازداد قربا من الله ، ومن تعلم الله وعلم الله دعي عند الله عظيما .

وهكذا فان اسم (العالم) الذي جاء في سورة الحشر هو من الاسماء الاولى لله - تعالى - ؛ والنقطة الاساسية التي اريد ان أبينها هنا هي ان هذه الاسماء هي الدرجات التي يرتفع بها الانسان الى الله - تعالى - ولذلك فقد حثنا الله - على ان ندعوه بها ، فالعبادة ليست مجرد الركوع والسجود لان العلم هو ايضا عبادة .

ومن الاسماء الاخرى لله - تعالى - هو (الرحمان) ، وهذا يستدعي ان تكون رحيمًا ، وان يضر قلبك الرحمة . وقد وصف - تعالى - نبينا (صلى الله عليه وآله) بانه رحمة في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الانبياء/ ١٠٧) فهو نبي الرحمة وامامها ، وعلى هذا فان قلوبنا يجب ان تكون رحيمة شريطة ان تكون هذه الرحمة في طريق الله - تعالى - .

ومن اسمائه - جل جلاله - (العزیز) ، والعزة تعني القوة مع استخدام هذه القوة في السيطرة ، والعزة في سبيل الله عبادة ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (الانفال/ ٦٠)

وبعد ، فتلك وغيرها هي اسماء الله الحسنى ، ولذلك فان الله - عز وجل - عندما يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فانه يعني ان يتدرجوا في مدارج الكمال ، ومعارج العظمة والنمو بشرط ان يكون ذلك كله في سبيل الله ،

فالعظمة في غير طريق الله انما هي حقارة ، والعلم لغير الله جهل يأخذ بأيدينا الى النلر .

وهكذا فان حقيقة العبادة التي جاءت الاشارة اليها في قوله - تعالى - :
" ليعبدون " هي التحرك في مناهج الله ، فالعبد الحقيقي هو الخاضع والمسلم
أمره لله - تعالى - .

نستنتج من كل ذلك ان الانسان خلق لينمو ويتقدم ويسير نحو الله : ﴿ يَا أَيُّهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ (الإنشقاق/٦) حتى يصل الى لقائه
- سبحانه - : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر/٩٩)

وعلى هذا فان الهدف من خلق الكائنات هو الانسان ، اما الهدف من خلق الانسان
نفسه فهو ان ينمو ويتكامل ، فالانسان الذي لا ينمو ولا يتكامل ولا يزداد قربا من الله
- تعالى - مع مرور الزمن ، فالاولى به ان يموت وقد جاء في الحديث الشريف عن
الامام الصادق (عليه السلام) قال : من استوى يوماء فهو مغبون ومن كان آخر يومه
شرهما فهو ملعون ومن لم يعرف الزيادة في نفسه كان الى النقصان اقرب ومن كان
الى النقصان اقرب فالموت خير له من الحياة .^(١)

ضرورة تجلي اسماء الله في حياتنا :

واذا ما طبقنا - نحن المسلمين - مضامين هذه الآيات القرآنية فان بلادنا ستكون
افضل البلاد ، وعلومنا احسن العلوم ، وسنكون اكثر قدرة وسيطرة ومنعة من غيرنا
لان حوافز العبادة عندنا كبيرة ، فالقرآن جعل العلم عبادة ، والعمل عبادة ، والتقدم
عبادة ، فأنت اذا استصلحت الارض وبنيتها فانك قد مارست في الحقيقة عبادة .
وهكذا فان اسماء الله - تعالى - يجب ان تتجلى في حياة المسلمين ، وهذا هو

(١) بحار الانوار د ٦٨ ص ١٧٣ رواية هـ

معنى العبادة في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ،
وتلك الفكرة مستوحاة من هذه الآية القرآنية ، لان القرآن يقول بعدها : ﴿ مَا أُرِيدُ
مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ (الذَّارِيَات/٥٧) ، أي انه - تعالى - يريد ان
يعطيهم ، ولا يريد ان يأخذ منهم ، فالعبادة هي العطاء الالهي وتحرك الانسان
للحصول على المزيد من العطاء الالهي .

ان تلك الاسماء كلها لها تجليات في خلق الانسان ، وهي باجمعها تقرب الانسان
من الله - تعالى - ، وقد قال الله - عز وجل - في حديث قدسي : " خلقت الاشياء
لأجلك ، وخلقتك لأجلي " ، وقال - جل وعلا - في حديث قدسي آخر : " عبادي
لم اخلقكم لاربح عليكم وانما خلقتكم لتربحوا علي " .



اسماء الله تتجلى في أحكامه

الله - تعالى - هو ينبوع كل خير ، ومعدن كل عظمة ، وهو نور السماوات والارض ، ولكل اسم من اسمائه الحسنی اشارة ودلالة على صفة من صفاته الحميدة التي هي وسائل الخير ، ووسائل النور ، وامثلته .

ونوره - عز وجل - تجلى ويظل يتجلى من خلال المشكاة التي اشار اليها القرآن الكريم في قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ (النور/ ٣٥) ، والوسيلة الى هذا الافق الرحب ، والعالم الأسمى هي الأسماء الحسنی ، فهي الحبل الموصول بين العباد وربهم كما قال - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الاعراف/ ١٨٠) فمن خلالها نتقرب اليه ونزداد معرفة به ، وبالتالي نزداد قربة وزلفى اليه - عز وجل - .

اين يتجلى النور الالهي :

وهو - سبحانه - ليس بجسم او مادة حتى يحتل حيزا او مكانا ، بل ان مكانه في صميم قلوب اوليائه والمؤمنين به شريطة ان تكون طاهرة نقية من حجب الشرك ، وحجب النفس السوداء ، ففي هذه القلوب يتجلى الله - تعالى - ، ويتجلى نوره الذي لا يمكن ان ينطفئ ، ولقد جاء في الحديث القدسي : " لا تسعني سماواتي ولا ارضي ، انما يعني قلب عبدي المؤمن " ، وفي الدعاء الشريف عن المعصومين (عليه السلام) تأكيد على هذه الحقيقة اليمانية : " وانك لاتحجب عن خلقك الا ان تحجبهم الأعمال دونك وان الراحل اليك قريب المسافة " .

ان ما يحول بين قلب الانسان المؤمن ، وبين معدن النور ، وينبوع العظمة هو ذلك الهوس المادي ، والركون الى الدنيا ، والانهماك في ملاذها ، والتشبث بزخارفها وبهارجها ، واذا ما انقطع الانسان عن كل ذلك فعندما يتصل قلبه بمعدن النور العظيم ، وينبوع العظمة الكبرى ، اي بخالقه الرؤوف الرحيم حيث تنعدم الحجب وتتمزق .

الاسماء الحسنی تنسجم مع حقائقها :

ان الاسماء الحسنی تنسجم مع حقائقها ، وتقوم في مواضعها المنطقية ، وما لاسماء والصفات الالهية تنبثق السنن الربانية ، والوجود والكون قائمان بهذه السنن الالهية ، وان اي خلل او انحراف يحدث صغيرا كان أم كبيرا سوف يسفر عن انقلاب كوني كبير يخل بنظام الوجود كله ، ولذلك أبى الله - سبحانه - الا الثبات والاستقرار والدوام لهذه الانظمة والقوانين التي يطلق عليها القرآن الكريم اسم (السنن) . وهذا هو حال الوجود والكون منذ ملايين السنين ؛ فالشمس تنطلق باتجاه معين ، والارض وغيرها من الكواكب السيارة تدور حول الشمس بلا زيادة في السرعة ولا نقصان ولا أدنى انحراف الى اليمين او الشمال ، ثم هناك العناية واللفظ الالهيان الى

جانب السنن الدقيقة الثابتة ، وعلى سبيل المثال فقد توقع العلماء قبل سنوات ان تحدث ثغرة في الغلاف الغازي للارض بسبب التلوث البيئي ، وان الاشعة الكونية الخطيرة ستنفذ من خلال هذه الثغرة ، وتتسبب في القضاء على الحياة في كوكبنا شيئا فشيئا ، ولكن المعلومات الحديثة أكدت ان هناك بعض الظواهر الكونية التي هي جزء من القوانين والسنن الكونية تعمل على اغلاق وردم هذه الثغرات ، وهذا هو عين اللطف الالهي . وهناك عشرات الامثلة الاخرى التي تؤكد هذه الحقائق اليمانية في سنن الله في أرضه وسماواته ، وكيف ان أسماء الحسنی - تعالى - تتصل وتتعلق بسننه ؛ كل اسم بما يرتبط به من سنة ؛ فسنة الرحمة تتصل بأسم الرحمان الرحيم ، وسنة الانتقام تنبع من مواضع انتقامه ، وهكذا الحال بالنسبة الى بقية الأسماء ، والصفات الالهية .

سنة الانتقام من الطواغيت :

وحول سنة الانتقام الالهي نقول : ان الله - عز وجل - شاء بمشيئته العليا ان ينتقم من كل طاغوت متجبر في الأرض ، فهو - سبحانه - أبى ان لا تكون الكبرياء والجبروت الا له ؛ فقد جاء في الحديث عن الامام الصادق (عليه السلام) يقول عن الله تعالى : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما قصمته .. »^(١) ، ولذلك فعندما يأتي طاغية كفرعون ، ويدعي الربوبية قائلا : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » (النازعات / ٢٤) ، فان السنة الالهية تفعل هنا فعلها في الانتقام ، ولذلك رأينا ان رب العالمين أخذ فرعون وجنده واغرقهم في اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

وفي مقابل هذه السنة ، هناك سنة الدفاع عن المستضعفين المتصلة بسنة الرحمة ،

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ٣١٢

ومن كونه - تعالى - الرحمن الرحيم فهو يدافع عن المستضعفين وينصرهم في نهضتهم ضد الظالمين ، ويجعل انتقامه على أيديهم ان هم اخلصوا النصر له ولكلمته العليا ، ووجد منهم - سبحانه - الاخلاص والتفاني في سبيله ، وفي ذلك يقول - عز وجل - : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص/٥-٦)

الحكمة منطلق السنة ومنتهاها :

والحكمة تلي السنة ، وتنطلق منها ، ونحن نستنتج من ذلك انه لا بد من ان نستوحي من سنن الله وقوانينه حكما عامة نعمل وفقها وفي اطرها ، فعندما يوقن العبد بأن ربه رحمان رحيم فانه يستوحي من هذه السنة الالهية المتمثلة في الرحمة حكمة يجعلها نصب عينيه في حياته وتعامله مع اخوته من بني الانسان ؛ اي انه يتخلق بهذا الخلق الالهي فيكون رحيمًا بالآخرين ، ويتجنب التكبر والظلم ، فالمؤمن الحقيقي رؤوف رحيم بالعباد ، يرحم كبيرهم ويعطف على صغيرهم ، ورحمته هذه لا تقتصر على بني جنسه انما تتعدى ذلك لتشمل حتى الحيوانات والنباتات وكل شيء يستحق الرحمة والرفقة .

والوصايا الالهية هي الاخرى تنبعث من الحكم الالهية ، ومن هذه الوصايا تنبثق الاحكام الشرعية ؛ اي ان هناك على الدوام سلسلة قيمة تجب مراعاتها في الاحكام الشرعية ، ابتداء من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وسننه وحتى وصاياه واحكامه .

الاحدية اعظم الاسماء الحسنی :

وتعتبر الاحدية المشار اليها في قوله - تعالى - : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

﴿وَآخِرَ﴾ (الاسراء/٢٢) ، من اعظم أسماء الله الحسنى ، وهي تدعو الى نبذ الشرك وتوحيده - عز وجل - ، ومن هذا الاسم العظيم ، والصفة المقتصرة عليه - تعالى - تتبلور سنة الهية عظيمة وهي ان لا معبود في الوجود الا الله - جلت قدرته - ، وبه تنهار وتنحطم كل الآلهة والاصنام البشرية والمادية ، ومن هذه السنة او القانون الالهي تتفرع امور هي في غاية الاهمية منها ما اشار اليه الحديث الشريف : " من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربة الاسلام من عنقه " ^(١) ، فالتعصب للشيء يعني التزامه وتأييده بلا حدود ودون تحقق ، وهو أمر مرفوض اذ يجب تأييد الشيء واتباعه في إطار الحق ودائرة الشرعية والصلاح ، اما ان تؤيد شيئا ما وتتبعه دون نظر وتحقيق لهوى في النفس او لاسباب جاهلية اخرى فانه أمر غير منطقي ومغلوط يبعث على الضلال والانحراف .

ثم يقول - تعالى - بعد تلك الاية : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (الاسراء/٢٣) ، فالسياق القرآني يؤكد هنا سنة الاحدية التي تصدر عنها الحكمة الالهية المتعلقة بها وهي الاحسان بالوالدين ، فمجمال الطاعة للوالدين تمثل أمرا مطلوبيا وواجبا ، ولكن المستثنى من هذه الطاعة ، الطاعة العمياء . ويستأنف السياق القرآني الكريم قائلا في نفس الموضوع السابق : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (الاسراء/٢٣) ، وفي هذه الاية نلاحظ الدقة والبلاغة القرآنية العظيمة المنبعثتين عن اسم الرحمة الالهية ؛ فالوالدان هما اصل الانسان ، وهما اللذان وهباه الوجود الذاتي ، فلا يجوز التجرؤ عليهما ، والنيل منهما ولو بكلمة تأفف واحدة ، وللأسف فان ما نراه في المجتمعات الغربية هو سحق كرامة الآباء ، وجرح مشاعرهم

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ٢٩١ رواية ١٦

واحاسيسهم من قبل ابنائهم ، فبالاضافة الى التربية المادية الفظة التي قطعت الوشائج والصلات الرحمية واذابت الكيان الأسري ، فان الآباء والاجداد المسنين أجبروا على العيش بعيدا عن ابنائهم واحفادهم في المصحات ودور العجزة ، فلا يتصل بهم الابناء الا نادرا ، اما الاسلام فانه يوصي بل ويحث على المجتمع ان يحترم الآباء والاجداد ويوقرهم .

أمرنا بالاحترام لا العبودية :

ومع ذلك فان الاحترام والتوقير شيء ، والعبودية والطاعة شيء آخر ؛ فالعبودية والطاعة لا يكونان الا لله تعالى ، اما الاحسان والرفقة والرحمة وغير ذلك من الاخلاق الايجابية فلا بد من وجودها واستمرارها في المجتمع الانساني الذي يطمح الى بلوغ التكامل .

وهكذا فان التسلسل الموضوعي في القرآن الكريم فيما يخص أسماء الله الحسنی وصفاته العليا وسننه وشرائعه وحكمه واحكامه ووصاياه انما وضع ليفهم العقل البشري من خلاله الحياة والوجود الفهم الصحيح والمنطقي ، ويكون قادرا على التطور ضمن حدود الزمان والمكان خالدا ما خلدت السماوات والارض ، والذي يحول دون ان يبلى الاسلام هو انسجامه مع فطرة الانسان حيث صيغت قوانينه وشرائعه واحكامه ونظرتة للحياة بطريقة يفهمها العقل البشري والفطرة السليمة النقية .



الاسماء الحسنی تجلیات السنن الالهية

عندما نتصفح كتاب الله - سبحانه وتعالى - نجده حافلا بالمثلثات من اسماء الله الحسنی ، ففي فاتحته المباركة - مثلاً - نجد رغم قلة عدد آياتها العديد من اسماء الخالق - تبارك وتعالى - كالرحمان ، والرحيم ، والملك ، والمالك ... وهكذا الحال بالنسبة الى جميع السور القرآنية الاخرى ، وحتى السورة الخاتمة (سورة الناس) التي تعتبر من السور القصيرة للغاية فانها تحتوي على بعض من اسماء الله الحسنی كالرب ، والملك ، والاله .

سر التأكيد على الدعاء باسماء الله :
والسياق الذي سيدور بحثنا حوله في هذا الفصل يبتدئ باسم جليل من اسماء الله

الحسنى ألا وهو " السبحان " حيث يقول - عز من قائل - : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ (الاسراء/١) ، وهذا الاسم الشريف المقدس وغيره من الاسماء التي أمرنا الله - جل وعلا - ان ندعوه بها يدعونا الى التساؤل : ماهو السر في هذا الأمر الالهي والدعوة الميمونة ؟

للإجابة على هذا السؤال نمهد لذلك بالقول ؛ لما استحال على الانسان ان يحيط بكنهه الله - تعالى - ، وذاته المقدسة لمحدوديته الذهنية ، وقصور طاقته العقلية مهما بلغ من النبوغ والتفتح ، ولذلك فقد كانت علاقته بربه منحصرة في دعوته ، ومناجاته ، والتوسل اليه باسماء الحسنى ، وآلائه العليا . علما ان الانسان يزداد ايمانا بالله ، وعبودية له ، وتقوى ، ورعا كلما ازداد علما بضآلة نفسه ، وتفاهتها امام عظمة الله ، وجبروته ، وكبريائه .

استحالة الاحاطة بالذات الالهية :

وهناك الكثير من عوالم النفس الانسانية مازالت طي الجهل ، واسرارها لا يعرف الانسان كنهها ، فيقف حائرا امام تلك المجاهيل ، والآفاق الواسعة المترامية فيها ، فكيف الامر - يا ترى - بالنسبة الى الذات الالهية المقدسة ؟ فكما ان من المستحيل ان تجمع ماء المحيط في قدح صغير ، فكذلك الامر بالنسبة الى معرفة الذات الالهية .

جهلنا بانفسنا وبالعالم :

على اننا ما نزال نجهل انفسنا ، ولم تزل معرفتنا بها ضحلة ، ولازلنا لحد الآن على ساحل بحرها ، فلم نبلغ قيعانها ، ونكتشف ما تنطوي عليه من مجاهيل واسرار رغم ان هذه النفس هي اقرب الاشياء الى الانسان . فلا يبهرننا هذا التطور العلمي ، وهذه التكنولوجيا الجبارة ، والآفاق الواسعة ، والاكتشافات الهائلة التي حققها رواد العلم .

فما زالت هناك - رغم ذلك - الكثير من ابواب العلم مؤصدة تبحث عن يعثر على مفاتيحها ، علما ان عظمة العلم تكمن في انه كلما انفتح منه باب أطلت هذه الباب على مئات الابواب التي تحتاج الى جهد لفتحها . وعلى سبيل المثال فان الخلية التي هي وحدة بناء الكائن الحي والتي لا تراها العين المجردة ، اثبت العلم انها عالم واسع ومنظم تحكمه القوانين والانظمة ، ومع ذلك فهناك عقد علمية في الخلية لم يتمكن العلماء المختصون من اكتشاف اسرارها ، واعطاء تحليلات وتفسيرات مقنعة حولها . فما زالت الكثير من الظواهر فيها تفسر على اساس نظري بحت ، وربما تضاربت النظريات العلمية فيها .

فاذا كان ذلك غير ميسور بالنسبة الى اولئك الذين انفقوا عمرهم في العلم والبحث والدراسة والاختبار ، فكيف بنا نحن الذين لم نغترف غرفة واحدة من هذا البحر الواسع المترامي الاطراف ؛ واذا كنا نجهل هذه الخلية الصغيرة في اجسامنا ، فكيف يمكننا ان ندعي القدرة على معرفة كنه الذات الالهية المقدسة التي اوجدت الاشياء والوجود والكون الواسع اللامتناهي بمجرد الارادة ؟

لا طريق امامنا سوى التوسل بالاسماء الحسنی :

واذا كان الأمر كذلك تبقى علاقتنا بالخالق - تعالى - ان ندعوه ، ونعرفه باسمائه الحسنی كما يقول - سبحانه - : ﴿ وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الاعراف/ ١٨٠) ، وكما يقول ايضا : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (الاسراء/ ١١٠) . وكلما دعونا الله - جل وعلا - باسم من اسمائه الجليلة كلما ازدادت معرفتنا به ، وقربنا منه ، وحبنا له ، وفي المقابل سوف يزداد حب الخالق لنا ورحمته ولطفه بنا . فلندعه دائما ، ولنناده باسمائه ، ولنغتنم كل فرصة تسنح لنا في الذكر ، والدعاء ،

وان انشغل اللسان فليبق القلب ذاكرا متهجدا فهو - سبحانه - قريب يسمع
النجوى ، ويعلم ما في الصدور ، ويعرف كل هاجس فينا ، وكل نية في قلوبنا ،
فهو - سبحانه - يجيبنا ان دعوانه ، وناجينا ولو بقلوبنا ، او دموع اعيننا .

الاسماء الحسنی تجليات للسنن :

وبناء على ذلك فلنكي نبليق القربة عند الله فلا بد من ذكره ، ومعرفة اسمائه
الحسنی . ثم يجب ان لا ننسى ان لهذه الاسماء الجليلة معاني اخرى ، وهي كونها
تجليات لسننه - سبحانه - في الكون والوجود .

وعلى سبيل المثال فبخصوص الرحمة الالهية فان هناك سننا وقوانين وانظمة
تعبّر عن هذه الرحمة ، وهكذا الحال بالنسبة الى بقية صفات الله - جل وعلا - ،
واسمائه الحسنی كالعظمة ، والكرم ، واللطف ، والحلم ، والعلم وغيرها . وعلى سبيل
المثال فانك عندما تتأمل الظواهر الطبيعية والكونية المذهلة ، وتفكر في خلقها ،
ووجودها ، واستمرارها ، وعظمة حجمها من شمس وقمر ونجوم ، ومن جبال
وسهول ، وكائنات حية عجيبة ... فان عظمتها تدفعك بشكل لا ارادي الى ان تذكره
- سبحانه - باسماء عظمته وكبريائه . وهذا هو تعبير عن النظرة السليمة التي لم
تخالطها الشائبات المادية والالحادية ، فعظمة الشيء دليل على عظمة خالقه .

سنة تحمل المسؤولية :

وكذلك الحال عندما يتبادر الى اذهاننا قوله - تعالى - : ﴿ اِنَّ اللّٰهَ شَدِيْدُ
الْعِقَابِ ﴾ (البقرة/١٩٦) ، فهذا تعبير عن سنة الهية هي سنة الجزاء والعقاب ؛ فلكل
قول وفعل جزاؤه خيرا كان أم شرا ، ثوبا كان أم عقابا . وقد أكد - سبحانه - على
هذه الحقيقة عندما قال :

﴿ وَاَنْ لِّاِنْسَانٍ اِلَّا مَّا سَعٰی * وَاَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرٰى ﴾ (النجم/ ٣٩ - ٤٠) ،

وهذه هي سنة الجزاء التي جعلها الله لعباده في حياتهم الدنيا . فالانسان مسؤول ومكلف بذاته ، وهو في اطاره مملكة هو ربها وسيدها ، وكيان مملكته هذه هو جسده الذي لا بد من ان يعتني به ، وإلا فانه - اي- الانسان - مسؤول عن أي تقصير تجاهه . ولسنة الجزاء اسماء الهية عديدة تتعلق بها ، واكثرها صلة بهذه السنة اسمه - تعالى - (السميع البصير) . فالانسان متمرّد ومجادل بطبعه ، وهذا الطبع كان فيه منذ اليوم الاول الذي نفخت فيه الروح ، ولذلك كان لا بد من رادع وكابح لجماع التمرد الكامن في ذات الانسان ، ولعل الوازع النفسي هو من أهم هذه الكوابح . فاذا ما فقد الانسان هذا الوازع الذي يحافظ على سلوكه ، ويكون له خير ناصح و واعظ فان نصائح وارشادات الآخرين لا تكفي لوحدها ولا تنفع معه .

وبالاضافة الى ذلك فان القوانين والنظم سوف لا تجدي معه نفعا هي الأخرى ، ذلك لان الذي يفقد الوازع النفسي يعرف كيف يتحايل على القانون ويتهرب ويتملص منه ، وشواهد التحايل والالتفاف والتهرب هذه كثيرة تعج بها مجتمعاتنا ، فما اكثر عمليات التزوير والتهريب والارتشاء والمحسوبية وما الى ذلك من انواع الخرق ، والاعتداء على القوانين والانظمة .

ترى ما الذي يضبط سلوك الانسان ومواقفه وحركاته ، وما الذي يجعل قلبه واعيا متبصرا بحيث يبادر الانسان عندما يلج في دهاليز المعصية الى الامساك بزمام نفسه بنفسه ، والوقوف امام تدنيها ، وترديها في المعاصي والذنوب ، وبتعبير آخر : من اين يأتي هذا الوازع النفسي ، وكيف ينمو وينشط في الذات البشرية ؟

لا ريب ان هذا الوازع النفسي يتمثل في معرفة الله - سبحانه وتعالى - ، والاحاطة بعظيم صفاته واسمائه ، ومنها انه - سبحانه - سميع عليم ، يسمع ويرى ؛ وحس المسؤولية انما يظهر ويترسخ في وجدان الانسان وضميره كلما ازداد معرفة بالله - جل جلاله - بحيث يعيش الشعور برقابته سبحانه إياه في كل حركة وسكنة تصدر منه ، فهو معه في كل مكان ، و في كل لحظة وأوان .

والرقابة الالهية هي التي تجعل الانسان يتزن ، ويستقيم في حياته ، فتخلق فيه روح التقوى ، وتقويها شيئا فشيئا ، وتنمو في ذاته روح الرقابة ، والمحاسبة ، والشعور بالذنب والندم حين التقصير او ارتكاب المعصية . وهذا هو ما نسميه بـ (الوازع النفسي) الذي ينبت ويتجسد في الضمير الحي ، والوجدان الطاهر . فالمهم ان يكون قلب الانسان تقيا ، طاهرا لتنمو ، وتنشأ فيه المعرفة الالهية ، ولذلك جاء التأكيد في الاحاديث الشريفة على ان نذكر الله - تبارك وتعالى - في الخلوات .

وحقيقة كون الله سميعا بصيرا يجب ان نعيشها لتختلط بدمائنا ، وارواحنا ، ولتتجلى في قلوبنا ، وحينئذ نزداد ايمانا ، وتقوى ، وهدى من الله - سبحانه - . واذا ما نفذت هذه المعاني والخصال النورانية في قلوبنا ، وانسجمت مع ارواحنا ، فعندئذ سنعيش حس المسؤولية ، والواجب ، ونسدد قلوبنا بالطاعة ، والاداء ، والالتزام ، والاستقامة ، فترضى ضمائرنا ، وتطيب ارواحنا ، وبالتالي يرضى الله - سبحانه - عنا وهو الرضا الذي ننشده .

بنو اسرائيل انموذج التملص من المسؤولية :

وكمثال تاريخي على حالة عدم الشعور بالمسؤولية وعواقبها تذكر لنا سورة (الاسراء) قصة بني اسرائيل ، وكيف انهم كانوا يرفلون في النعم ، وان الله - تقدست اسماءه - فضلهم على العالمين عندما عاشوا روح المسؤولية ، وظهروا الولاء والطاعة لنبيهم موسى بن عمران (عليه السلام) ، وتحركوا وهاجروا وجاهدوا معه ، ولكنهم عندما بلغوا الشبع ، وبطرت معيشتهم ، شرعوا شيئا فشيئا بالطغيان ، والكفران بانعم الله ، وراح الكبر ، والشعور بالافضلية والتفوق على غيرهم يدخل الى نفوسهم ، ويدب في اذهانهم ، حتى تأصلت فيهم النزعة العنصرية .

وانا لا أدري بالضبط لماذا يتكبر هذا الانسان ، ويشمخ بانفه بغير حق ، ويحيط

نفسه بهالات العظمة والكبرياء وهو الصغير الحقير الضئيل الذي يصفه أمير المؤمنين (عليه السلام) خير وصف عندما يقول : " مسكين ابن آدم تقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة ، وتؤلمه البقة ، مكتوم الأجل ، مكنون العلل " . فهذا الانسان الذي لا يدري متى يموت ، ومتى يمرض ، وفي اي وقت يكون فقيرا ، او يصبح غنيا ، وهل سيصبح سيدا ، ام سيعيش عبدا يكاد يجهل كل شيء عن نفسه وحاله ومستقبله ، فلماذا التكبر ، ولماذا الغرور ، ولماذا كل هذا العجب بنفسه ؟!

وعلى سبيل المثال فان نمرود الطاغية الذي بلغ فيه الكبر ، والغرور ، والطيش درجة بحيث غدا يتصور نفسه الها ، فادعى هذه الالهية ، وراح يضطهد الناس ، ويحرقهم ، ويسجنهم ، ويعذبهم كي يسجدوا له ، ويعبدونه من دون الله - تعالى - . هذا الطاغية شاء الله - تبارك اسمه - ان يذله اشد اذلال من خلال دويبة دخلت في اذنه ، واستقرت في مخه حتى اخذت تتغذى عليه ، فتتهيج الآلام المبرحة في رأسه ، ويصرخ ، ويستغيث ، وكان لابد له من ان يضرب على رأسه لكي يسكن الآلام ، فكان يعطي الاموال لعبيده كي يضربوه على رأسه ، وظل على هذه الحال حتى هلك ، وانتقل الى سواء الجحيم .

وهكذا الحال بالنسبة الى بني اسرائيل ، فعندما بطرت معيشتهم ، واصابهم الغرور بانفسهم وقوتهم ، قالوا مقولتهم العنصرية وهي :

﴿ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِاللَّهِ مِنْكُمْ وَأَجْبَأؤُهُ ﴾ (المائدة / ١٨) . وهذا الاتجاه هو الذي حرفهم عن الطريق القويم ، وامات فيهم روح المسؤولية ، فتبخرت التقوى من قلوبهم ، وكتب الله - سبحانه - عليهم الذلة ، والمسكنة الى يوم القيامة بسبب ما ارتكبوه من جرائم ، وانتهاك للحرمت ، وانطلاقا من نزعتهم العنصرية ، وغرورهم ، وكبرياتهم الذي ازلهم عن جادة الصواب ، فانزلوا في متاهات الفساد ، والفساد في الارض . فالشبكات الصهيونية العالمية التي تعاني امم الارض من ويلاتها ، ومؤامراتها ، وجرائمها ليست

بالظاهرة الجديدة بالنسبة الى الاتجاه اليهودي العنصري القديم .

النصر قرين الشعور بالمسؤولية :

ان علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار ان النصر الالهي انما ينزل علينا في اليوم الذي يشعر فيه الجميع بمسؤوليتهم ، ويعرفونها ، ثم يعملون ويحرصون على اداؤها على احسن ما يكون الاداء والاتقان . اما عندما نتهرب وتنملص ، ونلقي هذا الحمل الذي لابد من حمله وراء ظهورنا ، ونبرر تقاعسنا ، وهروبنا بآلاف التبريرات ، فلنغسل ايدينا - عندئذ - من نصر ننتظر من الله - سبحانه - ان ينزله علينا .

وبعد ان نحس بالمسؤولية ، ونعيشها في وجداننا ، ونعمل بها ، ونؤديها لابد من ان يكون هذا الاداء والعمل متسما بالاخلاص ، والحرص على اتقائه . وعلينا ان نبعد الانانية والمصلحية العمل بالمسؤولية الملقاة على عواتقنا ، ولنعلم ان ذلك الذي يحلم بمنصب او مقام يفوز به من وراء جهاده وسعيه لا يمكن ان يوفق وينجح ، ولا يصلح لان يكون مجاهدا .

فلا بد - اذن - من ان تشيع روح الاخلاص ، وتدب في كل فرد منا لكي نصل الى اهدافنا المتمثلة في تحقيق النصر ، وبلوغ الحرية . فمادام الانسان يعيش داخل اطار ذاته فلن يستطيع فعل شيء ، او انجاز عمل مشمر ، فالاولى بالجميع ان يذوبوا في بوتقة الامة الواحدة ، ويتحركوا ، وعندئذ بإمكانهم ان ينتظروا النصر والتسديد الالهي .

الفاعلية تجسيد للمسؤولية :

ولابد لنا في هذا المجال من الفاعلية التي هي تجسيد لعق الشعور بالمسؤولية ، وهذه الفاعلية تتأطر في أمور وسلوكيات عديدة منها ؛ اغتنام الفرصة ، واستغلال الزمن باقصى ما يمكن استغلاله للعمل والعطاء ، ومن ثم تكثيف الجهود ، والمثابرة ،

والهمة في العمل والتحرك .

فلا بد - اذن - بعد كل ذلك ان نتبنى هذه الحقيقة ، وننطلق منها ؛ وهي اننا عندما نعمل بجد واخلاص ، وانطلاقاً من المسؤولية التي تملأ وجودنا ، ووجداننا ، وضائرنا ، وحينما نكشف ونوحد جهودنا ، ونخلص في اعمالنا لله - تبارك وتعالى - ، ونكون مجاهدين لله بمعنى الكلمة ؛ اي ان نكون مجاهدين حق الجهاد ، فحينئذ فان الله - جل وعلا - سيفدق ويفيض علينا بالامكانيات ، والقدرات .. من خلال فتح ابواب الرزق امامنا .

اما عندما ننسى - لا قدر الله - المسؤولية ، ونتملص من ادائها ، واداء الواجبات الملقاة على عاقتنا ، ونتهرب منها فان الأمر سيكون معكوساً - والعياذ بالله - اي بمعنى ان النصر الالهي سوف يحبس عنا . فلا يستجيب - سبحانه - لدعائنا ، وسنظل في هذه الحالة نتردد في متاهات عدم الشعور بالمسؤولية ، وانعدام الاخلاص في العمل لان كل انسان يجازى بمقدار عمله ، ويكون مصيره من جنس الاعمال التي يقوم بها ، كما يقرر - جل وعلا - هذه الحقيقة في قوله : ﴿ إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الاسراء/٧) .



الباب الثاني

حقيقة التوحيد

التوحيد قمة الهرم القيمي

لوجمعت الفضائل وجَدَت وركَّب منها شكل هرمي لكأنت " مخافة الله " رأس هذا الهرم ، وفي الحديث الشريف " رأس الحكمة مخافة الله " ما يشهد على صحة قولنا ، ذلك لان مخافة الله - سبحانه - هي ميراث معرفته ، وليس بمستطاع القلب ان يستوعب معرفة الله الا اذا استشعر الوجل والخشية منه - تعالى - .

هذا ن ناحية ، اما من الناحية الاخرى وهي الناحية السلبية فان الخباثات والردائل لوجمعت لوجدنا ان مصدرها هو حب الدنيا ، وقد صدق امام المتقين علي بن ابي طالب (عليه السلام) عندما قال : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " .

والقيم النبيلة الفاضلة التي تصب في نهريها روافد كل القيم ، والتي تنطلق منها حكم الشريعة الالهية ، هذه القيم ذات ارتباط وثيق بالتوحيد والمعرفة الالهية ومخافة

الله - جل وعلا - .

أعظم القيم :

وتفصيل سبب ذلك ان قيمة الاستقلال والحرية هي أعظم القيم الانسانية واسماها ، وهي مبعث كل خير في هذه الدنيا ؛ فالانسان الذي يتمتع بالاستقلالية ويستشعر العزة والكرامة ، فانه حر في كل كيانه ولا يكون حاله كحال اولئك الهمج الرعاع الذي ينعقون مع كل ناعق ، ويميلون حيث مالت الريح ، فهم أسرى الأهواء والشهوات لا حرية لهم ولا كلمة مستقلة .

ولكي يكون الانسان حرا ولكي يعيش مستقلا لابد ان يتجنب ما يرسخ فيه تلك الخصائص السلبية المقيتة ، فهو ولكي يعيش في هذه الحياة انسانا بمعنى الكلمة عليه ان يجعل عزته وكرامته نصب عينيه حتى يشعر بحلاوة الحرية ولذة الاستقلال ، واذا ما فقد هاتين الميزتين فما الذي يبقى له من انسانيته ، وما قيمة تلك الحياة التي يلفها الذل والحرمان والاضطهاد وسحق الكرامة ، ويسير الانسان فيها كآلة ذليلا مهانا ؟ وهكذا فان الحرية والاستقلال هما أعظم القيم ، وفيهما ينطوي معنى التوحيد الالهي ، فعندما نهتف في وجه الطغاة فان هذا الهتاف التوحيدي يعني رفض العبودية لغير الله ، والايمان بالله وحده حيث لا خشية الا منه - سبحانه - .

الفطرة دليل التوحيد :

ان البشرية تدرك بفطرتها ان الله هو ربها ، وهو الذي خلق كل شيء كما يشير الى ذلك - تبارك وتعالى - :

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾
(الزَّحْرُف/٩) ، فلم يشهد التأريخ دينا لا يعترف بألوهية الله - تعالى - ، وحتى الماديون والماركسيون الذين كانوا الى الأمس القريب ينكرون وجود الله - سبحانه

وتعالى - نراهم اليوم وقد تنكروا لمبادئهم وتراجعوا عن افكارهم ، فالبشرية قد خلقت على فطرة التوحيد والايمان والاعتراف بوجود الله وربوبيته ، رغم انها قد تختلف بالطريقة والاسلوب عن بعضها البعض .

وعلى هذا فان الموضوع الاساسي ليس هو الاعتراف بوجود الله او انكاره ، وانما التوجه اليه ، ورفض سائر الالهيات الزائفة المتمثلة في الاصنام ، والاثان الحجرية والبشرية الطاغوتية . فكلمة (لا اله الا الله) تعني رفض الآلهة المزيفة ، والطواغيت ، وكل قوة سلطوية من خارج ذات الانسان كقوة السلاح او المال او الفكر الباطل ، او من داخله مثل الشهوات والاهواء التي هي اصنام النفس الداخلية ، وهذا هو التوحيد بمعناه الفلسفي .

ان الانسان الذي يعيش حياته خاضعا للطاغوت ، منفذا لإرادته ووسيلة بيده ، مثل هذا الانسان ليس مؤمنا بالمعنى الحقيقي للايمان ، وهو غير حر ولا عزيز عند الله والمؤمنين ، ولا يمكن ان يحبه الله - تعالى - ولو نطق بشهادة التوحيد آلاف المرات وتعبدا اياما وليالي في المساجد ، لان هذه الشهادة ستكون منه مجرد لقلقة لسان لا اكثر ولا اقل . فصدق الايمان والعقيدة يجب ان ينعكس في السلوك والعمل على صعيد المجتمع والحياة .

فالتوحيد - اذن - هو القيمة الاولى ، ورأس الهرم في مجموع القيم والمفاهيم والعقائد الالهية النبيلة ، وهو مصدر الحرية والاستقلال ، ويتجسد في اولئك الذين يريدون الحرية والاستقلال اللذين يعتبران مصدر كل خير وبركة وسعادة في الحياة .

الاسلام يخاطب المظلوم أولا :

ونحن لو تفحصنا الثقافات البشرية السائدة لوجدنا انها ومن أجل ان تقضي على ظاهرة الظلم فانها تخاطب الظالم أولا ، وتطلب منه ان ينتهي عن ظلمه ، في حين اننا لو نظرنا الى ثقافتنا الاسلامية الرسالية فاننا سنجد انها لاتطلب من الانسان ان

لا يكون ظالما لكي ينعدم الظالمون في الارض ، بل تتبع اسلوبا ذكيا واقيعيا فتلتفت الى الانسان وتأمره ان لا يكون مظلوما ، وان لا يرضى بالظلم ، فهي تشير فيه روح التحدي والتصدي للظلم .

وهكذا فان الثقافة الاسلامية لاتوجه اللوم الى الطغاة كما هو حال الثقافات الاخرى ، لان هؤلاء الطغاة قد اختاروا طريقهم ، فلا فائدة ترجى من لومهم ، بل هي تنهى الانسان عن اتباع الطاغوت والرضوخ اليه ، فهي لاتطلب من الحكام ان يهبوا الحرية لانها حق فطري للانسان ، بل تخاطب الانسان وتحثه على انتزاع حريته ان لم يستطع نيلها بسهولة ، فالثقافة الاسلامية تهتف بالانسان ان : " لاتكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرا " .

ضمان التقدم :

ومما لاشك فيه ان الحرية والاستقلال أمران أساسيان لتقدم المجتمعات واستقلالها وهذا ما نلاحظه في البلدان التي يتمتع ابناؤها بهاتين الخصيصتين ، فاننا نجدها متطورة متقدمة على جميع الاصعدة ؛ السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، فالانسان فيها حر كريم عزيز ، يتحرك وينشط ويبني وينتج ، ويطور انتاجه ونشاطه .

ولا يغيب عنا ان الاستقلال والحرية تمثلان قيمة انسانية منبعثة من صلب التوحيد ، ذلك لان الاسلام يريد من الانسان المؤمن ان يعيش حرا أيبا ، يشعر بالعزة . والكرامة لاتعطى ولا تمنح عادة بل تؤخذ وتنتزع بكل غال ونفيس ، فتحقيقها بحاجة الى بذل التضحيات والانفس والدماء .

اننا لو تساءلنا : كيف نصبح احرارا ، ودرسنا التأريخ لوجدناه انعكاسا وتجسيذا لمعاني قوله - تعالى - :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ

بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴿البقرة/٢٥٦﴾

لقد اضحينا في عداد الموتى بسبب رضانا بالذل ، ورضوخنا وخصوعنا للظالمين ، في حين ان على الانسان المؤمن ان يصون حرите وكرامته ، فلو كنا لانمتلك شيئا سوى الايمان والتوكل على الله - تعالى - فان هذا وحده يكفي للوقوف في وجه الطغاة :

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق/٣)

فما قيمة قوى الطاغوت أمام قوة الله وجبروته وعظمته ؟
النبي ابراهيم (عليه السلام) تحدى لوحده تجبر نمرود وسلطانه ، فحاجهم وحاجوه ، وتعجبوا من جرأته قائلين : اما تخاف ، اما تخشى الموت وانت ما تزال شابا يافعا ليس من ورائك عشيرة تدافع عنك ، ولاتملك سلاحا تحارب به ؟!
ولكن ابراهيم (عليه السلام) ابتسم مستهزئا بهم وقال لهم كما صرح بذلك القرآن الكريم :

﴿قَالَ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الانعام/٨٠)
فلقد أنعم الله على النبي ابراهيم بنعمة الهداية وهي أعظم نعمة يمن بها الله على عباده .

ويستمر النبي ابراهيم (عليه السلام) في محاجة قومه من اتباع نمرود قائلا :
﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَإِنَّ الْقَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الانعام/٨١) ، ويأتي الجواب على هذا التساؤل في السياق نفسه متمثلا في قوله - جل وعلا - :
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (الانعام/٨٢) ،

فالإنسان الحقيقي هو لذلك الإنسان المطمئن قلبه برحمة الله ونصره ، فالإنسان يتجه بكل جوارحه ، وبحقيقة إيمانه ، وسلامة موقفه نحو الله - عز وجل - ويعتمد ويتوكل عليه .

الاعتماد على الله :

فالإنسان مادام مؤمناً فإنه يعتمد على الله - عز وجل - وحده ولا يمدنّ يد الحاجة إلى هذا أو ذاك وهو يعلم أن ثقته بالله واعتماده واتكاله عليه سيضمن له رزقه وهذا نابع من قيمة التوحيد . لذلك تراه في حركة ونشاط ومشاركة يضرب في الأرض ويستثمر طاقاتها وكنوزها وينتج ليقدم النفع إلى نفسه ومجتمعه فهو لا يستغنى العيش كلاً على الآخرين وقد وضع نصب عينيه الحديث الشريف الذي يقول : " ملعون من ألقى كلاً على الناس " .

ولكننا وللأسف الشديد إذا احتجنا إلى حاجة ولينا وجوهنا غرباً أو شرقاً ، وإن أردنا بضاعة أو معونة اقتصادية تملقنا للغرب أو الشرق ، وهذا هو حالنا في أغلب أمورنا وكأن الله - سبحانه وتعالى - لم ينعم علينا بهذه الخيرات والثروات والكنوز والرزق الوافر فلماذا لا نعتمد على أنفسنا ونستثمر هذه المعادن والطاقات ، أليس الأجدر بنا أن نفكر ونعمل بدلاً من التسكع على أبواب الشرق والغرب ؟

إن علينا أن نعلم أن من يلقي كله على غيره ، ويهمل طاقاته الفكرية والجسدية فإنه سيعيش حالة الفقر والتخلف طيلة حياته ، أما الإنسان الذي يتكل على الله وحده ويستغل المواهب والطاقات الفكرية والبدنية التي منحها الله إياها فإنه هو الذي يحيى الحياة الطيبة الحرة الكريمة ، والله - سبحانه وتعالى - يحث الإنسان دوماً على السعي والتحرك كما جاء في قوله : ﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ (الملك/ ١٥)

وبناء على ذلك كله فإن التوحيد هو قمة الهرم القيمي ، والإنسان الذي يعيش

في ظل الايمان الصادق بالله لا بد وان يحيا حياة فاضلة يسودها الأمن في جميع
اصعدتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما يقول - عز وجل - :
﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .



التسليم شرط التوحيد

ليس من العبد ولا لمصلحة يبتغيها الله - سبحانه وتعالى - وحاشى له وهو الغني الحميد ، عندما أنزل شرائعه لبني آدم وأوجب عليهم ما اوجب من الفرائض والسنن وحينما أمرهم ونهاهم ؛ فوراء كل ما نزل من التشريعات والأوامر والنواهي حكم ربانية تقوم عليها .

حكمة التشريعات والاحكام :
والقرآن الكريم لم يذكر حكما شرعيا ، او فريضة الهية الا وشفعهما ببيان الحكمة والقيمة اللتين ينطويان عليهما ، فعندما جاء الامر باقام الصلاة بين القرآن حكم الصلاة فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

(العنكبوت/٤٥) وفي آية أخرى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه / ١٤) .
وعندما أمر - عز وجل - بالطهارة والتطهر استعدادا للصلاة فانه قد اوضح
الحكمة من ذلك قائلا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ
فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ
اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة/٦) ، فالهدف الاسمى من عملية التطهر سواء كان وضوء او
غسلا او تيمما هو ذات التطهر .

واذا تحدث القرآن عن الزكاة بين الحكمة من وراءها ذاكرا انها تطهيرا للذات
وتزكية للنفس : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (التوبة/١٠٣)
وهكذا الحال بالنسبة الى الحث القرآني على الجهاد بمختلف انواعه ، فربما تكون
الحكمة منه التمحيص ورفع درجة الانسان المؤمن ، او بلوغ احدى الحسنين ، او
اقامة العدل وتحرير الشعوب من سلطان الكفر والجور وما الى ذلك من الحكم
والاهداف العديدة .

وفي بعض الاحيان يصرح القرآن الكريم بمفهوم الحكمة ويشير اليه كما في قوله
- سبحانه - : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ (الاسراء/٣٩)

هرمية القيم الالهية :

وهذه الحكم والعلل . والاهداف والغايات المثلى تنتظم ضمن مجاميع ، وتشكل
بالترايط بينها هيكلا هرميا ؛ أي انها تتصل ببعضها حتى تنتهي الى قيمة واحدة تقع

في قمة هذا الهرم .

فالصلاة - على سبيل المثال - هي فريضة واجبة ، وهي لم تصبح واجبة الا لانها تمثل ذكر الله ، والذكر هذا لم يكن واجبا الا لان الله - عز وجل - قد خلقنا ، وتفضل علينا بنعمه التي لا تحصى ، ولانه كذلك فلا بد ان نقف امامه خاشعين نذكره من خلال الصلاة التي فرضها علينا فالصلاة هي قيمة تتسلسل وتتنظم حتى تصل الى القمة ، وكذلك الحال بالنسبة الى الزكاة فهي واجبة لانها طهارة للقلب وتركية للنفس ، والطهارة والتركية هما مقدمة وتمهيد لذكر الله - تبارك وتعالى - .

متى يتصل القلب بالنور الالهي :

ان القلب المشحون بحب الدنيا محجوب عن ذكر الله ، واذا ما فرغ هذا القلب من حب الدنيا فحينئذ سيكون بإمكانه الاتصال بالنور الالهي ، ذلك لان حب الدنيا رأس كل خطيئة ، فالرغبات والحاجات الدنيوية المادية هي حائل دون الذكر الخالص . والدليل على ذلك ان احدا لو كان على عطش او جوع شديد فليس باستطاعته ان يفرغ قلبه ، ويتوجه بشكل كامل الى ربه ليذكره ويصلي له دون ان يبالي بالجوع او العطش الذي اصابه ، ونحن في احوالنا الطبيعية نجد انفسنا عندما نقف للصلاة تهجم حشود الشياطين على قلوبنا وافكارنا ، وما ان نفرغ من هذه الصلاة حتى نرى انفسنا في واد ، وما لقلقت به السنتنا من ذكر في واد آخر ، ذلك لان القلوب والنفوس لم تتطهر بعد لتكون اهلا للذكر الخالص الواعي .

اصلاح وتطهير القلوب :

ومثل هذه القلوب من الممكن اصلاحها وتطهيرها وتهيتها للذكر الخالص من خلال استثمار مواسم التطهير والتركية من مثل شهر رجب و شعبان وشهر رمضان المبارك . ففي شهر رمضان نقرأ الادعية التي تسهم في تطهير القلوب ، وتركية

الانفس من الماديات والرغبات الدنيوية مثل الدعاء الذي يقول : " اللهم صل على محمد وآل محمد واعمر قلبي بطاعتك ، ولا تخزني بمعصيتك ، وارزقني مواساة من قُتِرَ عليه من رزقك بما ورست علي من فضلك ، ونشرت علي من عدلك ، واحييتني تحت ظلك " .

ان القلب الذي يركض لاهثا وراء الدنانير والدراهم ، ويحلم بالذهب والفضة ، ويبحث عن الجاه والشهرة والمناصب ، وتجرفه تيارات الانانيات انما هو محجوب وان كان صاحبه عالما او فقيها فالعالم الذي لا يزيده علمه قربة الى الله وتواضعا للناس انما هو محجوب عن ذكر الله - تعالى - .

واذا وجدت في قلبك الرغبة في القرآن واداء العبادات فاعلم ان القلب منك نظيف ، وان فقدت تلك الرغبة ولم تستشعر حلاوة قراءة القرآن واداء الصلاة فاعلم ان غيوم الدنيا السوداء قد لبدت سماء قلبك فحجبته عن بارئه ، وعليك ان تعمل بما تخرق به هذا الحجاب ، وتقشع تلك الغيوم لكي تستشعر في نفسك التلهف الى النظر في كتاب الله وتلاوته ، وتؤدي صلاتك وعباداتك بكل شوق فليس صادقا ذلك الذي يدعي حب الله ثم لا يستأنس بتلاوة كتابه الذي هو حديث الله اليه كما يقول الحديث الشريف : " من قرأ القرآن تحدث الله معه ، ومن صلى تحدث مع الله " .

فليسع الانسان المؤمن كي يجعل قلبه يهفو الى الصلاة ويعشقها ، فالصلاة خير موضوع وهي معراج المؤمن وقربان كل تقي ، فلنعظمها ونحبها الى قلوبنا ، ولنكثر من مستحباتها بالاضافة الى الخلوص في ادائها .

وهكذا فان علل واهداف الشرائع وحكم الفرائض والقيم الناجمة من الطاعة الالهية لأوامره - تعالى - ونواهيه انما تجتمع في هيكل هرمي تقع القيمة الالهية العليا في قمته ، وتنحدر منها سائر القيم متسلسلة حتى تصل الى الاحكام الشرعية ، والفرائض الدينية .

التسليم القيمة الالهية العليا :

ورب سائل يسأل : ماهي القيمة او الحكمة الاساسية التي تتفرع عنها سائر القيم والحكم ؟ وبتعبير آخر : ماهي القيمة الالهية العليا التي تقع في قمة هرم القيم ؟ ان هذه القيمة هي التسليم لله - سبحانه وتعالى - ، فكل الاحكام تنتهي عند هذه القيمة الاساسية ، والحقيقة الايمانية الكبرى ؛ فالاحكام والشرائع والفرائض الالهية وكل ما يتعلق بالطاعة تهدف كلها خلق روح التسليم لله عند الانسان المؤمن . فالتسليم هو روح العبادة ، والى ذلك يشير قوله - عز وجل - عن لسان ابراهيم (عليه السلام) : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/ ٧٩)

فالانسان الذي يجد في نفسه روح المعارضة والرفض امام الله - تبارك وتعالى - واحكامه واولياته فهو ليس بمسلم . والله - سبحانه وتعالى - لا يحتاج الى القسم عندما يعكس ويطرح الحقائق في كتابه المجيد ، ولكننا نجده رغم ذلك ولعظم وخطر بعض المفاهيم والقيم يطرحها بعد القسم بنفسه المقدسة كما هو الحال في حقيقة التسليم التي نحن بصدددها فهو - عز وجل - يقول : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء/ ٦٥) ، وهذا هو التسليم المطلق .

عدم تسليم ابليس سبب لعنه :

وابليس - عليه اللعنة الدائمة - لم يكن قد طرد من رحمة الله وأبعد من مقام الملائكة السامي الا لانه لم يسلم لأمر الله - تعالى - عندما أمره بالسجود لآدم ، وكان قد عرض على الله ان يسجد له سجدة تطول أربعة آلاف سنة على ان يعفيه من

السجود لآدم ، ولكن الله - جل وعلا - رفض عرضه هذا لانه كان في غنى عن هذه السجدة الطويلة .

وسبب تمرد إبليس ، وعدم تسليمه لأمر الخالق استكباره ونزغته العنصرية وقد صرح بذلك عندما سأله الخالق - سبحانه - عن سبب امتناعه عن السجود فقال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (ص/٧٦)

وربما يروادنا الاستغراب والتعجب من سجد الملائكة التي خلقت من نور لآدم المخلوق من طين اذا أخذنا بنظر الاعتبار مجرد السجود ، ولكن هذا الاستغراب والتعجب سرعان ما يزولان اذا ما راجعنا الحوار الذي يروييه القرآن بين الملائكة وريهم عندما خلق آدم : تأملوا هذا الحوار : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة/٣٠)

فالاعتراض قد حصل من الملائكة على خلق آدم لعلم علموه بما ستجنيه ايدي ذرية هذا المخلوق ، ولكن ما في العلم المطلق لله هو غير ما في علم الملائكة المحدود ، وهذا ما اشار اليه - عز وجل - في قوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقد قيل في تفسيره ان الله - سبحانه وتعالى - يعلم ان في آدم نور النبوة ، فمن ذريته سينطلق الانبياء وعلى رأسهم الخاتم المصطفى محمد (صلى الله عليه وآله) ، ومن ذريته ايضا ستنبئ شجرة الامامة ، فلاجلهم كان ذلك الأمر بالسجود ، وهذا ما يزيل الاستغراب من سجد النور والنار للطين ، اما رفض ابليس فكان يعود الى الاستكبار والاستعلاء الشيطانيين .

الولاية مصداق السجود الملائكي في حياتنا :
ان مفهوم هذا السجود الملائكي ينعكس عندنا اليوم ويتجسد في قيمة الولاية ،

ولذلك فان (التولي) ليس بالامر الهين ، فالولاية هي أثقل ما في ميزان يوم القيامة ، فهي تبدأ من ولاية الله - عز وجل - ، ومنها تنحدر الى ولاية انبيائه ورسله ثم ولاية الائمة ، ثم ولاية من فرض الائمة طاعتهم واتباعهم والرجوع اليهم .

ومع ذلك فان الانسان يكابر ويصر على غيه ويمعن في مخالفة الحق عندما نجده يعكف على عبادة غير الله من الاصنام والاوثنان بل وحتى الحيوانات والجمادات ! فتعشش روح ابليس بين احشائه لتحجب قلبه عن النور ، وتفسد ضميره ووجدانه بل وتميتها ، واني لمثل هذا الانسان ان يشم رائحة الجنة فضلا عن دخولها مالم يخرج مافي قلبه من آثار الكبرياء والعناد .

وقد جاء في الحديث الشريف : " كل انسان يضر ما أظهره فرعون " وهذه هي صفة الكبرياء التي تحكم بها فرعون على الناس ، ومن خلا استدلهم واخضعهم لطغيانه فقال : ﴿ اَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات/٢٤)

الكبر كامن في نفوسنا :

وفي الحقيقة فان هذه الصفة كامنة في نفوس الكثير منا ، وآثاره تظهر في سلوكنا وتصرفاتنا واخلاقنا ، فهناك الكثير ممن كانوا يقرؤون القرآن وما ان سمع احدهم انه قد ارتقى الى سدة الحكم حتى اطبق القرآن ، ووضعه في الرف مخاطبا اياه : هذا فراق بيني وبينك .

وهناك حاكم آخر يضع القرآن الكريم امامه ليرميه بسهامه قائلا :

تهددني بجبار عنيد فها انا ذا جبار عنيد

اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلندع الله - جلت قدرته - ان يمنحنا السلامة في ديننا ، وحسن العاقبة والا فان الاستكبار قد يكون سببا في انحرافنا وفسادنا وخروجنا عن الصراط المستقيم .

ان الولاية الحققة التي يشهد لها القول والعمل هي التي تزيل الكبر من النفوس ،
وتطرد الوسوس الشيطانية منها ، وتزكي القلب وتطهره وتفتح له نور الايمان .
فلننبذ التوجهات الشيطانية من نفوسنا ، ولنتمسك بحبل الولاية الذي هو حبل الله
فأهل البيت (عليه السلام) هم سفن النجاة ، وتجسيد مولاتهم في اخلاقنا وسلوكنا
واعمالنا نجاة لنا من النار والعذاب ، ففي يوم القيامة لا بد ان يسألنا الله - جلّت
قدرته - عن هذه الولاية ، والنعمة الكبرى التي ما بعدها من نعمة ، كما يشير الى
ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ ثُمَّ لُتْسَأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثُر/٨)

التسليم المطلق للولاية :

وفي هذا المجال تروى قصة طريفة عن علي بن الامام جعفر الصادق (عليه
السلام) والذي كان من كبار فقهاء الشيعة ، وكان اخ الامام موسى بن جعفر (عليه
السلام) ، وعم الامام الرضا (عليه السلام) ، وبمنزلة الجدة للامام الجواد (عليه
السلام) ، وقد كان هذا الرجل قد عمر حتى ادرك إمامة الجواد (عليه السلام)
للأمة ، وكان الامام يأتي وهو طفل صغير الى مسجد النبي (صلى الله عليه وآله)
فينهض هذا السيد الفقيه رغم كبر سنة وشيخوخته ويأتي بالنعل ويضعه امام قدمي
الامام الجواد (عليه السلام) ، فتنبري جماعة لتعيب علي بن جعفر على سلوكه هذا
تجاه الامام فيرد عليهم غير آبه بهم : وما تروني افعل والله - سبحانه - لم يجد
أهلية الامامة في هذه الشبهة ، والله اعلم حيث يجعل رسالته .

حاجتنا الى هذه الولاية :

واننا بحاجة الى مثل هذا التولي ، فالولاية ليست بالمفهوم الجديد ، بل جاء
التأكيد عليها بعد ظهور الاسلام ، بل هي عهد قطع منذ خلق الله - تبارك وتعالى -
آدم حيث قال - عز وجل - : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة/٣١) ، كما

جاء في الحديث الشريف : " ما من نبي ولا وصي الا أخذ عليه الميثاق بنبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وولاية علي (عليه السلام) " .

ولذلك فان الولاية هي جوهر التسليم لله - سبحانه وتعالى - والرضا بقضائه وقدره ، وطاعته في أوامره ونواهيه ، ولذلك فانها ليست بالأمر الهين السهل فمن طبع الانسان الرفض والمعارضة بسبب ما ينزغ الشيطان ويوسوس في صدره . ولقد دأبت الامم على مقاومة انبيائها من حيث نقطة الولاء والتسليم هذه ، فلا بد من تدريب النفس وترويضها على التسليم للخالق ، وهذا التسليم لا يكون الا بالولاء لأهل بيت العصمة والطهارة الذين هم سفينة النجاة يأمن من ركبها ، ويغرق من تركها ، والمتقدم لهم مارق ، والمتأخر عنهم زاهق ، واللازم لهم لاحق .

التسليم سر قبول العبادات :

فلننزع ما في انفسنا من علو وكبرياء فهما لا يكونان الا لله - تعالى - ، والا فلا أمل لنا بأن نشم ريح الجنة فضلا عن دخولها ، والتنعم في ظلالها ونعيمها الوارف . فلا بد من ازالة الكبر والعجب من نفوسنا ولو كانا بمقدار ذرة ، والا فان عبادتنا من صوم وصلاة وحج وزكاة سوف لا تنفعنا فالكبر هو سبب هلاك إبليس ، فالصلاة والسجود لا ينفعان وان طالآ آلاف السنين ، بل ان عبادات الانسان انما يعودان بالفائدة على الانسان اذا قرنا بالخضوع والتسليم لله - سبحانه وتعالى - .

وهكذا تبقى الولاية هي صاحبة العقبي الطيبة بعد فناء الباطل والكفر والضلال وأهله مهما علوا في الارض ، وأفسدوا فيها وظلموا وتجبروا وسفكوا الدماء وذلك بشهادة قوله - تعالى - : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص/ ٨٣)



الفصل الثالث

فلسفة التوحيد

من المعطيات المهمة لفلسفة التوحيد النظرة الوجدانية الى العالم ، فبينما نجد الشك يقسم الحياة تقسيمات حادة دون ان نرى فيه ذلك التفاعل والتمازج بين اركانها ، بل نرى ان كل نوع من انواع الموجودات في الحياة ينتهي الى إله يخصه ، وان هناك صراعا مريرا بين أرباب هذه الانواع في حين نجد في المقابل ان الفلسفة التوحيدية تربط كل شيء بالله - سبحانه وتعالى - ؛ فاليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، واليه تصعد الملائكة وتعرج ، والسموات مطويات بيمينه ، والارض في قبضته ، وحياة الانسان تبتدئ من ارادته وتنتهي اليه ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وله الخلق والأمر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ...

فلسفة التوحيد تنفي الشريك :

وهكذا فان فلسفة التوحيد تعني بالدرجة الاولى ان ليس هناك آلهة وأرباب غير الله - سبحانه - ﴿أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف/ ٣٩)

فهو الواحد بلا شريك والملك بلا تملك ، لا يمكن لأحد ان يقهر سلطانه او ان يهرب من حكومته او ان يخالف أمره الا بمشيئته ، ولا يعصى عن غلبة ولا يطاع الا بقوته ولا حول ولا قوة الا به ...

ان هذه الفلسفة تشير الى ان كل شيء لا بد ان ينتهي الى ذلك الرب الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد ، وحتى ابليس ذلك المتمرد اللعين الذي ينسب اليه كل شر والذي يغوي الانسان عن الصراط المستقيم والذي عصى ربه ودفع البشرية الى العصيان ، فانه خاضع - هو الآخر - لارادة الله ، ولولا ان الله - سبحانه - قد أمهله الى يوم يبعثون لما كان قادرا على ان يؤثر على الخليقة ؛ والانسان اذا استعاذ بالله من شر الشيطان اللعين الرجيم فانه سوف يدخره ويبعده عن نفسه ، لانه - اي الانسان - قد سمى الله وهو عارف بمعنى التسمية .

انسجام الحياة في فلسفة التوحيد :

وبعد فهذه فلسفة التوحيد وتلك فلسفة الشرك ، وهاتان الفلسفتان تظهران في كافة أبعاد الحياة ؛ فالفلسفة الاسلامية المنبعثة من التوحيد ومن ان كل شيء لا بد ان يرجع الى الله ترى وجود حالة التفاعل والتمازج والتكامل بين ارجاء الوجود وحقول الحياة . فالعلم مع العمل ، والتعليم مع التربية ، والارادة مع الفكر ، والحكمة مقترنة بالقول الفصل ، والرسالة الالهية الهابطة من السماء منسجمة مع ضرورات الحياة

المنبعثة من الارض ، والروح مع الجسد ، والجسد مع الروح ، والعلوم الدينية مع العلوم المادية الطبيعية ...

وعلى هذا الاساس فان نظرة الاسلام هي نظرة التوحيد ، في حين ان نظرة الشرك هي نظرة التجزئة . فنحن نلاحظ فيما يسمى بـ (الحضارة الحديثة) ان العلم منفصل عن العمل ، والاخلاق معزولة عن السياسة ، والسياسة في واد والدين في واد آخر ، وان كل حقل من حقول الحياة منفصل عن سائر الحقول الاخرى ، في حين اننا لانجد في الفلسفة الاسلامية مثل هذه النظرة التجزيئية .

التمازج بين الدين والسياسة :

اننا نجد في الاسلام ان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) هو الذي يقود العساكر والجحافل الجهادية كما يشير الى ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران/ ١٢١) وهو نفسه الذي يقودهم في الصلاة ويحكم بينهم كما يقول - عز وجل - : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء/ ٦٥) ، وهو إمامهم في حياتهم السياسية وقدوتهم في ذلك ، وهكذا الحال بالنسبة الى خلفائه الاطهار (عليه السلام) ، فهم يمثلون فلسفة التوحيد التي لاتعرف التجزئة ولا التفرقة في جميع جوانبها ؛ فالذي لايهتم بنظافة جسده وبيته لايهتم ايضا بصلاته لان من شروط الصلاة ان يكون الانسان نظيفا ، كما ان الذي لايهتم بحقوق الآخرين لايمكنه ان يهتم بصلاته لان من شروط الصلاة ايضا ان يؤدي الانسان حقوق الناس .

العالم في ظل فلسفة التوحيد :

ان الصلاة هي واحدة من فرائض الاسلام ولكنها ترتبط ارتباطا مباشرا بسائر

حقول الحياة ، ولذلك نجد ان الشخص الذي يطلب العلوم الدينية لابد وان يهتم بكافة أمور الحياة وحقولها ؛ فهو عالم وهو رياضي وهو مؤرخ وهو مطلع على بعض المبادئ الاولية في الطب .. فالعالم في الاسلام لا يعد عالما الا اذا استوعب سائر العلوم استيعابا كافيا .

وبالاضافة الى ذلك فان العالم الاسلامي زاهد في الدنيا ، وعابد مخلص في عبادته ، كما انه مدير ومدير في الحياة ، وعندما سئل العلامة الميرزا الشيرازي صاحب ثورة التنباك عن شروط المرجعية قال انها تبلغ مائة شرط ؛ الشرط الاول هو العلم ، والشرط الثاني التقوى ، اما الشروط الثمانية والتسعون المتبقية فتتمثل كلها في (الادارة) ، لان عدم تمتع الفقيه بالقدرة على الادارة والتدبير لا يمكنه من قيادة الناس وادارة حياتهم .

ولو كان العلم في الاسلام منفصلا عن العمل ، والمعرفة منفصلة عن الادارة ، ولو كانت الثقافة منقطعة عن التوجه الى الحياة الاجتماعية لكان يكفي ان يكون المرجع الاعلى في البلاد الاسلامية اعلم العلماء ، ولكن هل يمكنه في هذه الحالة ان يجند ويعبئ الطاقات الجماهيرية لمقاومة الاستكبار العالمي ؟

ملكة الادارة :

والسؤال المهم في هذا المجال هو : ماهي الادارة ، وكيف يستطيع الانسان اكتسابها ؟

هناك البعض من الناس يعملون لمدة طويلة في الصفوف الاجتماعية ولكنهم لا يصبحون مدراء جيدين ، ذلك لان الادارة ليست صفة من السهل اكتسابها ، وحتى لو أراد الانسان ان يكون مديرا جيدا فانه لا يمكنه خلال فترة قصيرة اكتساب هذه الملكة من خلال قراءة ودراسة الكتب والاكتفاء بالجانب النظري .

ان الادارة تعني معرفة المجتمعات البشرية والاطلاع على طبائعها وكيفية التعايش

معها ، والمدير المدبر للمجتمع الاسلامي لابد ان يتعرف بصورة مباشرة على نفسيات
العثات من الاشخاص ، وان يعرفهم معرفة عميقة وشاملة تمكنه من ان يوظفهم
لتحقيق الاهداف الاسلامية ، وان يلقي على عواتقهم مسؤوليات الامة .
ونحن بامكاننا تعلم الادارة من النصوص الشرعية ؛ فالادارة هي الصبر والحكمة
والاستقامة وخدمة عباد الله والاحسان اليهم والتضحية من اجلهم ، وجميع هذه
المعاني وغيرها نجدها في النصوص الشرعية .

الانسان كون مصغر :

وعلى هذا فان التوحيد تنظمه فلسفة تتمثل في النظرة التوحيدية الى الكون ،
وتستند الى ان الانسان جرم صغير يجد كل آفاق الكون في ذاته ، كما تشير الى ذلك
الحكمة المعروفة :

اتزعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر ؟

وهذا يعني ان كل شيء في هذا العالم يمثل جزء في ذات الانسان ، فهو - اي
الانسان - بمثابة دولة صغيرة تمتلك جميع الدول الاخرى ممثلات فيه .
وبناء على ذلك فاذا اصبح الانسان ذا بعد واحد في حياته فان بالامكان الاستغناء
عنه بانسان آلي يحل محله ويقوم بدوره ، ولكن الانسان الحقيقي لايمكن ان يعوض
بآلة صماء .

فالمطلوب - اذن - تربية الانسان الذي يعرف الفقه والادارة والتحقيق .. وان يقوم
- في نفس الوقت - بكافة الخدمات التي يحتاجها ويحتاج اليها المجتمع في
المستقبل عندما يتخرج هذا الشخص من المعهد العلمي الذي يدرس فيه سواء كان
هذا المعهد متمثلا في الحوزة الدينية او المدرسة المهنية . فنحن بحاجة ايضا الى
مثقفين اكفاء قادرين على التعامل مع شرائح المجتمع المختلفة ، وفي نفس الوقت
نحن بأمس الحاجة الى علماء دين لايشغلون في الدراسات والبحوث العلمية

فحسب ، وانما تكون لهم القدرة الكافية على التعامل مع الجماهير بمختلف طبقاتها وميولها .

واذا ما توفرت هذه القدرات والمواصفات والشرط في عالم الدين والمثقف الاسلامي ، فان المجتمع سيكون بمسيس الحاجة اليهما ، وفي هذه الحالة فقط سيكون بامكان الواحد منهما ان يكون إماما وقائدا للجماهير .
وكل ذلك يعود الفضل فيه الى النظرة التوحيدية التي يتميز بها الاسلام .دون سائر المذاهب والمعتقدات والاديان .



العقل دليل التوحيد

لايختلف اثنان في ان العقل هو من ابرز خصائص الانسان ، ومن اعظم ميزات العقل القدرة على الانتقال من الحقائق المشهودة الى المغيبة ، ومن المسائل الجزئية الى الحقائق العامة ، ومن الامثلة الواقعية الى السنن الالهية ، ومن الظواهر المعروفة الى القوانين العامة المجهولة .

و عندما يفقد الانسان امتياز الانتقال مما يراه الى ما يفعله ، ومما يبصره الى ما يستبصره فانه والحيوان سواء في القدرة العقلية .

ومن اعظم مظاهر هذه الحقيقة الكبرى ان الانسان عندما يتأمل الكون بما فيه من آثار رحمة الله وقدرته وعظمته وينتقل الى معرفة ربه ، فانه سيكون ممن يعقل المعلومات ويستثمر البصائر ويستفيد من الحقائق التي يراها ، اما اذا لم يتأمل الكون

ولم يصل الى حقيقة معرفة ربه فانه سيكون ممن لا يعقل بسبب جموده عند الظاهر ؛ فهو يرى جريان الشمس لمستقرها ولا يعرف ان ذلك من تقدير العزيز العليم ، ويشاهد الودق يخرج من كتل السحاب ويتدفق غيثا على الارض الجرداء ليحولها الى جنة خضراء ولكنه لا يبصر ان هذا من رحمة الله ، ويرى ان الانسان ينام في الليل ويصبح كالميت - اذ النوم اخ للموت - واليقظة من النوم كالانبعاث من بعد الممات ، ولكنه لا يستشعر من خلال هذه الظاهرة قدرة الله - جل شأنه - ولا يبصر اصابع الغيب في ذلك .

والله - سبحانه - بعد ان يستعرض في سورة الروم طائفة من آياته التي جعلها دليلا اليه ، وسببا لمعرفته ، ووسيلة للتقرب اليه يقول : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرؤم/٢٨) ؛ اي نبينها بوضوح وتفصيل للذين يعقلون ، اما الانسان غير (العاقل) فانه لا يبصر ولو ضرب القرآن ابرز امثلة الكون واروعها .

معنى العقل :

لو فتشنا عن المعنى الاصلي لـ (العقل) لعرفنا انه المحافظة على شيء ينطلق باندفاع ، ولهذا يقال لمن يمنع تدفق الماء من علوانه قد (عقله) ، ولمن يمسك البعير المنطلق في الصحراء انه قد (عقله) ، وهكذا الحال بالنسبة الى العلم الذي لا يستقر في دماغ الانسان لكونه يأتي بخطفة سريعة كالوميض ، ولذلك يحتاج الانسان الى مزيد من النشاط والحركة وقوة الارادة والحزم لكي يعقل العلم ، ويحفظه في قلبه من التبدد والتلاشي .

هل العقل في اجازة :

ان هناك حقائق كثيرة يغفل عنها الانسان ، واكثر هذه الحقائق يرتبط ارتباطا وثيقا

بدور العقل في الحياة ومن ضمنها : -

١- ربط الحوادث ببعضها :

ان يرى ضوء منبعثا من مصابيح الاضاءة دون ان يعرف ماوراء هذا الضوء المنبعث من نظام يولد الكهرباء فان في عقله خلا ، اذ لابد من ربط الظاهر الحاضر بالخفي الباطن ، وهكذا الحال بالنسبة الى جزئيات الشريعة وکلياتها ، اذ ان الغالبية العظمى من الآيات القرآنية تحدثنا عن الخطوط العريضة للشريعة او (الاصول العامة) حسب التعبير الفقهي ، و (الهدى) طبقا للتعبير القرآني ، ذلك لان المهم ان يعي الانسان الهدف العام اولا ، وبعد ذلك تتكفل السنة الشريفة والاحاديث المروية عن الائمة المعصومين (عليه السلام) بشرح الجزئيات وايضاها .

ومع ذلك فقد اشار الائمة (عليه السلام) الى مجموعة من الاصول العامة وتركوا أمر تفريعها وتطبيقها على الحياة الى الفقهاء والمراجع من بعدهم ، وهذا هو سر مرونة الاسلام ، وقدرة احكامه الشريفة على ان تطبق في كل عصر ومصر وفي كل الظروف ، لانها تحدت العقل الذي يكيّف بدوره القوانين العامة حسب الشروط الموضوعية والجزئية .

وعلى هذا فان استيعاب الكليات ، ومعرفة الاصول هما الأهم لكي يعرف الانسان حدود الشرك ، وطرق الابتعاد عنه ، اما التفاصيل فانها موجودة في السنة الشريفة او في عقل الانسان المهتدي بالسنة وهو الفقيه العادل .

٢- تكاملية الاحكام :

أ - ان الايات القرآنية تأمرنا باقامة الصلاة كقوله - تعالى - : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (الاسراء/٧٨)

فهذه الآية تأمر باقامة الصلاة إنابة الى الله ، واقامة الصلاة لم تأت منفصلة عن سائر الآيات القرآنية بل جاءت في اطار الآيات الاخرى ، اذ ان كثيرا من الآيات أمرت بالتوبة الى الله والتقرب اليه ، والصلاة هي الطريقة والوسيلة الى هذا التقرب ؛ فهناك آيات تأمر بالتقرب الى الله - تعالى - وآيات تأمر بالتوبة وأخرى بالصلاة لان الصلاة هي " خير موضوع فمن شاء اقل ومن شاء اكثر " و " الصلاة قربان كل تقى " كما جاء في الحديث الشريف عن الامام علي - (عليه السلام) ^(١) .

وعلى هذا فان علاقة الصلاة بالانابة هي علاقة السبب بالمسبب والوسيلة بالهدف والطريق بالغاية ، ولذلك تقول الآية القرآنية : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (الرؤم/٣١) ، فالانابة الى الله تكون عبر التقوى ، والتقوى تتحصل من خلال الصلاة .

ب - ان الحج فريضة على كل مسلم ومسلمة ، والسبب في ذلك ان هناك اهدافا رسالية تحققها فريضة الحج منها وحدة الامة وصحة الانسان وسلامة الاقتصاد ..
ج - ان آيات القرآن تهدف الى تنمية الثروة ، والعيش المبارك الكريم في الدنيا ، وفريضة الزكاة هي وسيلة تحقيق هذا الهدف .

ان من أخطر ما أبتليت به أمتنا الاسلامية تجزئة الاحكام عن بعضها ، وعدم فهمها بصورة متكاملة ، وعلى سبيل المثال فان المسلمين يصلّون ولكنهم لا يدركون العلاقة الوثيقة للصلاة بالنهي عن الفحشاء والمنكر ، ويحبّون دون ان يعرفوا علاقة الحج بالوحدة ، ويزكّون دون ان يربطوا بين الزكاة وبين تنمية الثروة وتوزيعها العادل .
والادهى من ذلك كله ان آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن التوحيد والشرك فصلت تماما عن الحياة السياسية في الامة على الرغم من ان هذه الآيات تمثل الاطار العام لحياة الانسان في الدنيا بل في كل جوانب حياته .

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ٩٩

وعندما يأمرنا الخالق - عز وجل - بتحقيق هدف استراتيجي او قيمة الهية وغاية مقدسة فان هذا يعني ان نبحث عن الوسائل التي أمرنا بها الله - تعالى - لتحقيق هذا الهدف .

٣- التوحيد أساس الانطلاق :

ولقد أمرنا الله بالاستقامة على التوحيد فكيف نستطيع ذلك ؟
فالمحافظة على التوحيد تقتضي من الانسان ان لا يتطرف يمينا او شمالا ، وهذه مهمة صعبة . فتوحيد الله - عز وجل - يمثل اعظم زاد يحمله الانسان الى الآخرة ، اما لو ذهب مشركا فلا شك انه سيدخل الجحيم كما يشعر بذلك قوله - عز من قائل - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (النساء/٤٨)

اي ان الله - عز وجل - لا يغفر ذنب الشرك ، وعلى هذا فان التوحيد هو المنقذ وهذا ما يثبته الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى : " كلمة لا اله الا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي " .

وللأسف فان الكثير من الناس يقولون (لا اله الا الله) في الوقت الذي يخضعون فيه عمليا للطاغوت ، فان هذه الكلمة سوف تكون حجة بالغة عليهم لكونها تتنافى مع عبادة الطاغوت والاصنام البشرية . اذ كيف يجوز ترديد هذه الكلمة باللسان وثقافة القلب وطعام الروح مستقيان من الآخرين ، فالتوحيد لا يمكن ان يجتمع مع هوى النفس . يقول - تعالى - : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (الرؤم/٢٩) ثم يقول - عز وجل - : ﴿ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ (الرؤم/٣٠) ، وقد قال بعض المفسرين ان (الحنيف) هو المنحرف عن الباطل ، الا اني ارى ان هذه الكلمة تعني

الطهارة والنظافة ، لان الشرك هو بحد ذاته نجاسة وقذارة ورجس من الاوثان بدليل قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (التوبة/ ٢٨) .

كيف نحقق الاستقامة :

ثم يحذرنا الخالق - سبحانه - قائلا : ﴿ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الرؤم/ ٣١) ، فان لم نكن حنفاء مستقيمين طاهرين فاننا سوف نكون من المشركين ، والاستقامة تتحصل من خلال تكييف الحياة مع هذا الهدف ، اما الذي يعيش على موائد السلطان ، وامواله فانه لايمكن ان يحافظ على توحيده لله ، لان الطاغوت سوف يستعبده . وهذا هو عين الشرك ، لانه اتبع السلطان منذ البدء أملا في المال ، ففقد استقلاله ، واعتمد في رزقه على سلطته بشكل كامل حتى وصل الى هذه الحالة ، ولذلك يؤكد الحديث الشريف على اهمية الاستقلال الاقتصادي فيقول : " من لا معاش له لا معاد له " ، ولذلك ترى الانسان المؤمن يسعى من أجل الكد على عياله معتبرا عمله هذا كعمل المجاهد في سبيل الله .

وهكذا فقد بين القرآن في البدء آيات الله في الكون ، ثم اشار الى سبب الانحراف ، وأمرنا بالاستقامة ، وحذرنا من ان نكون من المشركين ، واذا لم تتحرك الحمية في ذات الانسان ويتكل على الله وحده ويسقط التبريرات ويتحول الى كتلة من النشاط والحيوية ، فانه سينساق وراء الطواغيت ، وعلى العكس من ذلك فانه ان حافظ على التوحيد وترك التكاسل والاتكال والافكار السلبية التي تخلفت الامة بسببها ، ووطد ثقته بالله وبالطاقات الكامنة في نفسه ، فانه سوف يتحول الى فريق عمل ثم الى امة تحافظ على توحيدها واستقلالها وحريتها نتيجة لأعتماد على قواها العقلية في اثبات وجود الخالق ، والوصول - بالتالي - الى حقيقة توحيده .



السبيل الى اليقين

من خصائص المؤمنين انهم لا يبصرون شيئا الا ويتذكرون من خلاله الله - سبحانه وتعالى - واسماءه الحسنى لان الحجب النفسية تساقطت عن بصائرهم ، فالحياة كلها تتحول بالنسبة اليهم الى مدرسة نور وبصيرة وهدى ، فاذا اسدل الليل ستاره نظروا الى النجوم البازغة ، والى خريطة الوجود الجميلة التي ترصع الفضاء ، وتفكروا في خلق الله - سبحانه وتعالى - من خلال هذه النظرة ، فتنفذ بصائرهم الى أعماق أعماق الحقائق ؛ كيف خلق الله هذه الاجرام العملاقة ، وكيف نضدها في هذا الفضاء الرحيب ، وكيف أتقن صنعها وأضفى عليها الجمال والروعة ؟ فالنجوم التي تبعد عنا ملايين السنين الضوئية ماهي علاقتها بنجمتنا هذه المسماة بـ (الشمس) وما حولها من الكواكب ، وكيف نظمت علاقة الشمس بهذه الكواكب وخصوصا بأرضنا التي لو

ابتعدت قليلا او اقتربت انملة او تغير مسارها بعض الشيء لانعدمت الحياة على ارضنا ؟

المؤمن انسان متفكر :

ولذلك تجد ان هؤلاء وعندما يجن عليهم الليل يفتحون على الفضاء الرحيب ليس ابصارهم واعينهم فحسب ، وانما بصائرهم وقلوبهم ايضا كما يروي عنهم ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران/ ١٩١) .

فمن خلال النظر الى النجوم يكتشف الانسان المؤمن ماوراءها من حكمة عميقة ؛ فخالق هذا الكون تعالى وتسامى عن العبث ، ولذلك فان المؤمن يطبق تلك الحكمة على نفسه ، فيستنتج انه هو ايضا لم يخلق عبثا ، ولا يمكن ان يترك سدى ، وانه لابد ان يكون هناك امتحان وابتلاء وجزاء ، وهناك ينتبه ويعود الى رشده قائلا : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

كيف نكون بصيرين :

ترى كيف يمكن للانسان ان يحصل على هذه البصيرة ، ولماذا حجت بصائر البعض من الناس ، ولماذا لا ينفذون الى اسماء الله وصفاته ولا يزدادون معرفة من خلال النظر الى آياته فتكثر امامهم العبر ولكنهم لا يعتبرون بواحدة منها حتى تعمى بصائرهم ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الاسراء / ٧٢) ، وكيف يتميز المؤمنون بالبصيرة النافذة كما يقول - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (الفرقان/ ٧٣) وكيف يتميزون بأنهم : ﴿ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الانفال/ ٢) ، وهناك ايضا سؤال آخر واخير

وهو : كيف يكون بمقدورنا بلوغ ذلك المستوى الذي يقول عنه الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : " ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ومعه وبعده "؟؟
اننا عندما نرى آثار رحمة الله - عز وجل - في الكون ننظر الى الارض حين تخضر ، والنباتات عندما تنمو وتربو وتحصد ، والانسان حينما يترعرع ويشيب ثم ينكسه الله الى ارذل العمر ليموت ويدفن ... فان كل ما في الحياة يتحول بالنسبة الينا الى مدرسة ومنهل للمعرفة والحكمة ، وبالتالي الى معراج روحي ووسيلة للتكامل والتسامي في حياتنا ، اما كيف يمكننا ان نصل الى هذه الدرجة الرفيعة فان القرآن الكريم يجيبنا على ذلك المرة بعد الاخرى في آيات عديدة منها قوله - تعالى - : ﴿ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ۖ ﴾ (ق/٨).

البصيرة تبدأ من الذات :

وهكذا لابد ان نوجه شرط التحول في داخلنا ، فالبعض من الناس يتصورون انه بمزيد من التعمق والتفكر وربط المعلومات ببعضها يمكنهم ان يحصلوا على البصيرة ، في حين ان البصيرة لا تحصل للانسان بهذا الاسلوب بل على العكس من ذلك فان الناس الذين يتعمقون ويجادلون في الحقائق تراهم أبعد البشر عن معرفتها ، فهي لا تتأتى للانسان بهذا النوع من التعمق والجدال والمراء في الدين ، بل لابد اولاً ان نوجد شرط البصيرة في انفسنا ؛ الا وهو تمزيق حجاب الكفر ودفع ثمن الايمان ، ولذلك يقول - تعالى - : ﴿ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ۖ ﴾ ، فاذا حصلت الانابة تهيات لدى الانسان الحالة النفسية التي تجعله يستقبل الحقائق ، وحينئذ ترى الانسان يكتشف ويرى من خلال حركة الافلاك والفصول المتعاقبة التي تطرأ على الارض ... المعاد والبعث والنشور .

انه يرى - على سبيل المثال - ان الارض هامة ، فينزل الله عليها من السماء ماء فاذا بها تهتز وتربو ، ثم يمرر عليها الرياح الهوجاء فاذا بها تذوي وتتحول الى ارض

جرداء قاحلة ، وهذه هي دورة الحياة ، وسنة الله - تعالى - فيها ، وهكذا الحال بالنسبة الينا ، فنحن نولد ثم ننمو ثم نموت ثم نولد من جديد .. ان الانسان المؤمن يبصر هذه الحقيقة من خلال هذه الدورة السائدة في الكون والحياة ، اما الآخرون فانهم لا يبصرون لانهم لم يوفرُوا في انفسهم شرط البصيرة المتمثل في الكفر بالطاغوت او أية قوة غير الهية مهيمنة على المجتمع ايا كانت ؛ فقد تكون قوة الأرباب ، وقد تتمثل في قوة المال والثروة والترغيب ، وقد تتجسد في التضليل والثقافة الباطلة .

ان على الانسان المؤمن - اولا وقبل كل شيء - ان يتحرر من هذه القوة ؛ اي ان يتحرر من العبودية ويعود الى جوهر وحقيقة نفسه ، ولا يكون تابعا فيكتشف عقله من داخل عقله لتبدأ عنده بعدئذ ويهدى من ربه المسيرة العلمية المتصاعدة ، وقد كانت اول كلمة قالها ابراهيم الخليل (عليه السلام) وفتحت أمامه ابواب المعرفة هي : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَاماً ءَالِهَةً﴾ (الانعام/٧٤) ، لقد قال ابراهيم (عليه السلام) هذه الكلمة ليفتح ثغرة في جدار المسلمات والمواضع الاجتماعية والثقافية آنذاك ، فاعلن عن انه لا يعترف بالاصنام : ﴿اتَّخِذْ أَصْنَاماً ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الانعام/٧٤) .

رحلة ابراهيم الى اليقين :

وعندما بدر من ابراهيم ذلك السلوك أراه الله - جل وعلا - حينئذ ملكوت السماوات والارض فقال : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ (الانعام/٧٥) ، وهنا علينا ان ندقق في كلمة (كذلك) فهي تعني انه بهذه الصورة والكيفية والاسلوب اوصلنا ابراهيم الى الحقيقة ، وانت ايضا اذا اردت ان تصل الى ملكوت السماوات والارض فلا بد ان تقتحم غمار الصراع مع الطاغوت فتتكبره ، وتدين المسلمات الذهنية التي خلقها هذا الطاغوت في المجتمع ادانة شديدة لكي تتسنى لك رؤية ملكوت السماوات والارض

ببصيرتك ، فوراء ملك السماوات قدرة وسنة وحكمة الهية ، وقد وصل ابراهيم من خلال رفضه الباطل الى قدرة الله - سبحانه - اي الى سنة الله والقواعد والقوانين التي يجريها في الكون ، والى حكمته ؛ اي الى اهداف هذه القوانين والسنن ونهاياتها وغاياتها ففي كل شيء قدرة وسنة وحكمة ، والقدرة هي تلك القوة التي تسير هذا الشيء وتحقق وجوده ، والسنة هي ذلك القانون المتحكم به ، والحكمة هي الهدف الذي يتحرك ذلك الشيء نحوه .

اليقين يبدأ من الرفض :

وهكذا فقد نفذ ابراهيم (عليه السلام) ببصيرته في اعماق الملكوت من خلال رفضه للطاغوت ، والمواضعات الاجتماعية والثقافية والسياسية المغلوطة التي خلقها الطاغوت في المجتمع ، ومن خلال رفضه هذا استطاع ان يغوص ببصيرته في الملكوت ؛ اي الى كل هذه المنظومة المتكاملة في الكون ، والى سنن الله وقدرته وحكمه في الاشياء ، وقد فعل ابراهيم (عليه السلام) كل ذلك ليكون من المؤمنين ، فارتقى بهذه البصيرة الدرجة تلو الدرجة حتى وصل الى الذروة المتمثلة في اليقين . فعندما يصل الانسان الى اليقين فان هذا يعني انه قد وصل الى الذروة ، فتتكشف أمامه كل الحقائق ، فاذا به يشهدها ويعايشها ويتفاعل معها .

وهكذا فان اليقين الذي يشير اليه - تعالى - في قوله : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر/ ٩٩) هو ذروة الذرى ، وقمة القمم ، وقد كان الامام زين العابدين (عليه السلام) يطيل الجلوس بعد صلاة العشاء سائلا الله - جل وعلا - اليقين ، فالانسان عندما يصبح من الموقنين فانه سيحقق آنئذ كل أمنيته المتمثلة في الهدى والفلاح .

وقد فصل القرآن الكريم القول في ذلك تفصيلا ، فبين كيف وصل ابراهيم (عليه السلام) الى ذروة اليقين ، فلننظر - اذن - الى هذا الطريق الذي سلكه ابراهيم

ببصيرته ؛ يقول - تعالى - في هذا المجال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ (الانعام/٧٦) ، فعندما خيم الليل نظر ابراهيم الى النجوم ، وهذه هي اول مرحلة على الانسان ان يجتازها وهي ان يكون مندفعاً في ذاته الى الحقيقة ، فلا يدعي ان هذه الحقيقة في ذهنه ، بل عليه ان يبحث عنها ، ولذلك فان من المستحب شرعا ان يخرج الانسان في الليل تحت الفضاء الرحيب لينظر في النجوم تاليا الآيات الكريمة : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمْنَّا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران/١٩١-١٩٣) .

نعم .. ان على الانسان المسلم ان يقرأ هذه الآيات ليزداد معرفة و يقينا وهو يدقق النظر في صفحة السماء ، وينظر في هذه الخريطة الكونية الجميلة الرائعة ، وبالتالي يستلهم منها نور اليقين ، فلا يغمض عينيه ويغرق في وساوسه وأوهامه وأفكاره ، بل يخرج من نطاق ذاته ، وقد يصبح هذا السلوك واجبا اذا توقفت معرفة الله - تعالى - عليه ، كما يشير الى ذلك - عز وجل - في قوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴾ (الرؤم/٤٢) ؛ اي فتشوا عن الحقائق الموجودة على الارض ، وعلى سبيل المثال فان هناك ديارا كانت عامرة في يوم من الايام ولكنها تحولت الى خرائب بسبب نزول العذاب الالهي عليها .

وفي هذا المجال يروى عن ابي ذر (رض) انه كان اكثر عبادته الوقوف على الديار المتهدمة سائلا عن ساكنيها وبانيها ، كما كان يتفكر في الطبيعة وما حولها ... ونحن

ايضا يجب ان لا ينصب اهتمامنا على الأكل والشرب والنوم ، بل علينا ان نفكر في انها لابد ان تنتهي الى عاقبة ونهاية .

ان من عادة الناس - للأسف - انهم يتحركون من أجل غيرهم لا من أجل انفسهم ، فلا ينمونها ولا يعملون على تركيتها بل يدسونها في تراب الشهوات وركام الاوهام والخرافات ، ولذلك فقد نظر ابراهيم (عليه السلام) وتفكر كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم قائلا : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (الانعام/٧٦) ، وبهذه العبارة القصيرة اختصر (عليه السلام) كل النواحي الجمالية والكمالية في الكوكب الذي رآه ؛ فقد فكر ان هذا الكوكب الذي رآه يتحرك ويؤثر ويشع نورا لابد ان تكون له قدرة هائلة ، هتف قائلا : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ومن الملاحظ هنا انه لم يقل : (هذا الهي) بل قال : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ ؛ اي ان هذا الكوكب يؤثر في تأثيرا مستقلا .

ولكنه في نفس الوقت نظر الى ذلك الكوكب نظرة أخرى فوجد ان فيه جانبا آخر ، جانب الضعف والنقص : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ ، فهذا الكوكب يأفل وينتهي ويتأثر ، فهو محكوم وليس حاكما ، فالأفول لا يعني الغياب فقط بل يعني ايضا كونه محكوما ومدبرا ، وعلى سبيل المثال فان هذه الشمس العملاقة هي ايضا مسخرة ، ولذلك فانها لا يمكن ان تكون الها ، فهي تتحرك وفق ما رسم لها من نظام وتدير .

ثم يستأنف - تعالى - على لسان ابراهيم (عليه السلام) قائلا : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (الانعام/٧٦) ، والملاحظ هنا ان ابراهيم (عليه السلام) لم يقل ان الآفل ليس الها بل قال : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ، فعلينا ان نتدبر في دقائق ولطائف الآيات القرآنية وكأنه (عليه السلام) كان يريد ان يقول : ان فطرتي ووجداني يرفضان ان يكون هذا الآفل هو الحاكم في حين انه محكوم ، فالانسان الذي يعبد الطغاة الا يرى انهم محكومون ؛ فلقد كانوا هم الآخرون اطفالا ثم نموا وكبروا ومن ثم يكون

مصيرهم الموت ، فكيف يتخذهم آلهة من دون الله ؟

ان وجدان ابراهيم ، ووجدان كل انسان سوي يرفض ان يكون المحكوم حاكما ، ولذلك قال ابراهيم ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ، وهكذا الحال بالنسبة الى القمر الذي رآه ابراهيم : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ فبالرغم من ان القمر هو بدوره يمثل نوعا من الكواكب ، ولكنه أقرب الى الارض وأكثر تأثيرا فيها كما أثبت ذلك العلم الحديث . ولذلك فقد قال ابراهيم (عليه السلام) عن القمر مقولته في الكواكب الاخرى التي رآها كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم قائلا : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (الانعام/٧٧) ، ولكنه سرعان ما اكتشف ان القمر لا يختلف عن سائر الكواكب من ناحية النقص والضعف ؛ فهو يمتلك حركة معينة ، ويدور في مدار محدد من لحظة ان يولد هلالا الى ان يصبح بدرا وحتى يعود كالمرجون القديم .

الحقيقة الكبرى :

وهنا بالذات يكتشف ابراهيم بعد هذه الرحلة الملكوتية في اعماق الفضاء الحقيقة الكبرى كما يشير الى ذلك قوله - عز من قائل - : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (الانعام/٧٧) ، فقد اكتشف ابراهيم (عليه السلام) في نهاية رحلته الحقيقة الكبرى ؛ فالله رب السماوات والارض نوره أجلى من نور القمر ، وضوؤه ابهر من ضوء الشمس ، فهو - اذن - الذي يهديني ، والانسان لا يمكنه ان يصل اليه بل هو الذي يصل الى الانسان كما يشير الى ذلك الدعاء الشريف : " دل على ذاته بذاته ، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته " .

و هنا اعترف ابراهيم (عليه السلام) بحقيقة اخرى هي حقيقة عجزه وضعفه ، وانه عبد محدود بحاجة الى هدى الله - جل وعلا - ، وهكذا استمر في مسيرته كما يروي لنا ذلك القرآن قائلا : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (الانعام/٧٨) ، فهناك بشر مايزالون يعبدون الشمس ، وقد كان الطغاة آنذاك يعبدونها ،

وكان ابراهيم معاصرا لتلك الفترة فأراد بهذا الاسلوب ان ينفي ويستنكر هذه الخرافات ، فاثبت ان الشمس هي بدورها محدودة ومحكومة وان هناك من يوجهها : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الانعام/ ٧٨) ، وهنا وصل ابراهيم الى قمة القمم : الى التوحيد الخالص .

ولكي يصل ابراهيم الى الهدى لابد ان يعلن البراءة من الضلالة فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، وعندما أعلن البراءة من ضلالة قومه ، واعلن انه يتحداهم حينئذ هداه الله وقذف في قلبه نور التوحيد فقال (عليه السلام) : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/ ٧٩) ، فأعلن البراءة من شركهم وأصبح موحدا وحنيفا .

وفي الحقيقة فان التفسير الذي اراه قريبا من المعنى الحقيقي لكلمة (الحنيف) ومن مواضع اطلاق هذه الكلمة هو انها تعني (الطاهر) ، ولذلك يكون تفسير الآية حسب هذا المعنى هو انه وجه وجهه للذي فطر السماوات والارض طاهرا من كل دنس وانحراف ، ولذلك فانتا اذا اردنا ان نصل الى نور المعرفة فلا بد ان نظهر انفسنا من الحجب والشوائب فنرفض الطاغوت ، ونرفض المسلمات الخاطئة التي يخلقها هذا الطاغوت في المجتمع .



الباب الثالث

تجليات التوحيد

الفصل الاول

ذكر الله اساس الاستقلال

من اسوء الظواهر السلبية التي يعاني منها الانسان في حياته الدنيا نسيانه لربه وغفلته عنه ، ومن أتمن وأعز ما ينعم به مناجاته للخالق - تعالى - من خلال اللقاءات الروحية معه .

ان اولئك الذين وجدوا حلاوة مناجاة الله - سبحانه وتعالى - يعلمون ويدركون انها فوق كل لذة وكل هدف وغاية ، كما يشير الى ذلك رب العزة في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم/٤٢)

والانسان يبحث عن الجمال ويجد فيه ما يعطيه الرواء والروعة ، ويشبع فراغات كثيرة في حياته ، وهو - ايضا - يبحث عن الكمال المادي وكلما بلغ درجة من هذا الكمال استطاع ان يشبع مستوى معيناً من حاجاته النفسية .

فوق كل غاية غاية :

ومع ذلك فان فوق كل جمال جمالا ، وفوق كل كمال كمالا ، وفوق كل غاية غاية ، ووراء كل هدف تطلعا جديدا أسمى من التطلع السابق ، ولذلك يستمر الانسان في البحث عن ما يشبع طموحه ويحقق تطلعه ، حتى يصل في نهاية المطاف الى الله - جل وعلا - ، وحينئذ يكتشف انه قد وصل الى غاية الجمال ، والى مرحلة لا يستطيع بعدها استيعاب درجة ما فوق الجمال والكمال اللذين هما جمال وكمال الله - تبارك وتعالى - .

وهنا يجد الانسان الراحة والاطمئنان ، كما يقول - عز من قائل - : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد/٢٨) ، وبلوغ درجة الاطمئنان يجد الانسان كل ما كان يبحث عنه ؛ الروعة والجمال والكمال المطلق ، فهو - بطبيعته - مجبول على التطلع نحو الأسمى ، إذ ان كل طموح وتطلع في الوجود دون الله - تعالى - هو أصغر ما يصبو اليه الانسان .

وفي هذا المجال يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَسْطَظُرْ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ * لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿ (الحشر/١٨-٢٤)

البقاء شرط لتحقيق التطلعات :

ومن خلال التأمل في الآيات الكريمة السابقة ندرك ان من الشروط الموضوعية للوصول الى ما يصبو اليه الانسان لتحقيقه هو (البقاء) ؛ فاذا ما انهار الانسان وانتهى فأين المالك والواجد ؟

ولا يوضح الفكرة السابقة نضرب المثل التالي :

ان النفس البشرية تشبه وعاء يستوعب كل ما في الحياة ويمسك ما في داخله ويحيط به ، واذا ما انكسر هذا الوعاء وتهشم فهل من الممكن ان يحافظ على ما فيه ؟

والله - عز وجل - يحذر النفس البشرية من نسيانه ، لان المصير الذي ينتظر النفس الناسية لربها هو العدم ، واذا انعدمت النفس فانها سوف لاتستطيع ان تمتلك شيئا ، وبناء على ذلك فان شخصية الانسان مرتبطة بذكر الله - عز وجل - فلولا هذا الذكر لاتنتهى الانسان .

ضرورة ذكر الله :

ويحذرنا الخالق - تعالى - من ان نكون من جملة الذين نسوا الله فكانت النتيجة ان انساهم الله انفسهم فكانوا فاسقين : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الحشر/١٩) ، فالانسان الذي لا يذكر الله - تعالى - من خلال العمل الصالح فانه سينسى ربه ، ومن المستبعد ان يذكر الانسان ربه وهو لا يعمل صالحا لان ذكر الله - عز وجل - لا يبقى في قلب غير معمر بالعمل الصالح .

ان الانسان الفاسق لا يستطيع ان يذكر الله ، وهو ان ذكره بلسانه فانه لا يذكره بقلبه

لان العمل السيئ يحجب الانسان عن ربه ، فمن يذكر الله لا يفقد شيئا ، ومن يفقد الله بنسيانه لا يجد شيئا ، ولذلك نقرأ في دعاء عرفة : " ماذا وجد من فقدك ، وماذا فقد من وجدك ؟ " .

فالذي يجد الله - سبحانه - يجد كل شيء ، لانه سيجد نفسه فيثبت شخصيته ويكرس ذاته واستقلاله ، ومن يكرس ذاته واستقلاله فانه سيكون في غنى عن اي شيء آخر .

وفيما يلي سنضرب امثلة لتوضيح الفكرة السابقة لانها ليست فكرة فلسفية نسمعها او نقرأها فنقلها بل انها فكرة وجدانية بحاجة الى معاناة ، ولا بد لنا من ممارسة واقعية لكي نفهمها ، وعلى سبيل المثال فان الذي يفقد حاسة الذوق لا يستطيع التمييز بين طعم الحنظل والبرتقال ، ولا بين السم والشهد ، لانه فقد قدرته الذاتية ، فلو فقد الانسان حواء الخمس فقد كل شيء ، وسوف لا يعود بمقدوره ان يستلذ بالحياة ونعمها وملاذها .

ولو كان الانسان يملك الملايين بل البلايين وهو عبد مملوك للغير فهل يمكن ان يقال عنه انه يملك شيئا ؟

كلا بالطبع ، لان نفسه اصبحت ملكا لغيره ، فالعبد وما ملكا يده ملك لمولاه . وفي هذا المجال يروي لنا التاريخ ان (نابليون) قال ذات مرة لأبنه : أنت تملك العالم لانك تملك قلب أمك ، وأمك تملكني وأنا أملك العالم ، فأنت - اذن - تملك العالم ! وهكذا فان الانسان لو نسي الله - تعالى - فانه سيتركه للاقدار ويكله الى نفسه ، فقد يملك الانسان الدرهم والدنانير ، وقد يملكه بيته او زوجته او ابنه او منصبه او علمه

ونحن اذا اردنا ان نحقق الاستقلال فعلينا ان نذكر ربنا ، وليكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا المجال أسوة حسنة وقدوة لنا حيث كان يجد لذة المناجاة ويتمتع بحلاوة الابتهاال الى الله - تعالى - ، فكان يدأب على العبادة والتبتل

والاستغفار ليلا حتى ان احدى زوجاته قالت له : أو لم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيجيبها (صلى الله عليه وآله) قائلا : " أفلا أكون عبدا شكورا ؟ "
فما الذ الشكر عندما تقف امام بارتك - جل وعلا - وتشكره على عينيك البصيرتين واذنك السميعة ، وعلى نعمة الهدى والعقل والعافية المعنوية قبل الجسدية ، فكم يبدو الانسان غيبا عندما ينغمس في الظواهر الدنيوية وينبذ جانبا الاتصال برب العالمين في حين ان كل شيء في هذا الكون يسعى من أجل الوصول الى خالق الكون ؟

اقرب من حبل الوريد :

وفي هذا المجال لابد لنا من اغتنام المناسبات الروحية ؛ فالله - تعالى - ليس ببعيد عنا ، فهو قريب والراحل اليه قريب المسافة ، وهو لا يحتجب عن خلقه الا ان تحجبهم الاعمال دونه ، ونحن واجدوه كلما انكسرت قلوبنا وجرت دموعنا واحسسنا بالندامة على ما سلف من خطايانا .

ان الله - تبارك وتعالى - موجود كلما تطلعنا الى مستقبل مشرق ؛ فهو في كل مكان وزمان ، وعندما نهتف بإسمه المقدس فاننا سنخترق كل الحجب ، ونختصر المسافة بين الارض والسماء ، وقد سئل في هذا المجال الامام علي (عليه السلام) عن المسافة تلك كم هي ؟ فقال (عليه السلام) : " دعوة مستجابة " .^(١)

ويسأل (عليه السلام) مرة اخرى فيجيب : " وبين السماء والارض مد البصر ودعوة المظلوم " .^(٢)

والمسافة هذه ماهي الا لحظة او اقل منها ، فالله - عز وجل - أقرب الى الانسان من

(١) بحار الانوار ج ١٠ ص ٨٤ رواية ٥

(٢) بحار الانوار ج ١٠ ص ٨٨ رواية ٨

حبل الوريد ، ولو كان هناك شيء أقرب الى الانسان من حبل الوريد لجاء به القرآن اذ يقول - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق/١٦)
واذا ما وجد الانسان ربه فان هذا يعني انه قد وجد استقلاله ، والاستقلال هو ان لا يكون الانسان عبدا لغيره وقد خلقه الله حرا .

العبودية الثقافية :

والعبودية لغير الله على اقسام ، اسوءها العبودية الثقافية ، وعلى سبيل المثال فان استماعك للاذاعات الاستكبارية يجعلك مستعبدا للرجل الفاسق الجالس وراء المايكروفون ، فهذه الاذاعة ستوجهك من خلال اثاره الاحاسيس فيك دون ان تشعر لانك لم تضع رقابة بينك وبينها ، فهذه السموم التي تفرزها اذاعات الاباطيل والاضاليل سوف تستقر في ذاتك وتوجهك حيثما تريد ان اصغيت اليها دون وعي .
وقد تجلس في مجلس شياطين الأنس فيوجهونك كما يريدون ، ويغتابون هذا ويهتمون ذاك ويبهتون آخرين ، اما انت فتجلس بينهم كدمية يحركونها كيفما شاؤوا ، فتندفع بالاتجاه الذي يريده هؤلاء الشياطين ، وبذلك يستعبدونك .
من هنا قال الامام الصادق (عليه السلام) : " من اصغى الى ناطق فقد عبده ، فان كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وان كان الناطق عن ابليس فقد عبد ابليس " .^(١)
وهكذا فان الناطقين عن ابليس يدفعونك الى ان تتخذ موقفا سلبيا تجاه اصدقائك ومن هم في خطك ، وهذه هي العبودية الثقافية ؛ عبودية الانسان للشيطان .

الاستقلال الثقافي :

وربما يأتيك الشيطان ليخدعك فلا يستطيع ذلك ، فيعمد الى خدع صاحبك

(١) بحار الانوار ج ٦٩ ص ٢٦٤ رواية ١

ليخدعك عبره . فمن يأتيك من الباب قد يكون ملاكا وقد يكون شيطانا فعليك ان تميز بينهما ، فلا تجلس في كل مجلس لتفتح قلبك لكل انسان ، فاذا ما اردت ان تتخذ من شخص ما صديقا فان عليك ان تبحث في اعماله وماضيه ، وهذا هو معنى الاستقلال ، وهو ان تكون مستقلا في فهمك للأشياء . اذ لا يصح ان تسلم نفسك لكل انسان .

فالاستقلال الثقافي يعني ان تكون لديك رقابة ، وان تكون ناقدًا للكلام ، وان تحذر من ان تكون إمعة اي انسانا عديم الارادة يميل مع كل ريح . وهذا يتطلب منا ذكر الله - تعالى - دائما وابدا ، وطرده الشياطين من حولنا .



التوحيد حصن المؤمن واستقلاله

لاشك ان البشرية فطرت على الاستقلال ، ورضعت حبه منذ ان خلقها الله - تعالى - ، واكاد اقول ان الانسان لا يحس بثقل في تأريخه ودافع لحياته كثقل الاستقلال ، وما الصراع المير بين ابناء البشر الا وجه من اوجه الدفاع عن الاستقلال من قبل طائفة والاعتداء عليه من قبل طائفة اخرى .

ولو انتزعت صفة الاستقلال من الانسان لكان افضل ما يقال فيه انه كالأنعام بل هو اضل سبيلا ، والرسالات الالهية جاءت لتؤكد هذه الفكرة المتأصلة في نفس الانسان وضرورة الدفاع عنها فكلمة التوحيد الاولى تبدأ بنفي الانداد والشركاء اعتبار من نفي كل من يريد ان يتسلط على الآخرين بشكل او بآخر ، وبالتالي فان كلمة التوحيد تبدأ برفض التبعية ، اما كلمتها الثانية فهي تكريس

الاستقلال والعمل على تحقيقه .

كلمة التوحيد حصن الله :

ان كلمة التوحيد هي حصن الله الذي من دخله كان آمنا ، وهي الكلمة التي من ختم له بها دخل الجنة كما جاء في الحديث الشريف ، وكما جاء في حديث قدسي رواه الامام الرضا (عليه السلام) قائلا : " لا اله الا الله حصني فمن دخل حصني امن عذابي " ثم علق على ذلك (عليه السلام) بقوله : " بشروطها وانا من شروطها " ^(١) ؛ اي اننا لايمكن ان نحقق مقتضيات هذه الكلمة دون ان نعرف محتواها ، ومحتواها هو رفض التبعية والجبت والطاغوت ، والدفاع عن الاستقلال تحت قيادة الهية .

الاستقلال قيمة سامية :

ان كل ما يدفعه ويقدمه الانسان من أجل الدفاع عن استقلاله او تكريسه انما هو اقل بكثير من قيمة الاستقلال نفسه ، فاذا ما نظرنا الى التأريخ فاننا سنجد ان بني اسرائيل - مثلا - كانوا شعبا مستضعفا فقد استقلاله ، وقد قام فرعون بقمعهم حين ذبح ابناءهم واستحيا نساءهم وصب عليهم بلاءات عظيمة ، فلم تبق جريمة الا وارتكبها ضدهم .

وجاء موسى بن عمران (عليه السلام) من قبل الله - جل وعلا - ليعيد هذه الامة المستضعفة الى شاطئ الاستقلال ، ودفع بنو اسرائيل من أجل تحقيق الاستقلال هذا الكثير من الجهد والتعب .

ويعتبر الاستقلال الثقافي شرطا ضروريا لتحقيق الاستقلال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، فهو الطريق الى الاستقلال الكامل ، لان الانسان الذي زرعت في

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ٧ رواية ١٦

نفسه العبودية وألفت روحه الذل سيجلب التبعية لنفسه ، وعلى سبيل المثال فان الكثير من الشعوب الاسلامية استقلت ظاهريا ولكنها ما لبثت ان عادت الى اسيادها السابقين ليستعبدها من جديد .

والقرآن الكريم يؤكد على الاستقلال الثقافي مرات عديدة في مجاليه العام والخاص كقوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران/ ٧٩) فالرسالات الالهية جاءت من أجل تحقيق الاستقلال للانسان لا من أجل استعباده ، والرسول لا يدعو الناس الى عبادته بل يدعوهم الى عبادة الله :

﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِينَ ﴾ (آل عمران / ٧٩) ؛ اي اعبدوا الله عبادة خالصة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ (آل عمران / ٧٩ - ٨٠) ؛ اي لا يدعوكم لكي يستعبدكم لنفسه ، كما لا يريد - في نفس الوقت - ان يستعبدكم الآخرون حتى وان كانوا ملائكة او نبيين .

وبعدها يشير - تعالى - الى الاستقلال الخاص في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ (آل عمران / ٨١) .

وهذا هو الاستقلال الخاص اي الاستقلال الثقافي ، وعندما يكون العالم مستقلا ، غير خاضع للضغوط ، ومتحديا لشهواته الذاتية فانه سيصدق بالحق حتى لو كان هذا الحق معارضا - في الظاهر - لنفسه ، وقد أخذ الله - تعالى - هذا الميثاق من بني آدم كما يرويه لنا في قوله : ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا ﴾ (آل عمران/ ٨١) ؛ اي ان هذه المسؤولية هي

مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتقكم .

ثم يقول - سبحانه - : ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران / ٨١ - ٨٢) .

من هنا يجب على العلماء والمثقفين الواعين والمخلصين ان لا ينسوا دورهم ، ولا ينسوا ان مسؤوليتهم هي ان يدافعوا عن استقلال أمة اصبحت مظلومة مستضعفة .



التوحيد سبيلنا الى الاستقلال

" لا اله إلا الله " هذه الكلمة الثقيلة في ميزان الكون ، لها ابعاد عديدة من جملتها ؛ الاستقلال ، والحرية ، والتقدم ، والكمال ، والتقرب الى الله - جل جلاله - ، ونحن في هذا الفصل سنصب اهتمامنا على البعد الاول (الاستقلال) ، لحاجة الساحة اليه .

بُعد الاستقلال في كلمة التوحيد :

ان الانسان لو قدر في ميزان المادة فسوف لن يعدو شيئا ضئيلا، لانه - بالتالي - جزء من هذا الكوكب الذي هو جزء من هذه المنظومة التي هي - بدورها - تمثل جزء من مجرات بُعدُ بعضها عن بعض آلاف الملايين من السنين الضوئية . وفي مجال ضعف الانسان ، وعجزه يقول الامام علي (عليه السلام) :
" مسكين ابن آدم مكتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، تؤلمه البقرة

وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة " .

ولكن ما الذي يجعل هذا الانسان الضئيل المحدود قادرا على اقتحام المجهول ، وغزو الفضاء ، وسبر غور المحيطات ، وتسخير ما في الكون ؟
انه الاستقلال ، فاذا كان الانسان جزء من هذه الطبيعة ، وريشة في مهب رياح الشهوات التي هي رابط بينه وبين الطبيعة المحيطة به ، فسوف لن يتمكن من فعل اي شيء .
وهكذا فان معركة الانسان الاولى فوق هذا الكوكب انما يخوضها مع تلك الطبيعة ، وذلك المجتمع الذي يريد سرقة استقلاله ، وتحويله الى جزء من هذه الدورة التي لا تنفك عن الدوران .

التوحيد والتحدي :

ولذلك فعندما يعرج الانسان الى سماء التوحيد ، ويدخل حصن " لا إله إلا الله " ، ويصبح مرتبطا برب العالمين ، فانه يجد في نفسه القدرة على التحدي . وقول كلمة (لا) لكل من يريد سلب استقلاله كالطبيعة ، او المجتمع الذي يريد ان يسخره لمصالحه ، او القانون الذي يستهدف سحقه ، او السلطة التي تبتغي اخراجه من النور الى الظلمات ، وهنا تكمن فلسفة الحديث المعروف :

" كلمة لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي "

وعذاب الله - تعالى - اكثر من مجرد تعذيب بنار جهنم التي هي اسوء واشد عذاب يأتي من رب العالمين ، ولكن هناك عذابا آخر يصيب الله به المجرمين في الدنيا ؛ فان خرج الانسان من حصن الله احتوشته ذئاب التبعية والسلطة والشهوات ، واقتصرته .

اصحاب الكهف رمز الاستقلال :

ولنا في اصحاب الكهف الذين تفجرت فيهم ينابيع الايمان خير قدوة واسوة في

مجال الاستقلال ، وقد كان هؤلاء الفتية من اتباع نبي الله عيسى بن مريم (عليهما السلام) ، وكانوا وزراء لملك يدعي " دقيانوس " الذي كان واحدا من العائلة القيصرية ، وفيما يلي نستعرض قصتهم كما يرويها لنا الامام علي (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نظرا لاهمية الاطلاع عليها في ادراك ضرورة الاستقلال ، وضرورة ان يجعله الانسان المؤمن الهدف الاول والاخير له في هذه الحياة . يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) :

" كان بارض الروم مدينة يقال لها (اقسوس) وكان لها ملك صالح ، فمات ملكهم فاختلفت كلمتهم فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له (دقيانوس) ، فأقبل في مائة ألف حتى دخل مدينة اقسوس ، فاتخذها دار مملكته ، واتخذ فيها قصرا طوله فرسخ في عرض فرسخ ، واتخذ في ذلك القصر مجلسا طوله ألف ذراع في عرض مثل ذلك من الرخام الممرد ، واتخذ في المجلس اربعة آلاف اسطوانة ذهب ، واتخذ ألف قنديل من ذهب لها سلاسل من اللجين تسرج باطيب الأدهان ، واتخذ في شرقي المجلس ثمانين كوة ، ولغريبه كذلك وكانت الشمس اذا طلعت طلعت في المجلس كيفما دارت ، واتخذ فيه سريرا من ذهب طوله ثمانون ذراعا في عرض اربعين ذراعا له قوائم من فضة مرصعة بالجواهر ، وعلاه بالنمارق ، واتخذ من يمين السرير ثمانين كرسيًا من الذهب مرصعة بالزبرجد الاخضر ، فأجلس عليها بطارقه ، واتخذ من يسار السرير ثمانين كرسيًا من الفضة مرصعة بالياقوت الاحمر ، فأجلس عليها هراقلته ثم علا السرير فوضع التاج على رأسه .

واتخذ خمسين غلاما من اولاد الهراقلة فقرطقهم بقراطق الديباج الاحمر ، وسرولهم بسراول الحرير الاخضر ، وتوجههم ، ودملجهم ، وخلخلهم ، واعطاهم اعمدة من الذهب ، ووقفهم على رأسه ، واخذ ستة غلمة وزراءه ، فأقام ثلاثة عن يمينه ، وثلاثة عن يساره ، وكان يستشيرهم في جميع اموره ، وكان يجلس في كل يوم في صحن داره والبطارقة عن يمينه ، والهراقلة عن يساره ، ويدخل ثلاثة غلمة في يد

احدهم جام من الذهب مملوء من المسك المسحوق ، وفي يد الآخر جام من فضة مملوء من ماء الورد ، وفي يد الآخر طائر ابيض له منقار احمر ، فاذا نظر الملك الى ذلك الطائر صفر به فيطير الطائر حتى يقع في جام ماء الورد فيتمرغ فيه ، ثم يقع على جام المسك فيحمل ما في الجام بريشه وجناحه ، ثم يصفر به الثانية فيطير الطائر على تاج الملك فينفذ ما في ريشه وجناحه على رأس الملك .

ولما نظر الملك الى ذلك عتا وتجبر ، فادعى الربوبية من دون الله ، ودعا الى ذلك وجوه قومه فكل من اطاعه على ذلك اعطاه وحباه وكساه ، وكل من لم يبايعه قتله . فاستجابوا له رأسا ، واتخذ لهم عيدا في كل سنة مرة ، فبينما هم ذات يوم في عيد والبطارقة عن يمينه ، والهاقلية عن يساره ، اذ اتاه بطريق فأخبره ان عساكر الفرس قد غشيت ، فاغتم لذلك حتى سقط التاج عن رأسه . فنظر اليه احد الثلاثة الذين كانوا عن يمينه يقال له (تملیخا) وكان غلاما فقال في نفسه : لو كان دقيانوس الها كما يزعم ، اذا ما كان يغتم ولا يفرع ، وما كان يبول ولا يتغوط ، وما كان ينام ، وليس هذه من فعل الآلهة . قال : وكان الفتية الستة كل يوم عند احدهم ، وكانوا ذلك اليوم عند (تملیخا) ، فاتخذ لهم من طيب الطعام ، ثم قال لهم : يا اخوتاه قد وقع في قلبي شيء منعني الطعام والشراب والنمائم . قالوا : وما ذلك يا تملیخا ؟ قال : اطلت فكري في السماء فقلت : من رفع سقفها محفوظة بلا عمد ولا علاقة من فوقها ، ومن أجرى فيها شمسا ، ومن زينها بالنجوم ؟ ثم اطلت الفكر في الارض فقلت : من سطّحها على ظهر اليم الزاخر ، ومن حبسها بالجبال ان تميد على كل شيء ؟ واطلت فكري في نفسي فقلت : من اخرجني جنينا من بطن أمي ، ومن غذاني ، ومن رباني ؟ ان لها صانعا ومديرا غيرا دقيانوس الملك ، وما هو إلا ملك الملوك ، وجبار السماوات . فانكبت الفتية على رجليه يقبلونهما ، وقالوا : بك هدانا الله من الضلالة الى الهدى ، فاشركنا . فوثب تملیخا فباع تمرا من حائط له بثلاثة آلاف درهم وصرها في رده ، وركبوا خيولهم ، وخرجوا من المدينة . فلما ساروا

ثلاثة اميال ، قال لهم تملخوا : يا اخوتاه ؛ جاءت مسكنة الآخرة ، وذهب ملك الدنيا انزلوا عن خيولكم ، وامشوا على ارجلكم ، لعل الله ان يجعل لكم -من أمركم فرجا ومخرجا . فنزلوا عن خيولهم ، ومشوا على ارجلهم سبعة فراسخ في ذلك اليوم فجعلت ارجلهم تقطر دما .

فاستقبلهم راع فقالوا : يا ايها الراعي هل من شربة لبن او ماء ؟ فقال الراعي : عندي ما تحبون ولكن ارى وجوهكم وجوه الملوكة ، وما أظنكم إلا هرابا من دقيانوس الملك . قالوا : يا ايها الراعي لا يحل لنا الكذب ، أفينجينا منك الصدق ؟ فأخبروه بقصتهم ، فانكب الراعي على ارجلهم يقبلها ويقول : يا قوم لقد وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم ، ولكن امهلوني حتى ارد الاغنام على اربابها ، وألحق بكم . فتوقفوا له ، فرد الاغنام ، واقبل يسعى يتبعه كلب له .

فلم يزل الراعي يسير بهم حتى علاهم جبلا ، فانحط بهم على كهف يقال له الوصيد ، فاذا بفناء الكهف فيه اشجار مثمرة ، فأكلوا من الثمر ، وشربوا من الماء ، وجنهم الليل ، فأووا الى الكهف ، وربض الكلب على باب الكهف ، ومد يديه عليه ، فأوحى الله - تعالى - الى ملك الموت بقبض ارواحهم ، ووكل الله بكل رجل ملكين يقلبانه من ذات اليمين ، الى ذات الشمال ، ومن ذات الشمال الى اليمين ، فاوصى الله - عز وعلا - الى خزان الشمس فكانت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وتقرضهم ذات الشمال ...

عندما تدخل الروح كهف الاستقلال :

وبعد ، فهذه قصة رجال وجدوا استقلالهم فهتفوا والايمان يعمر قلوبهم : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْهُمْ ﴾ (الكهف/ ١٥) .

ان التنازل عن كرسي السلطة ليس بالامر اليسير على الانسان ، فهناك اناس

عندما يجلسون على كرسي لموظف صغير ، او يصبحون كتابا في دوائر الحكام فانهم سرعان ما يفقدون استقلالهم وايمانهم ، ويبدؤون بالتكبر على الآخرين ، واصحاب الكهف كانوا في عز سلطانهم ، وبيدهم كل شيء إلا انهم جردوا انفسهم منها في سبيل الله - سبحانه - ، لان ارواحهم اتصلت بكهف الاستقلال ، وحصن التوحيد ، واصبحت قلوبهم مضاءة بنور الايمان ، ولذلك فقد خلد ذكرهم على صفحات التاريخ .

﴿ وَإِذِ اجْتَرَأْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْزُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾ (الكهف/١٦) .

وقد زادهم الله - تقدست اسماؤه - شرفا فوق شرفهم إذ غير قوانين الطبيعة من أجلهم كما تصرح بذلك الآية التالية :

﴿ وَكَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ (الكهف/١٧) .

الصفحات المشرقة في التاريخ :

وهكذا فان في تاريخ الاديان السماوية قبل ظهور خاتم الانبياء (صلى الله عليه وآله) ، وبالذات في تاريخ اتباع عيسى بن مريم (عليهما السلام) صفحات مشرقة تتلألؤ نورا وضياء لا بد ان ندرسها . فمع ان المسلمين في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) بذلوا من مهجهم الكثير ، الا ان هناك مسلمين آخرين ظهروا قبلهم كأتباع عيسى ، وموسى ، وابراهيم ، ونوح (عليهم السلام اجمعين) اجهدوا انفسهم في سبيل الله - عز شأنه - ، واذا كنا نرى اليوم ان نصف البشرية يعبدون الله بصورة او بأخرى فان الفضل يعود في ذلك الى اولئك المؤمنين الاوائل .

معركة الاستقلال هي معركة التوحيد :

ولذلك فان هذا الحديث ليس للماضي والتاريخ ، بل هو حديث اليوم الذي يعيش فيه العالم الاسلامي معركة الاستقلال التي هي معركة التوحيد . فالانسان الذي لا يؤمن بالله - سبحانه - لا يفكر في الاستقلال ، والمؤمن الذي لا يفكر في الاستقلال فان في ايمانه ضعفا وفشلا ، ولا بد له من ان يغير منهجه . فكيف يمكن لانسان ان يدعي الايمان بالله وهو يخضع لقوانين السلاطين ، ويحارب تحت ألويتهم ، ويكتب في دواوينهم ، ويغزو جزء من استراتيجياتهم ، وكيف يمكن لانسان ان يدعي انه عبد الله وهو من عبدة الطاغوت ، وما الفرق بينه وبين المشركين الذين حاربوا الرسول (صلى الله عليه وآله) ، فهم هم الآخرون كانوا يعبدون الله الا انهم كانوا يجعلون له - تعالى - اندادا ، ويعتقدون ان هؤلاء الانداد هم شفعاؤهم الى الله ، كما يصرح بذلك القرآن الكريم في قوله :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر/ ٣) .

لا استقلال في ظل الاستعمار :

وفي خلال ثلاثمائة عام تقريبا استخدم الغرب التكنولوجيا الحديثة ، واتجه الى الصناعة والعلم ، وتمكن من الحصول على اسلحة افضل ، وبالتالي فانه استطاع بذلك الهجوم على البلدان الاسلامية .

وفي البدء وقفت بلداننا امام هجوم الغرب ، فالامبراطورية العثمانية وعلى الرغم من زلاتها كانت سدا منيعا امام الغرب ، ولكن المستعمرين استطاعوا هدم هذه السدود ، فاحتلوا البلاد ، واذلوا العباد ، واحرقوا المحاصيل دون ادنى شفقة او رحمة . وعلى سبيل المثال ففي معركة جرت في السودان بين البريطانيين والمسلمين قتل ثلاثة من البريطانيين ، بينما قتل من الطرف الآخر اكثر من ألف انسان بسبب عدم التكافؤ في

الاسلحة ، ونفس هذه المأساة تكررت في شمال افريقيا ، وآسيا الوسطى ، وبلدان الشرق الاوسط ، والهند ، واندونيسيا التي لها حصة الاسد من التاريخ المليء بالكوارث ، والمذابح الوحشية التي مارسها الاستعمار اثناء احتلاله وسيطرته عليها . وحتى الآن لم يخرج المستعمرون من بلداننا ، وان تعددت الوجوه فان السبب في ذلك يعود الى استنتاجهم ان الافضل لهم ان يعينوا عملاء من قبلهم يحكمون قبضتهم على هذه البلدان شريطة ان تتجسد فيهم سمات التبعية والطاعة المطلقة ، اي ان يتحولوا الى مجرد دمي لا ارادة لها .

وعلى سبيل المثال فان احمد شاه في ايران اراد اجراء بعض التغييرات ، فما كان منهم إلا ان دعوه الى اوروبا ، ثم أمروا رضا خان بقلب الوضع عليه ، فقام بانقلابه العسكري ، ثم أراد الأخير ان يتحالف مع المانيا فأبعدوه الى جزيرة موريس وجاؤوا بابنه ، واجلسوه على كرسیه .

وفي العراق كان عبد الكريم قاسم قد ألقى ايام حكمه خطابا وصف فيه (جون كندي) بانه شاب مغرور ، فلم يمهل المستعمرون سوى اسبوع واحد نظموا خلاله انقلابا عسكريا على يد عبد السلام عارف

ان هذه الاساليب وغيرها انما هي وجه من الوجوه العديدة للسيطرة الاستعمارية ، ولو استعصت عليهم هذه الاساليب لاستخدموا غيرها مثل المحاصرة الاقتصادية ، او الغزو العسكري لكي يروضوا البلد المقصود .

وعلى سبيل المثال فبعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران ، ولانهم لم يتمكنوا من تغيير السلطة عبر انقلاب داخلي ، لم يقف امامهم اي رادع من شن حرب شعواء لا تبقي ولا تذر من خلال دعمهم لطاغية العراق (صدام حسين) صدام بكل المعدات والاسلحة الفتاكة ، ومحاصرتهم الاقتصادية والسياسية والاعلامية . وفي افغانستان بمجرد ان فكر الشعب المسلم فيها في نيل الحرية جند له الاستكبار الشيوعي قوة هائلة من الجيش الاحمر ، وقتل مالا يقل عن مليون ونصف مليون انسان بالاضافة

الى تشريد لخمسة ملايين لاجئ !
ان علينا ان نستفيد من كل هذه التجارب ، وان نحاول بكل ما نمتلك من طاقات
وقدرات ان نحصل على الاستقلال الحقيقي ، ونقاوم المؤامرات الاستكبارية ضدنا من
خلال تحويل شعار التوحيد (لا إله إلا الله) الى واقع عملي ، ورفض كل سلطة
تريد العلو في الارض والتجبر واثارة الفساد فيها ، وتريد ادعاء الربوبية من دون الله
- عز وجل - ، وهذه هي حقيقة التوحيد التي يدعو اليها الاسلام .



الاساس التوحيدي للعلاقات

من خلال قصص واقعية سهلة الفهم يبين القرآن الكريم لنا قضايا وحقائق علمية ، ولولا هذا البيان القرآني العذب والميسور لما استطاع الانسان الوصول الى تلك الحقائق وايصالها الى الآخرين .

ومن تلك الحقائق التي يبينها القرآن الكريم طبيعة الانسان ، والعقدة الحقيقية التي تمنعه من الوصول الى الكمالات والدرجات الرفيعة مع ان الله - سبحانه وتعالى - خلقه في أحسن تقويم ، واودع في ضميره ما اودع من التطلع الى الكمالات والسمو؛ فكل انسان يحب ان يسمو ويعلو ، وان تفتح امامه فرص النمو والعروج والتقدم الروحي ، ومع ذلك فاننا لانجد الا القليل من الناس ممن يستطيعون بلوغ الكمالات الروحية ، والدرجات الرفيعة .

مثال السمو الروحي :

هذا في حين اننا نجد الانبياء والائمة (عليه السلام) على قصر اعمارهم ، وقلة الفرصة التي كانت متاحة لهم ، الا انهم استطاعوا ان يستغلوا هذه الاعمار القصيرة الاستغلال الامثل ليصلوا الى الكمال الروحي ، وفي المقابل نجد ان هناك اناسا يأتون الى الدنيا عادييين ويرحلون عنها عادييين ، بل ان البعض منهم قد يقدمون الى هذه الدنيا اناسا ويغادرونها وحوشا ، فبدلا من ان يستغلوا اعمارهم ويسمو بأنفسهم الى الدرجات العلى نراهم يهبطون الى أسفل سافلين .

والقرآن الكريم يبين لنا اسباب هذه الظاهرة من خلال سور عديدة ، وآيات مختلفة وبالذات عبر قصة تأريخية اشتملت في تضاعيفها على فلسفة العمر وحكمة الحياة ، الا وهي قصة ابليس مع آدم (عليه السلام) ، ونحن نستطيع ان نستنتج الظواهر التالية من هذه القصة :

ابليس رمز العنصرية والتكبر :

١- ان ابليس هو اول من افتخر بعنصره ، وزعم ان العنصر او الذات يمكن ان يكون له قيمة ذاتية ، في حين اننا لو طرحنا هذه القضية من الناحية العقلية لوجدنا ان الاشياء مادامت مخلوقات لله - تعالى - فلا تفاضل بينها الا بما جعله الله مقياسا للتفاضل . فلا يمكن ان يكون هناك شيء مخلوق لله ومن صفاته العجز والمحدودية ، وخضوعه للسنن والقوانين ، أفضل من غيره وهو مشترك مع هذا الغير من جهة كونه مخلوقا لله - عز وجل - .

هذا في حين ان ابليس يدعي انه أفضل من الانسان المخلوق من الطين لانه خلق من نار ، ومثل هذا التفكير نجده ايضا لدى بعض المجتمعات ؛ فالبعض منهم ممن يعيش في بلد ما يدعي انه افضل ممن يعيش في بلد آخر ، او ينتمي الى عشيرة اخرى ، وهذا هو معنى العنصرية والعرقية التي منشؤها الاعتقاد

المغلوط بإمكانية ان يكون للشيء المخلوق أفضلية على شيء مخلوق آخر في حين ان جميع الاشياء هي مخلوقات لله . فالله واحد ، والخلق واحد . وفي الحقيقة فان جذور الشرّ تنمو في مثل هذه الارضية الاعتقادية الملوثة فالذين اشركوا بالله كانوا قد مالوا الى (الشيئية) وتقديس العناصر المخلوقة ؛ فالبعض منهم مال الى تقديس الوطن ، والبعض الآخر الى تقديس العشيرة او اللون ... وبالتالي فانهم قدسوا شيئا في مقابل تقديس الرب وتسبيحه .

العمل هو الاساس :

٢- ان ابليس - كما هو معروف - كان يسجد لله - تعالى - عشرات الالوف من السنين ، وقد كان من الجن فارفع الى مستوى الملائكة بسبب كثرة عبادته ، وطول سجوده وركوعه وخضوعه لله - سبحانه وتعالى - ، ولكنه مع ذلك لم يدرك هذه الحقيقة البسيطة والواضحة ؛ فالعنصر ليس هو المهم وانما العمل ، فالعمل هو الذي رفع ابليس الى درجة الملائكة ، ولكنه - عليه اللعنة - لم يلتفت الى هذه الحقيقة .

هدف ابليس من عبادة الله :

٣- لقد كان ابليس مدعنا لعبادة الله ، ولكنه كان يستهدف من هذه العبادة اثبات شخصيته لا الخضوع والتسليم لله - عز وجل - ، فكان يطمح لنفسه وذاته ولم يكن يريد الله ، وكان في الظاهر يقر بعظمة الله وبكونه اكبر من كل شيء ، ولكنه في قرارة نفسه وفي اعماق ضميره كان يرى انه اكبر بدليل ان الله قد أمره بالسجود لآدم فرفض ، ذلك لانه اذا سجد لآدم فان هذا سيقضي منه ان يخضع لهذا المخلوق ويطيعه ، لان آدم سيكون خليفة الخالق في الارض . وفيما يلي ندرج الآيات التي تحدثت عن قصة آدم مع ابليس ، وقد اخترنا هذه الآيات من سورة (صلى الله عليه وآله) المباركة : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَبَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ
طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ
رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ
الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿

(ص/٧١-٨٣)

وهكذا فان الله - سبحانه وتعالى - صرح للملائكة قبل كل شيء بانه جاعل
في الارض خليفة ، وان عليهم ان يسجدوا لخليفته هذا ، ويخضعوا له ويطيعوه
بإذنه ، ولكن ابليس رفض الانصياع لأمر ربه ، لانه ادعى انه اولى بالخلافة من
البشر ، فكان في داخله هوى حب الرئاسة والاستكبار .

الأمر الالهي هو المقياس :

وفي رأيي فان آيات القرآن صريحة في قضية السجود لآدم ، وليس من
المنطقي ان نأولها الى غير ظاهرها ، فالقرآن الكريم يقول بصريح العبارة :
﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ : اي اسجدوا له ، فالخضوع لانسان أمر الله - تعالى -
بالخضوع له واجب ، والا لما جاز لنا ان نقدر الحجر الاسود ، ولما وجب
علينا ان نطوف حول البيت الحرام ، وتتوجه الى تلك الصخور السوداء من اقصى
الارض متحملين المشاق والعناء . ففرق هذه الحجارة عن كل احجار الارض
ليس في ذاتها وانما في أمر الله - سبحانه وتعالى - بتقديسها .
ومن هذا المبدأ تنطلق الولاية ، فالولاية تعني الامامة والقيادة الاسلامية ،

والخضوع لما أمر الله - عز وجل - هو محور جميع الاحكام الشرعية .
فلأن آدم كان خليفة الله في الارض فقد أمرت الملائكة بالخضوع له ، ذلك
لأن نور الولاية كان عند آدم (عليه السلام) ، فقد اقتضت المشيئة الالهية ان
ينبعث من صلبه الآلاف المؤلفة من الانبياء والاصياء والمرسلين ، ولذلك فقد
أمرت الملائكة جميعا بالسجود لآدم ، وطرده ابليس ورجم هو ومن أتبعه الى أبد
الآبدين ، لانه لم يمثل للأمر الالهي بالسجود والخضوع لآدم .

وبناء على ذلك فان الولاية هي امتحان للانسان ولقدرته على طاعة ربه في
جميع الأمور ومن ضمنها طاعة القائد حتى وان كان إبنى او أخى الاصغر او
رجل لا تربطني به اية علاقة مادية او مصلحية او اقليمية ، وهنا بالضبط تجرب
ارادة الانسان ومدى اخلاصه لرب العزة ، فلو أمرك الله - تعالى - بطاعة انسان
مستضعف ملاحق ومطارد ، والانسان الذي يستوجب اتباعك له الخوف والذعر ،
ثم امتثلت لهذا الأمر الالهي فانك ستكون حينئذ مقربا من الله - عز وجل - ،
لأنك ستكون قد اختبرت ايمانك بشكل عملي ، وجربت ارادتك ، ووصلت الى
درجة الاخلاص لخالكك .

ونحن عندما نتبع ائمة الهدى (عليه السلام) ونخلص لهم ونجعلهم وسيلة بيننا
وبين الله - تبارك وتعالى - فانما نفعل ذلك لان الله قد أمرنا بذلك قائلا :
﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ (المائدة/ ٣٥) ، ولكي نؤكد لأنفسنا اولا وقبل كل شيء
حالة الايمان ، صحيح ان باب الله - عز وجل - مفتوح للسائلين ، ولكنه في
بعض الاحيان يأمرنا ان نأتيه من ابوابه فيقول : ﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾
(البقرة/ ١٨٩) .

ان الله موجود في كل مكان ولكنه - مع ذلك - يأمرك ان تذهب الى الكعبة
او الى عرفات في حين انه لا يوجد اي اختلاف بين البيت الذي تسكنه عن
الكعبة او جبل عرفات من ناحية العنصر ، ولكن فضيلة تلك الاماكن تكمن

في ان الله - سبحانه - أمرنا بالتوجه اليها ، وفضيلتي - كإنسان - هي الخضوع للأوامر الالهية ، فمن خلال هذا الخضوع يحص ايماني .

وهكذا فان تجميع الناس في ذلك البر القفر البعيد الذي يصعب الوصول اليه بين الاحجار والصخور انما هو لكي تجرب ارادة الانسان ويمتحن ايمانه .

وعلى هذا فان القضية الاساسية التي يجب ان نلتفت اليها اننا عندما نذكر الله - سبحانه وتعالى - صباح مساء ونسبحه ونقدسه ، لكي لانقدس شيئا آخر غير الله - سبحانه وتعالى - اللهم الا اذا أمرنا بذلك كما تقدم ومن خلال استقراء قصة ابليس وآدم نستفيد ما يلي :

١- ان الفكرة الرئيسية التي نستوحىها من قصة ابليس مع آدم اننا نحن ايضا نعيش الآن نفس الحياة ؛ فالإنسان هو الانسان ، وسنن الله - تعالى - باقية لم تتغير ، فنحن ايضا قد نستكبر عن طاعة من أمرنا الله بطاعتهم .

٢- علينا ان نسأل انفسنا : ماهو الأساس الذي تقوم عليه علاقاتنا مع بعضنا البعض ومع سائر المجتمعات والشعوب والامم ؟ وهل هو اساس مادي قائم على اساس المصالح ، أم على اساس ان الغني منا يقول لابد ان تكون القيادة لي لانني أغنى من الآخرين ، أم على اساس ان المنتصر منا يقول لغير المنتصر إنني افضل منك لان الله منح لي من دونك نعمة النصر ؟

ان هذه الاعتبارات وغيرها هي بحد ذاتها علاقات عنصرية نحن لاندعو اليها ، وتجيب علينا محاربتها والقضاء عليها ، فلا يجوز لاي انسان ان يدعي الفضل على انسان آخر ، فمثل هذه العلاقات الشاذة هي التي تهدم اساس التوحيد في المجتمعات الاسلامية ، فلا يجوز لي ان استهين بفلان من الناس لان بلده محتل ، ولانه مظلوم ، ومستضعف ولم يكتب له الله - تعالى - النصر لحد الآن . وفي هذا المجال - مجال التواضع وعدم التكبر على الآخرين - يقول الامام الصادق (عليه السلام) : " اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمن

تعلّمونه العلم وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم " (١) ، فلا يجوز للانسان العالم ان يتجبر ، بل عليه ان يفعل العكس من ذلك فكلما ازداد الانسان علما لابد ان يزداد تواضعا .

وبالاضافة الى ذلك فان المكاسب الرسالية والتأريخ الجهادي الطويل يجب ان لا يدفع الانسان المؤمن الى التكبر على الآخرين ، والطلب منهم ان يخضعوا له . فالانسان قد يعيش عمرا طويلا وهو يعيش الاعتقاد بانه مؤمن ومخلص ، لله - تعالى - ، ولكن كل ذلك قد يتحول الى تمنيات وأحلام ، واذا بهذا الانسان يهتف قائلا : ﴿ رَبِّ ارْزُقُونِي * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (المؤمنون/٩٩-١٠٠)

فيأتيه الجواب من رب العالمين : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون/١٠٠)

حذار من التعصب :

وهكذا فان ابليس انما اصبح لعينا ، وانما طرد من الجنة لانه تكبر وقدم عنصره ، فحذار من هذا العمل ومن الاغترار بالمكاسب المادية . ان هذه الحالات النفسية الشاذة هي التي تؤدي الى سقوط الانسان ، فلا بد ان يكون الدين لله كما يقول - تعالى - : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزمر/٣) ، ولنعلم اننا لو اشركنا به ولو بمقدار ذرة فان اعمالنا جميعها ستحبط كما يشير الى ذلك - عز وجل - في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر/٦٥) .

وعلى هذا الاساس فان العلاقات في اوساط الامة الاسلامية ينبغي ان تقوم

(١) بحار الانوار ج ٢ ص ٤١ رواية ٢

على اساس ايماني توحيدى لا على اى اساس آخر ، فالاعتبارات المادية هي كلها مداخل للشيطان في قلوبنا ، فليس من حقنا ان نفتخر باللون او اللغة او الارض او التجمع الذى ننتمى اليه ، وانا اوجه كلامي هذا بالخصوص الى ابناء الطليعة من الامة الذين يجب ان تكون علاقاتهم راسية على اساس توحيد الله وتقديسه وتنزيهه لا على اساس تقديس النفس والاعجاب بها والذي هو نوع من الشرك حذرنا الخالق - عز وجل - منه أشد التحذير .



التوحيد منطلق محاربة الطاغوت

التوحيد يعني في حقيقته ان ملكوت السماوات والارض وغييهما ، وحركة الليل والنهار والشمس والقمر ، وموت الانسان وحياته ورزقه وفقره ، كل ذلك وغيره بيد الله - سبحانه وتعالى - الذي يتفضل على طائفة من الناس بالرزق ويقدر رزق طائفة أخرى ، ويجعل فريقا ملوكا ثم يسلب الملك منهم لان بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

الايمان لا يستقيم مع الشرك :

والانسان الذي لا يؤمن بهذه الحقيقة هو كمن لا يؤمن بالله ، فالذي يدعي الايمان ثم يرى في نفس الوقت ان ملكوت الارض والقدرة المهيمنة على هذا الكوكب بيد هذه القوة البشرية او تلك ، فان مثل هذا الانسان هو كافر في

الحقيقة ، ذلك لان الايمان بملكوت وقدرة الخالق - تعالى - هو جزء لا يتجزأ من الايمان بالخالق ذاته .

ان الاله الذي نؤمن به واسع القدرة ، فعال لما يشاء ، مهيمن على السماوات والارض ، له الأمر وله الخلق واليه المصير ، وهذا هو الله - تعالى - الذي نؤمن به ، ومثل هذا الايمان لابد ان ينعكس على حياة الانسان المؤمن .

فالانسان الذي يؤمن بالله الها حقاً ، له الاسماء الحسنى والصفات المثلى ، لا يمكن ان يستسلم للطاغوت ، ولا يخشى من متجبر ، ولا يتنازل عن قيمه ومثله طلباً للدنيا ، لان قلب هذا الانسان متصل بنور الخالق - تعالى - ، ولذلك فانه الاعز بين المخلوقات كما قال - عز وجل - : ﴿ وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون/٨) .

ان انعكاس التوحيد على حياة الانسان يعني ان تكون حياته كلها عزة وكرامة واستقلالاً وشرفاً ، فهو لا يبيع شرفه من أجل لقمة العيش ، ولا يتنازع عن كرامته مقابل منصب ، ولا يستسلم خشية من أحد ، فهو لا يخاف الا الله ، لانه يعلم ان القوة والملك وغيب السماوات والارض بيد الخالق - تعالى - .

مظاهر الشرك في حياتنا السياسية :

ونحن في عالمنا المعاصر عندما ندخل عالم السياسة ونستمع الى الاخبار ونقرأ الصحف ونتفاعل مع الحوادث اليومية ، فاننا نرى ان الشيطان يظهر لنا من خلال هذه الوسائل الاعلامية ، فهو يحاول ان يوسوس في صدورنا ويجعلنا نعتقد - مثلاً - ان الولايات المتحدة الاميركية هي أقوى سلطة في العالم ، وهذا ما دفعنا الى ان نسميها بـ " القوة الكبرى " ، في حين ان هذا التصور هو نوع من الشرك .

ان ما تردده هذه الوسائل الاعلامية من شعارات هي في الحقيقة نفس

الكلمات التي كان يطلقها فرعون ، فهذا الطاغية كان يقول : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَى ﴾ (النّازعات/٢٤) ، والذين حوله كانوا يحلفون بعزته لآ بعزة الله
- سبحانه وتعالى - ، وفي النهاية رأينا مصير عزة فرعون في تلك المعركة التي
أخذ الله - عز وجل - فيها هذا الطاغية وجنوده أخذ عزيز مقتدر ، فنبذهم في
اليم واغرقهم ليذهبوا دون رجعة .

ولعل الحضارة الفرعونية هي الحضارة الوحيدة التي انقطعت جذورها ،
وانقرضت بشكل نهائي في حين ان الحضارات الاخرى كان لها امتداد ، ذلك
لان باني هذه الحضارة أعلن كفره وتحديه للخالق - عز وجل - .

واليوم تطرح نفس هذه الفكرة من خلال طرح اميركا كقوة عظمى لايمكن ان
تنازعها قوة أخرى في حين ان القوة الكبرى لله - تعالى - ، فالاميريكيون
عجزوا حتى الآن عن القضاء على فيروس الايدز ، واقتصادهم الآن في حالة
تدهور ، ومع ذلك فاننا نقول ان اميركا هي ربنا الأعلى ، ونسميها بـ " القوة
الكبرى " ؛ في حين ان الله - تعالى - هو المقتدر المهيمن ، فمن إعتز به
أعزه ، ومن توكل عليه كفاه ، وهذه الحقيقة يجب ان لا تردد باللسان فحسب بل
يتعين ان تتحول الى استراتيجية في حياة الانسان بجميع مجالاتها .

الشهادة حصن الاستقلال :

ولهذا السبب فان علماءنا استطاعوا ان يحافظوا على استقلاليتهم عن
الاتجاهات السياسية لانهم يعتقدون بالاكتماء الاقتصادي فهم لا يستلمون
مرتبات من الحكومات ، ولانهم يؤمنون بقيمة الشهادة في سبيل الله - تعالى - ،
ولذلك فان التهديد والترغيب لا يؤثران فيهم ، فكم منهم اصبحوا شهداء عبر
التأريخ اعتبارا من اصحاب الائمة (عليه السلام) الذين يمثلون السلف الصالح
لعلمائنا ، وهذه مفخرة لنا .

وبناء على ذلك فان الانسان الذي يعشق الشهادة في سبيل الله - عز وجل - لا يمكن لأي قوة في الارض ان تهزم إرادته او تسلب قيمته ، لانه استسلم لله وتوكل عليه .

ان هذه القيمة هي التي جعلت هذه السلسلة المباركة من علمائنا تسير في الطريق المستقيم دائما فلا الترغيب بإمكانه ان يغير منهجهم ولا الترهيب ، وهذا هو الاستقلال ..

وهذه ظاهرة توارثها كابرا عن كابر من ائمتنا (عليه السلام) وحتى فقهاءنا ، ذلك لان هؤلاء العلماء يوقنون ان نظام الكون بيد الله - عز وجل - .

اساليب استعمارية جديدة :

وبالطبع فان شعوبنا وصلت اليوم - والحمد لله - الى المستوى المطلوب من الوعي ، وعرفت كيف تتصدى للمخططات الاستعمارية ، وقد ظهرت الآن اساليب استعمارية جديدة أشير الى اثنين منها فيما يلي ليدرك اخواننا العاملون في المجال السياسي ، وابناء الحركات الاسلامية انهم يواجهون عدوا شرسا متمرسا في الكيد ، وصياغة الخطط الجهنمية :

١- الاسلوب المالي والاقتصادي :

وعلى سبيل المثال فان البنوك المنتشرة في انحاء العالم متصلة ببعضها البعض من جهة ، وبالبنوك الدولية من جهة أخرى ، واذا ما دققنا في الأمر اكتشفنا ان المشرف على هذه البنوك يتمثل في الامبريالية والصهيونية ، وهكذا يحارب الاستكبار اقتصاد المسلمين ويحطمه عبر الشبكات المالية التي يمتلكها والمتمثلة في البنوك .

ومن جهة اخرى فاننا نرى ان الاسواق العالمية بأيدي الغربيين ، ولذلك فاننا نلاحظ ان اسعار المواد الأولية التي تصدرها البلدان النامية تهبط يوما بعد آخر ،

وعلى سبيل المثال فان سعر البرميل الواحد من النفط كان يبلغ في يوم من الايام (٦٥) دولارا ولكنه انخفض الآن الى أدنى مستوياته ، والأسوء من ذلك ان البلدان الغربية تأخذ هذا النفط من البلدان النامية بأبخس الاثمان لتحوّله الى وقود ومواد اخرى لتبيعها لنفس البلدان بأكثر من (١٥٠٠) ضعف !

٢- الحرب الثقافية :

ان التقنية الآن بأيدي الغربيين ، وقد بدؤوا الآن يشنون علينا هذه الحرب من خلال توظيف تلك التقنية ، وعلى سبيل المثال فان الغربيين هم الذي يقفون وراء شبكات تجارة المخدرات التي أدت الى ان يتساقط شبابنا كما تتساقط اوراق الخريف ذلك لانهم هم الذين يروجون لها . ومن الطريف ان بعض الحكومات اذا ما عاقبت تجار المخدرات فان البلدان الغربية تعترض على ذلك تحن شعار (حقوق الانسان) !!

ومع ذلك فاننا نلفظ في نوم عميق في حين انهم يضعون المخططات الجهنمية لافسادنا وحرفنا عن تعاليم ديننا ، وهم يركزون في غزوهم الثقافي هذا على أولادنا من خلال أفلام الكارتون - على سبيل المثال - والافكار الخبيثة التي يدسونها في هذه الأفلام كما يدس السم في العسل الى درجة ان أولادنا اصبحوا لغيرنا لانهم تلقوا تربيتهم من هؤلاء الغير ، وعلى هذا فان وجد تهديد حقيقي لبلادنا في العالم الاسلامي فهو التهديد الثقافي .

هذه هي حقيقة العالم الغربي ، فهل نستسلم له أم نتحداه ؟

بالطبع يجب علينا ان نتحداه لان من أسس الايمان بالله - تعالى - الكفر بالطاغوت كما قال - عز من قائل - : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (البقرة/٢٥٦) .

اما الانسان الذي تغشي الحجب عينه فلا يمكن ان يرى الحقيقة ، فالذي

يؤمن بالطاغوت لا يمكن ان يؤمن بالله ، فالطاغوت هو ذلك الانسان الذي يطغى في الارض كفرعون وأمثاله .

کیف نحارب الطاغوت :

وهنا يتبادر الى الاذهان السؤال المهم التالي : بماذا نحارب الطاغوت ونحن لانمتلك الامكانيات اللازمة ؟

وللجواب على هذا السؤال نقول : ان الايمان بالله - تعالى - هو سلاحنا في هذه المحاربة ، فايماننا بأن ملكوت السماوات والارض بيده - عز وجل - هو بداية مواجهتنا للأعداء ، اما اذا لم نؤمن بالله حقاً ، ولم ندرك انه هو الفعال لما يشاء ، وانه مسبب الاسباب والمهيمن فاننا سوف لن يكون في مقدورنا محاربة الطغاة .

ولذلك فان الله - جل وعلا - يعرض لنا في سورة الانعام حقيقة هيمنته المطلق على الكون والحياة في قوله - تعالى - : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ (الانعام/ ٦١) ، اي ان كل شيء في حياتنا مستمد منه حتى حركتنا وشعورنا بالأمن ، وحتى الموت فانه هو الآخر لايقع صدفة وعشا بل ان ملائكة الله - تعالى - هم الذين يقبضون أرواح الناس ، فاذا أمر الله ملك الموت ان يقبض روح رجل كبير السن في المكان الفلاني فان من المستحيل ان يقوم بعمله هذا خطأ ، فيقبض - مثلاً - روح شاب جالس الى جانب ذلك الرجل الكبير السن ، لان كل شيء عنده - تعالى - بمقدار ، هذا ما يشير اليه بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الانعام / ٦١) .

ثم يستأنف السياق القرآني الكريم في سورة الانعام قائلا : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ * قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ

ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ ﴿ (الانعام/٦٢-٦٣)

فبالموت لا ينتهي كل شيء ، فهو بداية لا نهاية ، ثم ألم تقع في المشاكل
وندعوا الله - سبحانه وتعالى - ان يحلها لنا ، فحلها وفرجها عنها ؟ فلماذا الكفر
به - تعالى - ، ولماذا نعتقد بقوة هذا السلطان او ذلك الطاغوت ؟!



التوحيد يتحدى

اول واعظم ما يهبه القرآن الكريم للانسان المؤمن القدرة على ازالة غشاوات الجهل ، وحجب الضلال عن قلبه ليتصل هذا القلب مباشرة بنور الحقيقة فيكتشف الحقائق ويرى الاشياء كما هي :

الانسان مفطور على فهم الحقائق :

ولقد فطر الانسان على فهم الحقائق ، ولو ترك لشأنه لأدرك ان لهذه السماء المبنية والارض المدحية الها فطرهما وقدر فيهما ارزاقهما ودبر شأنهما ، ولكننا نرى ان اغلب الناس يشركون بالله لان فطرتهم الاولى دنست برجس الشرك ، وحجبت بالاهواء والشهوات والتعصب والتربية السيئة والرغبة في تحقيق المصالح غير المشروعة .

ان هذه الأمور كلها تحجب عقل الانسان وبصيرته عن رؤية الحقائق ، لذلك نجد ان القرآن الكريم يعمل على رفع هذه الحجب المتراكمة على قلب الانسان فأيات القرآن تزكي القلب وتطهره وتجعله نقيا مضيئا يغمره نور الله ، ولذلك فان الانسان المؤمن ينظر بنوره - عز وجل - الحقائق ، بل انه يتوسم ايضا فيرى مالا يراه الآخرون ، ويكتشف ما هو خارج الشهود ؛ اي يكتشف من الشهود الغيب الكامن وراءه .

الانسان المؤمن متوسم :

والقرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة قائلا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر/٧٥) ، وكذلك الحديث الشريف حيث يقول : " انقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله " ، والمتوسمون هم الذين اذا نظروا الى سيماء الانسان اكتشفوا ما في قلبه ، واذا تأملوا ظاهرة عرفوا اسبابها وما ستنتهي اليه وهذه السمة التي يهبها القرآن للانسان لا بد ان نحيطها بانتباهنا ، فعندما يقرأ البعض القرآن لا يلتفتون الى ما ينبغي لهم ان يكتشفوه وينتفعوا منه ، لانهم يقرؤون القرآن قراءة سطحية ، ويمرون على الالفاظ فلا يتدبرون فيها ، في حين ان القرآن الكريم يأمرنا بالتدبر في آياته ، والتفتيش عن معنى كل كلمة فيه . ولكي نوضح الفكرة السابقة نقول ان الكلمات - سواء كانت عربية ام غيرها - هي الفاظ وضعت للمعاني والحقائق الخارجية لا للمفاهيم الذهنية كما يقول الفلاسفة الاقدمون ، فالالفاظ تشير الى مدلولاتها مباشرة من دون مرورها على ذهن الفرد او على المفهوم ، وهي تشبه بذلك علامات المرور التي توضع على الطرق فتدل على المعاني الخارجية ، والحقائق الموجودة خارج اذهاننا ومفاهيمنا .

الفاظ القرآن تدل على الحقائق :

وكذلك الحال بالنسبة الى الفاظ القرآن ، فلقد استخدمت الفاظه للدلالة على

محض الحقائق التي لا تشوبها شائبة ولا يحجبها حجاب ، وعلى سبيل المثال فان القرآن عندما يحدثنا عن الكون فانه يستخدم لفظتي (السموات والارض) ويعرض عن استعمال لفظة الكون كما في قوله - تعالى - : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (طه/٦) ، فالقرآن الكريم لا يستخدم الالفاظ الدالة على المجردات المجهولة بالنسبة الى الانسان بل يستخدم عادة الحقائق الملموسة حتى في عالم المجردات .

وحتى عندما يريد رب العزة ان يتحدث عن ذاته المقدسة - تعالت عن الوصف والتشبيه - فانه يستخدم عبارات كهذه : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح/١٠) ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة/٢٣) ، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه/٥) ، فمثل هذه التعبيرات تبين الحقائق الخارجية ، وتجعل الانسان قريبا منها ، فيرى - عندما ينظر عبر منظار القرآن - كل شيء كما هو . ان الادباء والفلاسفة والكتّاب عادة ما يغلفون الحقائق بمفاهيمهم ، في حين ان القرآن الكريم يوضحها بصورة مباشرة ، فالانسان عندما يتلو آيات الذكر الحكيم فانه يحس بأنه يعيش الوجود ، ويعيش حركة الظواهر المخلوقة في السموات والارض بشكل مباشر ودونما حجاب ، فعندما يهطل الغيث من السماء ينظر المؤمن الى قطرات المطر وهي تصب في الارض خصباً وبركة وخيراً ، يهتز قلبه كما تهتز الارض وتربو بقطر السماء : ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الرؤم/٥٠)

وهكذا فان القرآن الكريم يجعل الانسان يعيش الحقائق الخارجية ، في حين ان الثقافات الاخرى تعمل على تغليف قلب الانسان ، وحجبه عن هذه الحقائق ، فالانسان المؤمن - في عالم المعرفة - مثله كمثل الشخص الذي يقف عارياً تحت زخات المطر فيعيش الطبيعة كما هي على انه يعيش الطبيعة والخلقة بعلمه

ومعرفته لا بجسده العاري ، بينما يوضع الانسان المثقف بالثقافات الجاهلية في سيارة مصفحة ثم تدخله هذه السيارة في قاعة مغلقة ينظر منها الى المطر دون ان يرى آثاره التي يتركها على الارض .

اسباب الابتعاد عن الله :

وبناء على ذلك فاننا كثيرا ما نتعرض الى مثل هذه الحجب بشكل مضاعف ومكثف والسبب في ذلك ان الانسان لايهوى معرفة الله - سبحانه وتعالى - وهذا بدوره يعود الى اسباب منها :

١- الشهوات والغرائز :

فلقد اودعت في قلب الانسان الشهوات والغرائز وهي تجعله يخلد الى الارض وتصدّه عن الارتفاع الى السماء ، ومن هذه الغرائز غريزة الجنس والأكل وحس السيطرة والتملك والحسد ... وما الى ذلك من الغرائز التي تجعل الانسان ارضيا ترابيا تمنعه من السمو والانطلاق في سماء معرفة الله ، ولذلك فان نفس الانسان لاتهوى معرفة الله ، ويبقى حجاب الشهوات والغرائز حائلا بينه وبين هذه المعرفة .

٢- الثقافات الدخيلة :

تمثل الثقافات الدخيلة ايضا غشاوة تصد الانسان عن معرفة الله - جل وعلا - ولكننا نلاحظ ان القرآن الكريم يحاول دوما خرق هذه الحجب والغشاوات بأجمعها .

٣- الشرك بالله - تعالى - :

ان قضية الشرك تمثل قضية هامة وحساسة للغاية ، فالانسان لو مات مشركا لا يغفر الله - عز وجل - له ، ولذلك ينبغي للانسان ان يعرف معاني الشرك ، من

جهة ، ويطلع على معنى التوحيد من جهة اخرى ليكون على بينة من أمره .
ولقد كان هناك نزر يسير من الناس يتصورون انهم قادرون على خلق ،
وايجاد الاشياء مثل نمرود الذي قال لابراهيم (عليه السلام) : ﴿ أَنَا أُخَيِّي
وَأُمِّيْتُ ﴾ (البقرة/٢٥٨) ، فأجابه ابراهيم : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة/٢٥٨) ، فلقد وقف
نمرود ساكتا مشدوها امام ابراهيم (عليه السلام) ، لانه لم يكن يعلم بذاته انه
بشر كالآخرين ، فمسألة الاحياء والاماتة لا يدعيها احد الا ادعاء مجازيا .
ان الناس كلهم يقرون ان الله هو خالق السماوات والارض كما يؤكد على
ذلك القرآن الكريم في قوله : ﴿ أَفَلَيْ اللَّهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾
(ابراهيم/١٠) ، فليس هناك من شك ان الله هو الخالق ، وحتى الذين يعبدون
الاصنام كانوا يقولون : انما نعبدها لتقربنا الى الله زلفى ، فالناس عادة ما يغلفون
بغلالة من التوحيد ، فيلبسون بذلك الحق بالباطل ، ويعبدون غير الله زاعمين انهم
يعبدونه .

على ان الطاعة العمياء تعتبر هي الآخرة نوعا من الشرك كما يقول - عز
وجل - بشأن اليهود والنصارى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ
اللَّهِ ﴾ (التوبة/٣١) ، فالذين اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا لم يعبدوهم بالركوع
والسجود بل اطاعوهم عندما حرموا حلال الله وأحلوا حرام ، فكان هذا العمل
بمثابة عبادة لهم جسديتها طاعتهم لغير الله وبدون إذنه ، ولذلك يقول القرآن
الكريم على لسان احد اوليائه : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ (الانبياء/٢٤)

المؤمن لا يخشى الا الله :

والآلهة هي كل ما يعبد من دون الله ، وهذه الآلهة المزيفة تشمل السلاطين
والرهبان وكل من يعبد من دون الله - تعالى - بطريقة او بأخرى ، والمشكلة

التي تعاني منها البشرية هي خضوعها للمعادلات الضاغطة ؛ فكل منهم يخشى من هو فوقه ، واغلب الناس عندما ينحرفون عن جادة الحق لا يعترفون بخطأ طريقهم وانحراف مسلكهم خشية وخوفا من كلام الناس ، ولذلك نجد ان القرآن الكريم يقول عندما يصف المجاهدين : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (المائدة/ ٥٤) ، فهم يطيعون الله ويعبدونه ويجاهدون في سبيله دون ان يتأثروا بكلام الآخرين ، لان رضا الله هو منتهى ما يصبون اليه .

ولنا في اهل البيت (عليه السلام) قدوة حسنة في هذا المجال فكم سبوا ووجهت اليهم الشتائم وهم قدوة الصلاح ورمز الهدى ومصاييح الهداية وسفن النجاة فلقد سبوا على منبر جددهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) لمدة اربعة وثمانين عاما فلم ينقص ذلك من شأنهم ، ولم يحط من اقدارهم بل ازدادوا رفعة وخلودا .

وعلى هذا فان على الانسان المؤمن ان لا يتهرب من السباب ، بل ليكن هروبه من غضب الله ، لان هدفه ارضاءه - تعالى - والا فانه سيدخل في معادلة الخوف من كلام الناس والبقاء تحت رحمة الضغوط .

الخضوع للمعادلات يتنافى مع العبودية :

اننا لا يمكن ان نكون عابدين لله حق عبادته اذا أردنا ان نخضع للمعادلات بشكل او بآخر ، فنخشى كل من هو أعلى منا مركزا ومنصبا فنحن عندما ننطق بشهادة التوحيد فان هذا يقتضي منا عدم الخضوع للمعادلات والمجتمع والسلطة السياسية ، وعدم الاستسلام للنظام الاقتصادي والتربية الفاسدة ومؤامرات الاستكبار العالمي ، بل الخضوع المطلق لله وحده لاشريك له .

اما اذا قلنا (لا اله الا الله) كمجرد كلمات نردها فان هذا يعني اننا لم نعرف المعنى الحقيقي للإله ولكننا اذا عرفنا ان معنى الآلهة من دون الله هو شياطين

الارض وسائر القوى المستبدة فحينئذ سيقننضي قولنا (لا اله الا الله) نفى الوهية هؤلاء والاتكال على الله وحده ، وعندها ستتصل قلوبنا بالنور الالهي فنشعر بلذة التوحيد وتكون هذه الكلمة هي حصن الله الذي ندخل فيه ، فقد جاء في الحديث القدسي الشريف : " كلمة لا اله الا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي " .

الخلاص في التوحيد :

ان مجرد ان ننطق بكلمة التوحيد بنية صادقة واخلص سيؤدي الى ان يردع الله - عز وجل - عنا قوى الاستكبار ، بل ان كل مكرهم سيتبدد لان الأمور بيد الله وحده . فالله - تعالى - لا يعصى عن غلبة ، فعلينا ان لا نتصور انه لا يقدر على من يعصيه ، بل ان الانسان العاصي لا يمكنه ان يرتكب المعصية الا بالقدرة التي منحه الله اياها ، فاذا ما سلب هذه القدرة فانه سيصبح عاجزا عن معصية ربه .
وهكذا فان علينا ان لا نعتقد بالوهية احد ، وان لانخضع اليه مهما كان قويا ، وليكن خضوعنا لله وحده . صحيح انه - عز وجل - قد أمرنا بإتباع قيادة العلماء ، ولكننا انما نتبعهم لان الله أمرنا بذلك ، فطاعتنا لهم هي في إطار طاعة الله ، وهكذا الحال بالنسبة الى الجهاد فيجب ان يكون في سبيل الله ، ومن اجل اعلاء كلمته في الارض ، ودفاعا عن الدين والقيم ، ولا شك ان الجهاد من شأنه ان يجعل القلب نقيا يرقى بالانسان الى مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا في الدنيا والاخرة .



الباب الرابع

واقع الشرك

رفض الشرك شرط العبادة

روي ان رجلا تشرف بالحضور بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان يدعى (حارثة ابن مالك بن النعمان) وكان من الانصار ، فلمح رسول الله (صلى الله عليه وآله) في محياه آثار الارهاق فقال له : كيف أنت يا حارثة ؟ فقال : يا رسول الله مؤمن حقا .

فقال له رسول الله : لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك ؟ فقال : يا رسول الله اعزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، واظمأت هواجري وكأني انظر الى عرش ربي وقد وضع للحساب وكأني انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني اسمع عواء اهل النار في النار . فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : عبد نور الله قلبه ، ابصرت فأثبت .

التوحيد هو العهد الاول :

وهكذا فان اول عهد أخذه الله - سبحانه - من البشر في عالم الذر هو الميثاق ان لا يعبدوا الا اياه ، وقد قال - تعالى - في هذا المجال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (يس/٦٠-٦٢) . فعندما بعث الله من صلب بني آدم ذريتهم أشهدهم على انفسهم فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (الاعراف/١٧٢) فكان الجواب : ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ (الاعراف/١٧٢) ، وهذه هي الرسالة الأولى والأخيرة لكل رسل الله ورسالاته ولكل الصالحين في الحياة ؛ فقد جاؤوا ليعيدوا الانسان الى الجادة المستقيمة والسبيل القويم من بعد ان ضل عن الطريق ، وليحرروه من عبادة الهوى والشهوات وعبادة الطغاة .

وكل ما في رسالات الله من وصايا وتعاليم وشعائر وطقوس وفرائض جاء ليقدم هذا الهدف العظيم ، وهذه ايضا هي الغاية السامية التي من أجلها جيء بالانسان الى هذه الدنيا ، فقد جاء الله - تعالى - به لكي يختبر ، ويمتحن مدى صلابته ايمانه وثباته في عبادة الله لكي يكون من أهل الجنة . فحرام على الانسان ان يعيش سبعين عاما ثم يموت وتنتهي فرصته الوحيدة ولا يكون عابدا لله ومؤمنا حقا .

فلنتساءل : كيف نصبح مؤمنين حقيقيين ؟ ان القرآن الكريم لم يدع زاوية مظلمة على صعيد الايمان ، فكل جوانب هذا الصعيد قد اضيئت بالبيان الحق ، فلقد ذكرنا القرآن لكي لا يقول احد انه كان غافلا ، وفي هذا المجال يقول - تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ (فُصِّلَتْ/٥٣) .

فالله - عز وجل - يري كل انسان آياته ، ويتجلى له في كل لحظة من لحظات حياته ، وعند الشدائد والاعطاش والخوف الشديد ونزول المصائب ولحظات المناجاة يتجلى الرب لعبده لكي لا ينكره ولكي تتم حجة الله عليه ، وحتى الانسان المنافق

والكافر قد يتجلى الخالق - عز وجل - له في بعض الاحيان لكي يكمل الحجة عليه كما يقول - عز من قائل - : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الانفال/ ٢٤) ؛ اي لا يدع قلب الانسان يظلم بالكفر ويزين الشيطان له ، بل يبقى فيه بصيص نور يهديه الى الحق ، وهذا البصيص هو الحجة عليه يوم القيامة .

والسؤال المهم هنا هو : هل نستغل ذلك النور أم نكون كالذين قال عنهم - تعالى - ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ (البقرة/ ٢٠)

في الحقيقة ان هذه هي صفة المنافقين ، والله - جل وعلا - لم يدع جانبا خفيا في قضية الايمان ، ولكن القضية المهمة هي حجاب النفس ، فالانسان لا يحب ان يعرف الله وقلبه في هذه الدنيا محاط بوساوس الشيطان والاهواء والاغلال وبكل ما يمنع رؤيته للنور ، ولذلك فان الله - تعالى - شأنه بيبين لنا اولا في قضية الايمان ان الهدف الاساس والعهد الاول بين الله وبين عبده هو عهد العبادة الخالصة .

شروط العبادة الحقيقية :

ترى بم تكتمل العبادة ؟

انها تكتمل بشروط ، والشرط المهم هو رفض الشركاء من دون الله ؛ أي ان العبادة لا يمكن ان تكتمل الا بأن يطهر الانسان قلبه من دنس الشرك ويتحداه ، وعلى سبيل المثال فعندما تحدى ابراهيم الخليل (عليه السلام) أباه قال : ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (مريم/ ٤٤) وفي موضع آخر قال : ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الانعام/ ٧٤) رغم ان (آزر) كان صاحب فضل ونعمة على ابراهيم ، وكان ذا سلطة ونفوذ في حكومة نمروذ وحينئذ قال - تعالى - : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الانعام/ ٧٥) .

وعلى هذا فلنكن أصبح مؤمننا لابد ان تكفر بالجبت والطاغوت ، وبكل علاقة مادية لا تمت للايمان بصلة ، فقد قال ربنا - عز وجل - : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (البقرة/ ٢٥٦) .

بلى .. ان كثير من الناس تجدهم يتمنون لو انهم صلحوا في هذه الدنيا ، فالصلاح تدعو اليه فطرة الانسان ، فمن منا لا يريد ان يكون صادقا وفيا يعمل الخير ؟ حتى الاشرار يتمنون ذلك ، وهذه حالة متأصلة في نفس الانسان ، ولكن القليل من الناس ينجح في ذلك ، والقليل منهم يتوفاه الموت وهو يعبد الله وحده ، ويسلم أمره له .

الايمان الخالص :

والسؤال الذي يتبادر الى الأذهان في هذا المجال هو : ترى لماذا يصل القليل من الناس الى هذه الدرجة الرفيعة ، ولماذا لا يؤمن اكثرهم الا وهم مشركون ؟

الجواب بصراحة هو انهم قد ضيعوا الطريق لانهم لم يريدوا التخلص من الاغلال ، فالانسان الذي يريد الوصول الى الذروة العليا عليه ان يتحرر من الاغلال والعلاقات المادية ..

والتطلع الى بلوغ القمة الايمانية موجود لدى كل انسان ولكن الذي يمنعه علاقه المادية ، فهو يريد ان يصل الى القمة ولكنه في نفس الوقت يريد ان يحافظ على هذه الاغلال .

وبالطبع فاننا لا نستطيع ان نصل الى شيء الا من خلال التخلص من شيء آخر ، والانسان الذي احاطت بقلبه الطفيليات والجراثيم المعنوية وجثمت على نفسه الذنوب لا يمكنه ان ينطلق .

لذا يعتبر الورع عن محارم الله - تعالى - أفضل الاعمال ، والذي يدعي انه مبرأ من الذنوب سيكتشف كم ارتكب من المحارم والذنوب كالحقد والحسد والبغضاء وأكل المال الحرام وعشرات الذنوب الاخرى التي لم يستطع التخلص منها فكيف

يدّعي انه لا ذنب له ؟!

وعلى هذا فان الخطوة الاولى في طريق العروج الى الله هي رفض الشرك ، وفي هذا المجال يقول - عز وجل - : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء/ ٣٦) . فاذا أنت لم تتخلص من العلائق المادية ، ولم تحرر العبادة من الشرك فانها ليست عبادة .

معنى الشرك في القرآن :

ان في القرآن اجمالاً وتفصيلاً ، والكلمة الثانية هي تفصيل للاجمال ، وتبيين للحقيقة الاولى ، ومن أجل ايضاح معنى الشرك يقول - تعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبٍ ﴾ (الرعد/ ٣٦) فمعنى الشرك هو ان تدعو غير الله ، ومعنى اجتنابه ان لا تدعو غير الله ولا تعتقد ان مصيرك بيد غيره بل بيد الله واليه المصير .

والقرآن الكريم يوضح ويبين معنى الشرك ويقول ان الشرك بمعناه الحقيقي هو ما قاله البعض من ان الله - تعالى - ثالث ثلاثة وهذا معنى من معاني الشرك ، ولذلك يقول - عز وجل - : ﴿ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُوْلُوْا ثَلَاثَةٌ اَنْتَهُمْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ (النساء/ ١٧١) لان الله واحد ، وهناك بعض الناس كانوا يقولون ان الملائكة انصاف الهة ، ولذلك فان الفلسفة اليونانية كانت تقول ان الله - سبحانه - نور - مثلاً - او أي شيء من الاشياء تحرك او ولدت منه الاشياء كالنبيذ الذي يفيض منه المياه ، والشمس التي تنطلق منها الأشعة ..

ولمناقشة هذه النظرية نقول ان هذا الذي خرج من الله يحمل في طياته بعض الصفات الالهية ، ولذلك قالوا ان الصادر الاول أقرب الى الله ، والصادر الثاني أقرب الى الصادر الاول وهكذا ... فاعتقدوا بعشرة عقول ، وضمن هذه الفلسفة اعتقدوا بان الملائكة صدورهم من الله ، فهم - اذن - انصاف آلهة ، وهكذا

فان معنى الالهة عندهم هو الملائكة لا ذو العرش ، لان ذا العرش فوق كل شيء ، ولكن هذه الملائكة هي ايضا الهة من مثل اله القمر والشمس والارض ... ، كما ان القيم المعنوية لها ايضا الهة في فلسفتهم .

ان القرآن الكريم ينفي هذا النوع من الشرك لكي ينفي اولا ضلالة انتشرت بين البشر ، وثانيا : فهو عندما ينهى عن الشرك فانه ينهى عن حقيقة صادرة عن ضلالة وانحراف قائم .

ثم يفصل - تعالى - بعد ذلك قائلا : ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴿ (سبأ/ ٤٠-٤١) ، ذلك لان الانسان الذي يرضى بعبادة شخص له فان مصيره سيكون مصير الذي يعبد ، كما يؤكد ذلك - تعالى - قائلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (الانبياء/ ٩٨) .

ولتوضيح فكرة العبادة علينا ان نعرف الشرك ، ونحن لا نستطيع ان نعرف الشرك الا بعد ان نعرف حقائقه على الارض ، كما قالوا ان الله ثالث ثلاثة وهذا نوع من الشرك ، ومرة عبدوا الملائكة وهذا ايضا نوع من الشرك وهكذا .. ومن هنا لابد ان نتخذ طريقا الى كمال الدين في انفسنا ، ومعرفة حقيقة الايمان . ومن ثم الوصول الى هذه الحقيقة ، ولا ندع حياتنا تنتهي الا بعد ان نخلص عبادتنا لله - سبحانه وتعالى - .



أثر الشرك في الواقع الاجتماعي

وراء كل آية في القرآن بصيرة نيرة حول التوحيد ورفض الشرك ، والذي يطلع على الحقائق في القرآن الكريم يجدها تتمثل في شجرتين تقفان على طرفي نقيض ؛ هما شجرة النوحيد ذات الأصل الثابت في عمق الاعتقاد بالله - سبحانه - ووحدانيته ، وشجرة الشرك الخبيثة المجتثة من فوق الارض والتي تتفرع منها كل الرذائل فكل فضيلة وكل بصيرة حق تتفرع وتنمو من شجرة التوحيد الطيبة ، بينما يتفرع من شجرة الشرك كل ضلال وفساد وانحراف ورذيلة ، وهذا هو الشرك الذي يعبر عنه القرآن الكريم بانه ظلم عظيم ، وهو الذنب الذي لا يغفره الله - تعالى - دون بقية الذنوب .

ولو تبصر المتبصر ، وتدبر المتدبر في القرآن من فاتحته الى خاتمته لا يجد فيه آية الا وفيها بصيرة التوحيد ، وفي المقابل نبذ الشرك ، فياترى ما هو هذا الشرك ، وهل

هو وقف على اولئك الذين صنعوا اصناما من الحجارة والخشب ثم عبدوها بالسجود والركوع والخضوع والنذر لها ؟

اذا كان الأمر كذلك فان عبادة الاوثان تكاد تكون اليوم منقرضة ، فكل من نصادفه اليوم يدعي انه موحد ومؤمن بالله ، وطبقا لهذه الادعاءات فان الآيات الداعية الى نبذ الشرك والعمل بالتوحيد تنتفي ضرورتها ، بل وربما لايبقى للقرآن من معنى ، وهذا ما يصطدم مع منطق الايمان والضرورة الدينية القاضية بالعمل بالقرآن أبدا .

ومن ذلك نستنتج انه من غير المنطقي الغاء دور القرآن في الحياة ، بل ولايمكن الغاء آية واحدة منه ، والاستغناء عن حرف صغير من حروفه ، وبناء على ذلك فما هو الشرك الذي يقصده القرآن في آياته ، وهل يشمل معناه الحقيقي بعض الذي يدعون التوحيد ام لا ؟

معنى الشرك :

من أجل اكتشاف هذا المعنى ومدى ارتباطه بنا ، نتناول بالبحث جانبا من معرفتنا لبعض المفاهيم والقيم التي يعتبرها القرآن من ضرورات الايمان ، ومن ذلك الايمان بكون الموت حقا فالغالبية العظمى منا تؤمن بواقعية الموت ، ولكننا لانعيش حقيقة هذا الايمان ، بل نتصرف في الحياة وكأن الموت قد كتب على غيرنا ، وبعبارة اخرى فاننا نعتقد بحقيقة الموت ولكننا لانعتبر انفسنا من مصاديقه ، فنحن لانعيش الوعي الدائم لحقيقة الموت بل نتصور ان هذه الحقيقة من نصيب غيرنا فحسب .

وكذلك الحال بالنسبة الى التعامل الاخلاقي ؛ فحين تتناهى الى اسماعنا المواعظ والوصايا الاخلاقية نكاد نقتنع اننا بعيدون عن الجوانب السلبية فكل ما فينا ايجابي ؛ فنحن صادقون لا نكذب وأمناء لا نخون واوفياء لانخلف .. وهكذا ! فكل واحد منا يحاول تزكية نفسه ما أمكنه ، فيتصور انه ليس بحاجة الى توجيه وارشاد وتعليم بل

ان الآخرون هم الذين يحتاجون الى ذلك ، ومثل هذه التصورات الخاطئة هي التي تصرفنا عن التوجه الاخلاقي والتربوي والسلوكي ، وعدم الاهتمام بتربية انفسنا على التقوى وترسيخ الايمان ؛ في حين ان فهمنا لانفسنا يجب ان يكون على عكس ما نتصور ، وهو ان ننظر الى الآخرين على انهم أناس طيبون ، واذا كان هناك نقص او عيب ففينا ، فنحن الذين نحتاج الى ان نصبح أناسا طيبين صالحين .

وعلى هذا فلنستوعب الحقائق ونتفاعل معها من أجل تربية انفسنا ، ولتكن نصيحة الناصح وارشاد المرشد موجهين لي قبل ان يوجهها غيري ، وفي هذا المجال يروى الامام الحسن المجتبي (عليه السلام) انه قال : " احمل نفسك لنفسك فان لم تفعل لم يحملك غيرك " ^(١) ، فلا بد - اذن - ان نتوجه الى انفسنا اولا ، ونفكر في مصيرنا .

والقرآن عندما يتحدثنا عن الشرك في التأريخ ، وما تبعه من ويلات على البشرية ، فيجب ان لا يتبادر الى اذهاننا ان هذا الكلام موجه خصيصا الى اولئك الذين سبقونا ، وان ليس لكلامه هذا علاقة بنا ، بل ان القرآن موجه لنا بالدرجة الاولى ، لاصلاح انفسنا ، وعلى هذا فلا بد ان يكون للشرك الذي يحذر منه القرآن أسد التحذير علاقة باوضاعنا الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، فما معنى هذا الشرك وماهي أبعاده ؟

اذا استوحينا المعاني الدقيقة لمفهوم الشرك من نفس الآيات القرآنية ، ومن المأثور عن اهل البيت (عليه السلام) اكتشفنا ان معناه الحقيقي يتمثل في تقديس غير الله بغير الله - تعالى - فحين يقدس الانسان شيئا او شخصية غير الله ، فان كان هذا التقديس والاكرام والتعظيم لأجل ما لهذا الشيء او الشخص من علاقة وثيقة ، او كرامة عند الله فلا بأس بهذا التقديس والأكرام ، فنحن المسلمين عندما نقدر ونكرم نبينا الأعظم (صلى الله عليه وآله) فلكونه عبد الله ورسوله ، فهو - اذن - ينتمي الى الله ، اما اذا كان هذا التكريم والتقديس نابعين من الاعتقاد بانه يمتلك قداسة ذاتية في نفسه ، فهذا هو الشرك الذي نعيه .

(١) فروع الكافي ج ٢ ص ٤٥٤

ولعل مشكلة أهل الكتاب من النصارى انهم عظموا نبهم عيسى بن مريم (عليه السلام) وقدموه تقديسا ذاتيا ؛ اي لذاته لا لذات الله - سبحانه - فوقعوا في حبائل الشرك عندما اعتقدوا بـ (التثليث) ، اذ انهم يعتبرون المسيح (عليه السلام) إلها بذاته يمتلك القوة والقدرة ، في حين ان اول كلمة نطق بها هذا النبي الكريم وهو في المهد قوله : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (مريم/ ٣٠) ، فلم يقل (عليه السلام) : اني جزء من الله او ابن الله ، كما تدعي المسيحية المنحرفة .

حقيقة الشرك :

ونحن حينما نحمد الله ونشكره مطمئنين انفسنا اننا لسنا من المشركين ، هل وعينا حقيقة عدم الاشراك بالله فلم ندع الشرك ينفذ الى اعمالنا وسلوكنا واخلاقنا وعلاقاتنا الاجتماعية ، فعندما اقدس قومي او حزبي او طائفتي فهل نحصر على ان لا يتجاوز التقديس هذا تعاليم الاسلام فيدخل في نطاق الشرك ؟

فأنت كأ انسان تنتمي الى بلد معين لا ينبغي لك ان تجد في نفسك الافضلية على الغير فتتحدث بطريقة تنفي بها دور الآخرين او تقدم نفسك عليهم وكأن الله - عز وجل - قد أكرمك لوحدك ولم يكرم الآخرين ، فمثل هذا النمط من التفكير نمط اسرائيلي ؛ فالاسرائيليون يحسبون أنفسهم شعب الله المختار واما باقي الأمم فهم دونهم ، وقد شجب القرآن هذا النمط الضال من التفكير ، وكذلك السنة المطهرة في احاديث كثيرة معروفة كقول النبي (صلى الله عليه وآله) : " من تعصب او تعصب له فقد خلع ربة الاسلام من عنقه ^(١) " ، فينبغي على العاملين الرساليين ان يحذروا العصبية من ناحيتين :

- ١- ان لا يتعصبوا لانفسهم لكونهم من البلد الفلاني او القومية الفلانية ...
- ٢ - ان لا يفسحوا المجال لمن يزين لهم الروح العصبية كأن يلتف حولهم لكونهم

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ٢٩١ رواية ١٦

من البلد الفلاني او القوم الفلانيين ، فهذا مدعاة للخطر والانحراف .
ان البعض من الناس - وللأسف - يعيش حالة تقديس الأسماء والشعارات
والاحزاب ، فيعتبر - على سبيل المثال - حزبه حزبا مقدسا ، فهو ليس مستعدا لأن
يناقشك حول مبادئ حزبه ومنهجيته ، ولا يريد ان يفتح لك قلبا او عقلا ، بل
ولا يصغي لك عندما تناقشه في حزبه ، وهذا هو التعصب الذي هو ضرب من
ضروب الشرك بالله - سبحانه - ، ذلك لان القيمة والمقياس الاساسيين يتمثلان في
الله - عز وجل - ، فهو الخالق وهو الملك المقتدر الرزاق والمدير ، اما ان نتخذ شيئا
ما ونجعله مقياسا فهذا مالا يجوز .

ومن هنا يتبين ان الشرك لا يعني السجود والركوع لغير الله فحسب بل يشمل ايضا
الاعتداء والاتباع ، ولذلك جاء في تفسير قوله - تعالى - : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة/ ٣١) انهم لم يكونوا قد سجدوا وركعوا لهم
بل اتبعوهم فيما حللوا وحرموا وأمروا ونهوا ، فكان عملهم هذا بمثابة التعبد للأحبار
والرهبان .

اتباع القول الأحسن :

وعلى هذا ينبغي التقصي في كلام المتحدث ، والتحقق من كون مصدر حديثه
مصدرا الهيا كما يقول - تعالى - : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾
(الزمر/ ١٧-١٨) ، فالانسان المؤمن يصغي لما يتبادر الى سمعه من كلام ، ولكنه
يجعل ما سمعه واصفى اليه امام عقله وفكره ؛ اي انه يسمع في طاعة الله ثم يختار
وينتخب بالكيفية السليمة التي فيها رضا الله ورسوله ؛ اي وفق ميزان القوى ، وهذا
هو إتباع أحسن القول فالمؤمن لا يتعصب لزعامته وقيادته الحزبية بأن يسد أذنيه
عندما تنتقد قيادته او تناقشه فيها .

وهكذا فان التقديس لغير الله هو الشرك بعينه ، وهو لا يقتصر على الاشخاص او الجماعات او الشعارات الرنانة والاهداف الضالة بل قد يتعدى الى تقديس الارض او اللغة او العنصر ... ؛ فالبعض قد يرى ان لتربة وطنه قدسية خاصة في حين ان ليس هناك أرض مقدسة لذاتها ، فالارض واحدة وكلها لله ، وفي ذلك يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) : .. " جعلت لي الارض مسجدا طهورا .. " ^(١) ، وان المتتبع لتأريخ الصراعات والحروب في العالم يجد ان أغلبها وقع بسبب تقديس الارض لذاتها ، وتقديس الاعلام والرايات التي يرفعونها عليها ، في حين ان تقديس العلم واعتباره شرفا انما هو بدعة من بدع الاستعمار التي جاء بها لغرض تمزيق وحدة الشعوب والأمم على الارض ، فالشرف والقدسية لله - تعالى - ولمن كان من أهله . عظمتهم .

ولعل الثمرة الاولى لنبذ الشرك والعمل بالتوحيد تحقيق وحدة الانسان ؛ اي توحيد صفوف الناس شعوبيا وقبائل ، وهدم تلك الجدران والحواجز التي أقامها اتباع الشيطان بين الناس من أجل تحقيق اطماحهم ومصالحهم ، والوحدة هذه لا تتكون ولا تنمو الا بالحب والوئام والتعاون والتضحية والايثار ، وبذلك تغدو الحياة روضة من رياض الجنة ترفل بالسعادة والمحبة والطمأنينة والخير .

وعلى هذا فان احترام الارض وتكريم الاشخاص وتعظيم الحزب والانتماء كل ذلك ينبغي ان لا يكون على حساب القيم الالهية ، وعلى حساب الاضرار بالآخرين ، وعندما اهتم بيلادي فلا يكن هذا الاهتمام على حساب البلدان والاطوان الاخرى .

هدف الاسلام انقاذ البشرية :

ان هدف الاسلام هو ان يجعل هذا العالم الذي يعاني الويلات والآلام والجراح ينعم بالهدوء والاستقرار والعيش الهنيء ، فسفينة الاسلام والقرآن تريد انقاذ الشعوب

(١) بحار الانوار ج ٨ ص ٣٨ رواية ١٧

والأمم من لجة هذا البحر الهائج المتلاطم بالمعاناة والآلام والحروب الطاحنة ،
والرسوبها على بر الأمان والطمأنينة في ظل حياة حرة كريمة كما تشير الى ذلك
الآيات القرآنية التالية من سورة الشورى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ
حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ
أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ ﴾ (الشورى/٦-٧)

وقال - تعالى - في نفس السورة ايضا : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ
نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا
الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ
يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (الشورى/١٣) .

ويظهر ان الهدف من نزول هذه السورة المباركة تنظيم العلاقة بين الناس ، وتحديد
أطر هذه العلاقة حسب النظرة التوحيدية حيث يقول - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ، وهم الذين يظهر
الولاء والتأييد لاشخاصهم وذواتهم ، فهؤلاء مردود عليهم ولاؤهم ، ولا يقبل الله منهم
شيئا .

وفي سياق آخر من سورة الشورى يقول - تعالى - : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا
وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ، فنفس المفاهيم والقيم التي أوصى الله - سبحانه -
بها نوحا (عليه السلام) أوصى بها ايضا محمد (صلى الله عليه وآله) ، فدين الله واحد
لا يتأثر بالمتغيرات الزمانية والمكانية ، ولا علاقة له بالعنصر والدم واللون واللغة ،
فالصلاة واحدة والكعبة واحدة ، وكذلك الاحكام والتشريعات ، فالوصايا والتشريعات

التي نزلت على نوح والأنبياء الآخرين (عليه السلام) من اولي العزم هي ذاتها التي نزلت على نبينا خاتم الانبياء والرسول (صلى الله عليه وآله) ، وامتدت عبره الى الائمة (عليه السلام) ثم بلغت فقهاءنا ومراجعنا اليوم ، فالدين واحد لا اختلاف ولا تفريق فيه .

ثم يأتي السياق ليعكس موقف المشركين من الدعوة الى الله فيقول - تعالى - : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ، وهذا القول المبارك يعزز حقيقة ان التفرق هو ضرب من ضروب الشرك ، فينبغي الحذر منه ، والتمسك بالله وحده .

ان مشكلتنا الرئيسية اليوم هي تفرقنا وتمزق صفوفنا ، ومن هذه التفرقة تتفرع سائر مشاكلنا وويلاتنا ، وعدم علاج هذه المشكلة يعني بقاء واستفحال المعضلات الاخرى التي نعيشها ، ونحن ندعو في هذه المرحلة التي نمر بها الى تكاتف كل الايدي ، وبذل كل الطاقات والتوجهات في مسيرة واحدة ، وليعمل كل منا ضمن استراتيجية عامة موحدة تشمل الجميع ، وتنتهي الى تحرير بلادنا الاسلامية وتكريس كلمة الحق والعدل والحرية باذن الله - تعالى - .



الاستكبار افراز الشرك بالله

ان القرآن الكريم هو جملة من المواعظ تتلخص في كلمة واحدة هي (لا اله الا الله) ، وهذه الكلمة تتسع لتدخل في كل جزء من اجزاء هذا العالم ، وفي كل حقل من حقول الحياة ، ولتخلق في كل مجال من مجالاتها حكمة وتشريعا .
والآيات التالية هي الآيات الاخيرة من سورة القصص ، وهي تحدثنا عن حقل من حقول تطبيق تلك الكلمة الالهية ؛ اي كلمة التوحيد ، فلنقرأ هذه الآيات معا :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

ءَاخَرًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾
(الْقَصَصُ/٨٥-٨٨)

الصراع بين المستضعفين والمستكبرين :

القرآن الحكيم هنا يحدثنا عن الصراع الذي ينشب عادة بين المستضعفين والمستكبرين ، وهذا الصراع لا يتم بشكل واحد بل يتجسد في كل فترة من فترات التاريخ بصورة تختلف في ظاهرها عن الصور الاخرى ، ولكنها تعود بالتالي الى ذلك الصراع الابدى بين الخير والشر ، وبين كلمة التوحيد والخضوع لضغط الشرك .

ان الصراع قد يكون بين مجموعة عرقية مستكبرة وبين اكثرية عرقية مستضعفة او بين مجموعة عرقية اخرى مستضعفة ، وقد يكون بين مجموعة تشكلت في صورة تكتل اقتصادي يستضعف الاكثرية المسحوقة ، وقد يكون بصورة قوم يستضعفون قوما آخرين ، او بلد يستضعف بلدا آخر ، وقد يتجسد في عشيرة تستضعف أمة ، او شخص واحد يستضعف مجتمعه .

الغفلة جوهر الصراع :

وهكذا فان الصور مختلفة ولكن الجوهر واحد وهو غفلة المستكبر عن ان القدرة النهائية المطلقة ، والقضاء الحاسم في هذا الكون انما هما لله رب العالمين ، وان ليس لأي من الطغاة من قدرة خارج إطار القدرة الالهية ، والهيمنة الربانية على هذا الكون .

ان الغفلة من جهة المستكبر ، والغفلة من جهة المستضعف هما اللذان يساهمان في خلق حالة الاستضعاف والاستكبار ، فأولئك الذين نسوا الله - عز وجل - فأنساهم انفسهم ، وأولئك المستضعفون الذين لم يعرفوا ان في الحياة مراغم كثيرة

واسعة باستطاعتهم ان يهاجروا اليها ، ويجسدوا مجتمع الحرية في أي ارض تحملهم
وفي أي بلد يسكنونه ، هؤلاء هم الذين يستضعفون من قبل المستكبرين .
ومثل هؤلاء يخاطبهم رب العزة قائلا : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا
فِيهَا ﴾ (النساء/ ٩٧) ، فلماذا استضعفتم ، ولماذا لم تهاجروا في حين أن أبسط
وسائل الدفاع عن النفس هي الهجرة ، وفضل البلاد ما حملتك ، وخير الناس من
استضافوك ، فتسمرّك في ارضك ، وعبادتك لها هما اللذان يجعلانك مستغلا
ومستضعفا وغافلا عن قدرة هائلة تمتلكها الا وهي قدرة التوكل على الله - سبحانه
وتعالى - .

التوكل امضى سلاح :

ان الانسان اذا امتلك سلاح التوكل على الله فانه سيمتلك كل شيء ، لان الخالق
قد اودع في ذاته آفاقا رحبية واسعة يستطيع ان يتوغل فيها ، ويفجر طاقاته الهائلة
من خلالها ، اما اذا غفل عن هذا السلاح فانه سوف يكون عرضة للاستضعاف
والظلم ، ولذلك نجد القرآن الكريم يركز على هذه الغفلة وتلك ، فمرة يخاطب
- تعالى - موسى وأخاه قائلا لهما : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ
قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه/ ٤٣-٤٤) ، فما كان منهما (عليه السلام) الا
ان أتيا الى قصر فرعون معلنين له انه ليس بإله ، محاولين من خلال ذلك ان يغيروا
مسار الحياة من خلال تغيير هذا الانسان الفاسد المفسد المستكبر فهو - مهما يكن
من شيء - بشر يحب الله - تعالى - يحكم لطفه ورحمته ان يكون من اهل الجنة .

الاستضعاف نوع من الشرك :

ومع ذلك فان خطاب الله موجه بالدرجة الاولى الى المستضعفين ، والملاحظ ان
القرآن الكريم يخاطب الذين يستضعفون ويخضعون للآخرين من دون تفكير

يخاطبهم بانهم مشركون الى درجة اننا اذا قرأنا في القرآن حديثا عن الشرك فعلينا ان نطبقه على واقعنا ، وعلى واقع المجتمع الانساني الذي نعيش فيه ، فهناك آلاف الملايين من البشر فوق هذا الكوكب يدعون انهم يعبدون الله في حين ان الانظمة والشبكات الاستكبارية والفسق والظلم المتزايد كل ذلك هو المسيطر عليهم ، والا فلماذا هذا الرعب والخوف من الاسلحة ، ولماذا هذه الترسانات المليئة بالاسلحة المدمرة ؟

ان هناك الملايين من البشر لا يعبدون الله الا وهم مشركون به ، وخاضعون لسلطان المائدة ولاستكبار الاقتصاد ، فالنظام الحاكم لهذا العالم هو نظام رأسمالي يستخدم خيرة العقول التي تعمل على تحطيم البشرية .
ان هذا النظام انما هو قائم بسبب الشرك ، واول عمل لابد ان يقوم به المسلمون اينما كانوا ان يخرجوا من إطار هيمنة الاستكبار من خلال اطروحة جديدة يحاولون عبرها تحطيم هذه الهيمنة .

لابد للشعوب من تحطيم الاصنام :

ان الشعوب المسلمة في الارض لابد ان تقول كلمتها ، وان تعلن بصراحة وجراحة انها لاتعبد هذه الاصنام ، فالاصنام مرفوضة في الاسلام جملة وتفصيلا ، وهذا لايعني محاربة النظام من داخله بل محاربته من خارجه ، او بتعبير آخر ؛ محاربة النظام ككل ، ومحاولة تطهير الارض من رجس الكفر والشرك ، وعدم التعاون معهما بأي حال من الاحوال كما يشير الى ذلك قوله - تعالى - في نهاية سورة القصص : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ (القصص/ ٨٦)

وقوله : ﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (القصص/ ٨٧)

فلا بد من ان تقاوم الشرك كله .
وبكلمة ؛ ان القضية الاساسية هي قضية الشرك والايمان ، ونحن اذا خضعنا
لمعادلة الشرك فان الاقليات سواء كانت عرقية أم اقتصادية وما الى ذلك سوف
تأتي لتسيطر على العالم - كما هو الحال الآن - ، وتكون هناك مشاكل الشمال
والجنوب ، ومشاكل التكنولوجيا والهوة الشاسعة بين البلدان المتقدمة والبلدان
المتخلفة ، ومشاكل الازمات والانهيارات الاقتصادية في العالم .
من هنا لابد ان يتحد المسلمون ، وان يبذلوا قصارا جهودهم ، وان يعملوا معا من
أجل محاربة الشبكة الاستكبارية المهيمنة على العالم ، شبكة الشيطان ، والفسق ،
والفجور ، والرذيلة ، والتكبر على الخالق - عز وجل - ، والشرك به .
ومثل هذا الاتحاد لا يمكن الا بالاعتماد على الله - سبحانه وتعالى - ، والتوكل
عليه ، والثقة بنصره ، واخلاص العبادة له ، وتوحيد المساعي والجهود تحت رايته ،
والاعتصام بحبله المتين .



الشرك مصدر التبرير

الانسان مسؤول ، وهذه هي ابرز سماته سواء شاءت الفلسفات المادية أم ابت ، ولكن الصفة السلبية التي تحول بين الانسان وبين ادائه لمسؤولياته هي صفة (التبرير) او تسويلات النفس الامارة بالسوء .

ولو استطاع الانسان ان يقضي على حجاب التبرير وان يتحمل مسؤولياته ، لتمكن من ان يؤدي الامانة التي حُمِّل اياها ، هذه الامانة التي اشفقت السماوات والارض والجبال من حملها .

وهناك البعض ممن يبرر عدم تحمله لمسؤولياته بانه عاجز عن تحملها ، والبعض الآخر يبرر ذلك بصغر المسؤولية والاستهانة بها ، وفي هذا المجال تروى قصة طريفة تقول ان رجلا قيل له ان الفساد قد انتشر في البلد فقال : سحابة صيف سوف

تنقشع عما قريب ، فلما قيل له ان الفساد قد انتشر فعلا ، وانه قد استحكم في البلد قال مبررا عدم قدرته على ازالة هذا الفساد : اتسع الخرق على الراقع .

ان الحقيقة واحدة سواء كان الأمر سحابة صيف-تنقشع عن قريب ، او كان خرقا اتسع على الراقع ، وهذه الحقيقة هي التبرير ؛ فأنت كثيرا ماتدعوا انسانا آخر الى عمل ما فيقول لك انه عاجز عن القيام به ، وبمجرد ان يثبت له انه قادر عليه يقول لك : انا فوق مستوى هذا العمل ، فاذا به يستكبر على العمل الصالح ويستصغره .

ونحن معرضون الى هذا النوع من التبرير ، بل اننا متوغلون فيه وهو محيط بنا ، وعلينا ان نخرق هذا الحصار ، ونقاوم هذه الحلقة التي تلتف على انفسنا ولا تدعنا ندرك الاشياء على حقيقتها ، وننتقل في مجالات العمل الرحبة ، ولكن للأسف فان الكثير منا منهمك في هذه التبريرات دون ان يشعر .

مسؤولية الانبياء الكبرى :

ترى كيف نستطيع اسقاط قناع التبرير المزيف ، وكيف نتخلص من هذه الحالة المرضية ؟

قبل ان اجيب على هذا التساؤل ، أمهد له بمقدمة ضرورية وهي ان من مسؤوليات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - عبر التاريخ ، ومن أعظم ألوان جهادهم هو الجهاد ضد الاصنام ، فالأنبياء جميعا - حسب ما اكتشفت من تفسير الآيات القرآنية - قد عارضوا وقاوموا مشكلة وآفة (الصنمية) لدى الانسان ، حتى الأنبياء الذين بعثوا الى المؤمنين بالديانات السابقة ، وعلى سبيل المثال فان النبي موسى (عليه السلام) بعد ان انقذ قومه من ظلم فرعون ، وبعد ان عبر بهم البحر ، طلبوا منه ان يجعل لهم آلهة كما للمصريين آلهة ، وبالفعل فقد اختاروا لانفسهم صنما صنعه لهم السامري وعبدوه من دون الله - تعالى - ، فما كان من موسى (عليه السلام) الا ان أنهال عليهم باللوم والتقريع وأمرهم بوحي من الله ان يقتل بعضهم بعضا تكفيرا عن هذه الخطيئة الكبيرة

والرجس العظيم .

والنبي (صلى الله عليه وآله) كانت مسؤوليته الاولى محاربة الاصنام وتحطيمها ،
وتطهير مكة المكرمة من رجسها .

ترى لماذا كان اول واجبات الأنبياء ومسؤولياتهم وأهم لون من ألوان جهادهم
هو الجهاد ضد الاصنام ، وماذا كانت تعني هذه الاصنام ؟
ان كل صنم كان يعبد من دون الله كان هنالك صنم آخر يوازيه في نفوس البشر ،
ومن خلال اسقاط كل صنم خارجي كانت تسقط في الداخل اصنام نفسية ، وبعبارة
اخرى ؛ فان القلوب التي أشربت حب الاصنام لم يكن بمستطاعها ان تعبد الله عبادة
خالصة وهي مدنسة برجس عبادة الاصنام .

التبرير نتاج الصنمية :

ان عبادة الاصنام تعني بالنسبة الى المشركين المزيد من التبرير ، لانهم كانوا
يقدمون الذبائح والقرايين الى هذه الآلهة المزيفة ، ويمارسون كل انواع الفساد
معتقدين ان هذه الاصنام سوف تنجيهم من نار جهنم ، فكان الواحد منهم يقوم بظلم
الآخرين ، وارتكاب الجرائم ضدهم ثم يأتي ويخضع لقطعة من الحجر معتقدا ان
عمله هذا سوف يؤدي الى غفران ذنوبه تلك .

ترى كيف يمكن إشاعة العدالة في المجتمع في حين ان الاصنام منتشرة فيه وفي
نفوس افراده ؟

ان تلك التبريرات التي اختلقت على اساس الصنمية كانت تسقط بازائها مجموعة
من القيم لتحل محلها مجموعة تبريرات نفسية ، والمشكلة ان هذه التبريرات كانت
- حسب الظاهر - تمتلك الشرعية الاجتماعية والثقافية .

ان مقاومة الصنم هي مقاومة التبرير ، والثقافة المنحرفة ، والضلالة المشروعة
اجتماعيا ، وفي هذا المجال يروى ان قوما من المشركين جاؤوا الى رسول الله

(صلى الله عليه وآله) وأبدوا له استعدادهم للدخول في الاسلام شريطة ان يدعمهم يعبدون صنما من الاصنام ، فما كان منه (صلى الله عليه وآله) الا ان رفض هذا العرض بشكل قاطع ، وكلفه هذا حربا طويلة ، وحصارا للمدينة من قبل أهل الطائف حتى استطاع أخيرا ان يخضعهم للاسلام ، فلم يكن من الممكن ان يعبد هؤلاء الاصنام ثم يجاهدوا في سبيل الله - سبحانه وتعالى - لان الجهاد يعني الشهادة والتضحية .

سر حضارة الاسلام :

ان اسقاط الاصنام في الجزيرة العربية هو الذي مكن اهلها من التحول من أمة خاملة مشتتة متناحرة الى مجتمع متحضر قادر على حمل الرسالة الى الآفاق ، لان الاصنام سقطت لتسقط معها اساطيرها وخرافاتها وتبريراتها .

وهكذا فاذا كانت الاصنام موجودة في مجتمع من المجتمعات فاننا لانستطيع ان نحارب التبريرات فيه ، لان هذه الاصنام تعطي لهذه التبريرات شرعية ، وقيمة اجتماعية وثقافية .

وبناء على ذلك فان أعظم إنجاز قام به الأنبياء (عليه السلام) هو مبادرتهم الى انقاذ البشرية من الاصنام ، وتخليصها من سلسلة متكاملة ومتداخلة من الخرافات والاساطير والافكار المتخلفة المضادة للحضارة والتقدم والعطاء .

رواسب الصنمية مازالت قائمة :

وللأسف الشديد فان رواسب الاصنام ما تزال موجودة في النفوس ، وعلى سبيل المثال فان بني اسرائيل بعد ان كفوا عن عبادة العجل بدؤوا باختلاق الاعذار والتبريرات عندما أمرهم موسى (عليه السلام) بأن يذبحوا بقرة ، فأخذوا يطرحون الاستفسارات التي لا مبرر لها من مثل سؤالهم عن لون البقرة ونوعها وما الى ذلك من تبريرات تافهة لا اساس لها ، وكادوا ان لا ينفذوا الأمر الالهي بذبح البقرة لولا ان

موسى (عليه السلام) أصر عليهم في ان يذبحوها .

ومن خلال تساؤلاتهم تلك كانوا يكشفون عن حالة نفسية هي حالة الالتفاف على القرار ، ومحاولة التملص من تنفيذ الأوامر من خلال مناقشتها ، فهناك الكثير من الناس عندما تأمرهم بشيء تبدأ عندهم المناقشات التي لا تنتهي ، ذلك لان الانسان يمتلك القدرة على الكذب والتهرب من المسؤولية .

ولقد كان اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) يمثلون القدوات العليا في الامتثال للأوامر والمبادرة الى تنفيذها دون مناقشة ودون اختلاق للاعذار والتبريرات ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يتلو عليهم نصف الآية التي تنزل عليه ، وما ان يتناهى الى اسماعهم الأمر الذي تتضمنه هذه الآية حتى يقوموا لينطلقوا الى العمل والجهاد ، ثم يعودون ليستمعوا الى النصف الثاني من الآية ، وهكذا فقد كانوا لا ينتظرون نهاية الآية لان اصنام التبرير في انفسهم قد تساقطت الواحد تلو الآخر ، ولانهم آمنوا بكلمة (لا اله الا الله) فلا تبرير ولا خضوع ولا تسليم الا لله - سبحانه وتعالى - .

واذا ما وجدنا انفسنا ما تزال في حالة اختلاق التبريرات فلا بد ان نعلم ان رواسب الصنمية ما تزال موجودة في اعماق انفسنا .

القرآن يعالج ظاهرة التبرير :

والآيات التالية من سورة الاعراف تتحدث عن الانسان وما يعتريه من حالات مختلفة من التبريرات والتسويلات والوساوس الشيطانية ، حيث يقول ربنا - عز وجل - : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سِغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ
كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨-١٧٤﴾ (الاعراف)
ان هذه الآيات المباركات تحدثنا عن عالم الذر الذي أسقط فيه الله - تعالى -
عن الانسان حججه التبريرية ، وأثبت له حاكميته وقدرته وإلهيته لكي يسلب منه
التبريرات عندما يدخل عالم الدنيا .

ان القرآن الكريم يقول - والحديث يدور حول بني اسرائيل - ان جيلا قد ظهر بعد
الجيل الاول من بني اسرائيل وهو جيل التبرير والتسويلات : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ فلقد ورث هذا الجيل الكتاب بما يحمل من نور وبصائر وشعلة
تحرق التبريرات ، ولكن هذا الجيل لم ينتفع بنور هذا الكتاب ، فاذا بهم ﴿ يَأْخُذُونَ
عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهذا هو اول تبرير اختلقوه ..

ذنب لاغفران له :

ان الله - جل وعلا - يغفر بعض الذنوب ولكن هناك ذنوبا لا يغفرها ، فما هي تلك
الذنوب التي لا يغفرها ؟

من ضمن تلك الذنوب الذنب الذي يستصغره ويستهيئ به صاحبه ، ويسوف التوبة
منه كأن يغتاب أخاه المؤمن ثم يقول بعد ذلك " لاجعلها الله غيبة عليه !! وكأن هذه
العبرة ستظهره من هذا الذنب ، او أن يكذب كذبة ثم يصفها بعد ذلك قائلا انها كذبة

بيضاء في حين ان الكذب كلمه أسود او ان يحتقر الانسان الآخرين وهو لا يعلم انه في الحقيقة يحتقر نفسه كما قال - تعالى - : ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ (الحجرات/ ١١) فلماذا احتقار الآخرين ؟ ان الذي يحتقر انسانا مؤمنا فانما يحتقر نفسه ، ومن يستهزئ به فانما يستهزئ بقيمه ، فالمؤمن هو مؤمن سواء كان من لونك أم من لون آخر ، وسواء كان من وطنك أم من وطن آخر ، وسواء كان غنيا او فقيرا . وهكذا تنشأ الخطايا الكبيرة من الذنوب الصغيرة التي نستهيئ بها ، واذا ما اردت ان تكون مثالا للعبد الصالح المطيع لربه فعليك ان لا تتحدى سلطان ربك ، ولا تفتر بنفسك فتذنب وتقول سيغفر لي ربي ، فمن يقول انه سيغفر لك ؟ وقد اشار - تعالى - الى هذا التبرير في قوله على لسان الاشخاص الذين يحملون الثقافة التبريرية : ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ، وهذا هو التبرير الاول الذي تصدر منه سائر التبريرات .

ومثل هؤلاء يدورون مع الدنيا حيثما دارت ، ويبررون ممارساتهم المغلوطة ببعض التبريرات الواهية ، والقرآن الكريم يخاطبهم قائلا : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ ، فلماذا يجعلون افكارهم الباطلة هي المقياس ، ولا يتخذون من القرآن ميزانا بينهم وبين اعمالهم ؟ ان المشكلة الرئيسية التي يعاني منها الانسان هي حب الدنيا ، واذا ما اراد ان يتخلص من مرض التبرير فما عليه الا ان يقتلع هذا الحب من نفسه ، وسيرى كيف ان التبريرات ستساقط الواحدة تلو الاخرى ، لان حب الدنيا رأس كل خطيئة كما جاء في الحديث الشريف .

ان الاناس التبريريين يتصورون ان الله - تبارك وتعالى - سيغفر لهم لأنهم يريدون عرض الادنى ، اما اذا ارادوا الدار الآخرة فانهم سوف يكفون عن هذه التبريرات ،

والله - سبحانه وتعالى - يخاطبهم قائلا : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، لماذا لا تنتفعون من عقولكم هذه الموهبة التي منحها الله - تعالى - للانسان ؟
ثم يستأنف السياق الكريم قائلا : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ وهذا يعني ان على الانسان المسلم ان يتمسك بالكتاب بقوة كما قال - تعالى - مخاطبا نبيه الكريم يحيى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ (مريم/ ١٢) ، وكلمة المصلحين هنا تأتي في مقابل المفسدين .
فالتبرير هو الذي يفسد الانسان وعندما يفسد الانسان فانه يعمد الى إفساد الآخرين .

ويستمر السياق القرآني ليستعرض لنا تبريرات اخرى من تلك التبريرات التي كان بنو اسرائيل لا يكفون لحظة واحدة عن اختلاقها : ﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، وهذه هي معجزة اخرى انزلها الله - تعالى - على بني اسرائيل بسبب كثرة تبريراتهم ، وكثرة التفافهم حول القرارات الرسالية ، فقد تنق الله - سبحانه وتعالى - قطعة من الجبل ، وجعلها فوق رؤوسهم وكأنها سحابة سوداء ، ثم طلب منهم ان يأخذوا ما آتاهم بقوة ، وان لا يكونوا ضعفاء الايمان ، ولا يخلطوا التبريرات ، ولا يناقشوا القرارات الالهية .

ثم يعود القرآن الكريم ليبين تبرير الانسان على طول الخط فيقول - عز من قائل - : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ ، فمن الممكن ان يأتي يوم يبرر فيه الانسان اعماله ، ولذلك فقد القى الله - عز وجل - الحجة عليه .

وهكذا فان التبرير الاول الذي تعرضه علينا الآيات الكريمة السابقة هو الاعتقاد

الباطل للانسان المشرك بأن الله - سبحانه وتعالى - سيففر له رغم الذنوب التي يرتكبها ، والخطايا التي تصدر منه والتي يقف الشرك في مقدمتها ، اما التبرير الثاني فيتمثل في الغفلة ، هذه الغفلة التي لا يستطيع الانسان بأي حال من الاحوال ان يبررها عندما يمثل للحساب امام رب العالمين .

وللأسف فان الانسان لا يغفل عن الامور الدنيوية . الى درجة انك تراه حريصا على انجازها في اوقاتها ومهتما في التمهيد لها ، ولكنه في المقابل يغفل عادة عن اداء الواجبات التي فرضها الله - تعالى - عليه من مثل اداء الصلوات في اوقاتها وانجاز ما عليه من حقوق تجاه الآخرين والقيام بالاعمال الصالحة ، وهذه الحالة السلبية ناجمة بالدرجة الأولى من صفة التبرير السلبية المزروعة في نفس الانسان البعيد عن ذكر الله - سبحانه وتعالى - .

فلنحاول ان ننقذ انفسنا من هذه الحالة المرضية التي من الممكن ان تؤدي الى سوء العاقبة - والعياذ بالله - ، ولنسع من أجل ان ن فك انفسنا من قيود واغلال التبرير لكي نستطيع ان نضمن سعادتنا في الدنيا والآخرة .



الفصل الخامس

الشرك هروب من المسؤولية

كثيرة هي الصفات التي أمرنا بالتحلي بها ، وكثيرة هي المسؤوليات التي القيت على كواهلنا ، وكثيرة هي الصفات الرذيلة التي نهينا عنها وأمرنا ان نتجنبها ، ولكن الحسنات تجمعها كلمة واحدة ، والسيئات - هي الاخرى - تجتمع في كلمة واحدة .

ولو ان الانسان عرف هاتين الكلمتين اللتين تجمع واحدة منهما الحسنات والاخرى السيئات ، ولو عرف كيف يتعامل مع محتواهما لاستطاع ان يشق الطريق نحو الرقي والسعادة والفلاح في الدنيا والاخرة .

ان اولئك الذين تجدهم لا يستطيعون ان يكتملوا ويعرجوا بانفسهم في مدارج الكمال ، فان السبب في ذلك يعود الى انهم لا يعرفون اين مفتاح السعادة ، ويجهلون

كلمة السر للدخول في رحاب الفلاح .

ان كلمة الحسنات تتلخص في التوحيد ، وكلمة السيئات تختزل في الشرك بالله - سبحانه وتعالى - ، ونحن عندما نتدبر في آيات الذكر الحكيم نجد ان الله يأمرنا بالتوحيد كلما أمرنا بحسنة ، وينهانا عن الشرك كلما نهانا عن رذيلة ، وحديث القرآن لا يخرج عن هذا الاطار ؛ اطار التوحيد وعبادة الله .

وفي مجموعة من الآيات في سورة الاسراء التي تحدثنا بدورها عن مسؤولية الانسان امام نفسه وامام الله - عز وجل - وامام التاريخ ، يأمرنا الخالق ان تكون عيوننا واسماعنا وافئدتنا تحت الرقابة المستمرة ، لانها مسؤولية امام الله - جل وعلا - ؛ فالعين مسؤولة ، والسمع مسؤول ، وكذلك الفؤاد ، ومن الافضل ان ننقل هذه الآيات الكريمة لكي يطلع القارئ عن كتب على هذه الوصايا الالهية : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا * أَفَأَصْنَأَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهًا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الاسراء/٣٦-٤٤) .

سنة حياتية :

والله - عز وجل - يأمرنا بالاضافة الى ذلك ان تكون مشيتنا في الحياة مشية

معتدلة بأن لانمشي في الارض مرحا ، ونؤمن ان هناك سننا في هذه الحياة تسيرنا وان علينا ان ننتبه اليها ، فالانسان في هذه الدنيا امامه شبكة معقدة من الطرق ، وعليه ان يختار الطريق المناسب ليسير فيه ، ورغم ان هذه الطرق معبدة الا ان هوامشها وحواشيتها محفوفة بالوديان .

وتعبير (المرح) في قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ يمكن ان يكون دالا على حالة اللأبالية والاستهزاء والاستهانة والاستخفاف بالناس ، صحيح ان الانسان حر ولكنه اذا اختار بحريته الانتحار فانه سينتهي ، واذا اختار بحريته هذه الوقوع في المهالك والشقاء فانه سينتهي ايضا .

ان المرّح هو ذلك الانسان الذي لا يبحث عن مسؤولية ولا يبحث عن الطريق القويم ، وهذا الانسان بعيد عن رحمة الله - عز وجل - .

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ؛ فهل رأيت الجبال الشاهقة ، وهل تستطيع ان تصل الى طولها ؟ فاذا كنت قصير القامة و اردت في اليوم التالي ان يكون ارتفاعك كارتفاع قمة الهمالايا مثلا ، فانك تطلب بذلك المستحيل فلقد جعل الله - تعالى - طول قامتك (١/٧٥) سم - مثلا - وانت لاتستطيع ان تتجاوز هذا الطول مطلقا .

وهكذا فان هناك سننا ، فكما انك لاتستطيع ان تتحكم في قامتك ، ولا قوتك ، وعمرك ، وكثير من انحاء حياتك بسبب وجود سنن عامة تتحكم فيك ، فانك لاتستطيع كذلك ان تمشي في الارض مرحا فتقول - مثلا - : مالي ولهذا القانون ، ومالي ولهذه الحكمة ... كلا انك لابد ان تنضبط وتخضع لسنن الله - عز وجل - اذا اردت السعادة .

وبعد ذلك يقول - تعالى - : ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ، وهذه هي الحكمة ،

ولكن السياق القرآني الكريم لا يلبث ان يحدثنا مباشرة عن مسألة الشرك فيقول
- عز من قائل - :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْحُورًا أَفَأَصْفَاكُمْ
رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ .

ترى ماهي العلاقة بين هذه الحكم وبين هذين النهيين القرآنيين اللذين يقول الله
في احدهما : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ، وفي الآخر : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ، وبين النهي عن اتخاذ شريك لله - جل وعلا - ؟
ان هناك ثلاثة فروق بين الشرك وبين الرذائل الاخرى :

الشرك وسيلة التبرير :

١- ان الانسان انما يشرك بالله - تعالى - مالم ينزل به سلطانا ، لثلا يبحث عن
تبرير لسلبياته ، والتخلص من واجباته ومسؤولياته ، والا فلماذا يبحث عن شريك ،
وهل سد الله - تعالى - امامنا ابواب رحمته ، ومنعنا فضله ؟ افلا يستجيب لدعائنا
عندما نضطر اليه ، وهل رأينا إلها أفضل وأوسع قدرة وأعظم سلطان منه ، وهل غير
عادة الامتنان علينا ؟

فلماذا يبحث الانسان دوما عن شريك لله ، وعن قوة اخرى يحتمي بها ؟ الجواب :
لانه يريد ان يتخلص من مسؤولياته ويبرر تقاعسه عن الواجبات ، فيقول في نفسه :
ان الله يأمرني بالصلاة وانا لا اريد ان أصلي ... وهكذا يمهد الشيطان امام الانسان
طرق التبرير ، فيقول له - على سبيل المثال - : ان اردت التخلص من الصلاة
فاجعل نفسك صوفيا ، ومن العجيب ان بعضا من الصوفيين عندما يسألون عن سبب
عدم إدائهم للصلاة ، فانهم يبادرون الى القول ان ركعتين صلاها الامام علي (عليه
السلام) تكفينا ، وتكفي كل البشرية !!

وقد يقول الشيطان للانسان : هل تريد ان تتخلص من الصوم ؟ فيهيء له بذلك جوابا جاهزا ، فاذا قيل له : لماذا لاتصوم ؟ قال : نحن في الدنيا مسافرون وليس على المسافر صيام ، وقد يقول له الشيطان ايضا : هل تريد ان تتخلص من مسؤوليات العدالة الاجتماعية ؟ ان أفضل طريقة لك ان تؤمن بنظرية القداء ؛ وهي ان عيسى قد قتل نفسه من أجلنا فغفرت كل ذنوبنا !!

وقد يوسوس الشيطان الرجيم للانسان قائلا : هل تريد ان تتخلص من مسؤوليات الحكم الاسلامي ؟ ان اردت ذلك فقل : " ما لله الله وما لقيصر لقيصر " .
ان مشكلة الانسان الرئيسية تتمثل في انه لا يريد ان يتحمل المسؤولية بسبب خطورتها واهميتها ؛ فالسماوات والجبال رفضتها ، والارضون أبت ان تتحملها ، وحملها الانسان لانه كان ظلوما جهولا فتورط بها ، فاذا به يريد ان يهرب منها .

الشرك يمنع العمل :

٢- لان الانسان يبحث عن طريقة للتخلص من مسؤولياته والفرار منها ، لذلك فانه يزعم ان في الكون آلهة سوى الله - سبحانه وتعالى - تمنعه عن عبادته ، فيقول مبررا لنفسه : ان أراد ربي ان يدخلني النار فان عيسى بن مريم سيأخذ بيدي الى الجنة ، او ان الملائكة ستدخلني الجنة

الشرك تنزِيل لمستوى الخالق :

٣- ان الانسان الذي يشرك بالله - عز وجل - ، يجد في هذا الشرك اسلوبا لتجسيم ربه ، وبالتالي انزاله حسب رأيه وزعمه من مستواه في علوه الى مستوى عادي فيقول ان الله - تعالى - مثلنا !

وهكذا فان الشرك بالله يجعل الانسان بعيدا عن مسؤولياته الحضارية ، ولذلك فان الله - عز وجل - كلما يأمرنا بحسنة يأمرنا في نفس الوقت بالتوحيد ، وكلما ينهانا

عن سيئة فانه ينهانا عن الشرك به .

واذا استطعت ان تغلق ابواب الشرك ، وتذكر انه لا احد ينقذك من نار جهنم الا بمشيئة الله ، ولا احد يشفع لك الا برضاه ، ولا احد يستطيع ان يغير موقعك الا اذا اراد الله ، وعرفت ان كل خير وكل نفع من عنده - سبحانه وتعالى - فحينئذ بإمكانك ان تربى نفسك على الفضائل ، لانك ستذكر آئذ ان لا فرار من المسؤولية .

التبرير الذهني ضلالة فكرية :

ان من ابرز ما يجعل الانسان يفر من مسؤولياته هو التبرير الذهني الذي هو في الواقع ضلالة فكرية ؛ فمن أجل ان يتهرب من الصلاة يقول : ان الصلاة انما هي صفاء القلب وعلاقته بالله وانا أمتلك هذه العلاقة ، فلماذا أصلي اذن ؟

ان مثل هذا التصور الخاطي قائم الآن بين المسلمين للأسف الشديد ، فهم يقولون اننا نصلي من أجل ان تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ونحن نعيش في الفحشاء والمنكر ، فلماذا نصلي وماهي جدوى صلاتنا ؟ ! وبالتالي فان هذا النمط من التفكير هو يأس وقنوط من رحمة الله - تعالى - ، وطريق لنفوذ الشيطان ، والابتعاد عن المسؤولية .

ان الانسان يبحث عادة عن مبرر للتملص من مسؤولياته ، ويحاول ان يهرب من مواجهة الحياة ، ولذلك يقول الله - عز وجل - :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْئُولًا ﴾ ، فالانسان في البدء ومن أجل الهروب من مسؤوليته يحاول ان يجعل لنفسه إلها وهو ليس بالاله الصحيح بل هو ند لله - جل وعلا - ، فيقول ان هذا الاله هو الذي يخلصني من المشاكل والازمات التي تلم بي .

وازاء هذا المنطق المغلوط يقول - تعالى - : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ اي حاول في البدء ان تتبع منهجية سليمة ، فالشيطان يلعب بمخ الانسان وعليه ان يطرد هذا الشيطان ، لانه اذا سيطر على قلب الانسان وجعل الشهوات تزين على قلبه

فحينئذ سوف لا يستطيع ان يتخلص منه ، فيبقى هو الذي يقوده في الحياة .

عندما يكون العذر اقبح من الذنب :

ترى هل نسي الواحد منا غذاءه ولو لمرة واحدة طيلة عمره ، وهل نسي قضية اخرى تهمة ؟ فلماذا - اذن - ننسى القضايا الدينية والأمور المرتبطة بمصير الأمة ولا ننسى القضايا الشخصية التي لاتمتلك أية اهمية ؟ ان هذا العذر اقبح من الذنب لان الانسان الذي ينسى ، ويبرر الكسل والتقاعد بالنسيان هذا الانسان سترسخ فيه صفة التبرير ، فيمضي عمرا كاملا دون ان يقدم أي عمل .

وهكذا الحال بالنسبة الى الانسان الذي يبرر عدم قيامه بواجباته بالخجل والحياء وخوف توجيه التهم اليه ولوم اللائمين ، فانه سيجعل نفسه أفضل من قيمه ومقدساته ، فليسبك الناس وليفتروا عليك وليوجهوا اليك التهم والافتراءات ، فقيمة الانسان المؤمن بقيمه لا بنفسه ، وحتى اذا ذل الانسان المؤمن نفسه في سبيل الله - تعالى - فان هذه الذلة تعتبر بالنسبة اليه عزة .

وهكذا فان علينا ان نخرج من اطار جميع التبريرات كالخجل والحياء والخوف من الفشل ... وان تقاوم الاساليب الشيطانية ، وان نقارن بين تبريراتنا وبين ما يجب ان نعمله ، والانسان الصديق هو الذي يستطيع ان يخضع عقله لمنهجية ايمانية سليمة ، ولكن اكثرنا لا يتبع هذه المنهجية للأسف ، فتراه يبرر وهو يعلم ان تبريره مغلوط في حين ان الاعتراف بالخطأ فضيلة ، وعلى العكس من ذلك فان الإصرار عليه يعد ذنبا عظيما ، وللأسف فان الغالبية العظمى منا يتعامل في حياته على اساس التستر على اخطائه .

التبرير حجاب دون الحقائق :

اننا اذا اسقطنا ومزقنا حجب التبرير فحينئذ ستستطيع اعيننا ان ترى الحقائق ، وقد

جاء في رواية عن الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) . قال : لا يخلد الله في النار الا أهل الكفر والجحود ، وأهل الضلال والشرك ، ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يسأل عن الصغائر ، قال الله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا ﴾ (النساء/ ٣١) قال : فقلت له : يا بن رسول الله فالشفاعة لمن تجب من المؤمنين ؟ فقال حدثني أبي عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : انما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي ، فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل ، قال ابن ابي عمير : فقلت له : يا بن رسول الله فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الانبياء/ ٢٨) ، ومن يركب الكبائر لا يكون مرتضى ؟ فقال : يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنبا الا ساعة ذلك وندم عليه ، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله) : كفى بالندم توبة ، وقال : من سرتة حسنة وساءته سيئة فهو مؤمن ، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالما ، والله تعالى يقول : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (غافر/ ١٨) ^(١)

وعلى هذا فان الذي لا يندم على ذنبه لا يعتبر الذنب ذنبا ، وقد كان علماؤنا (رضوان الله عليهم) يقولون ان الذي لا يصلي ولا ينكر وجوب الصلاة يعزّر ، والذي لا يصلي ويقول ان الصلاة غير واجبة فجزاؤه القتل لانه منكر لضرورة من ضرورات الدين ، وهو خارج عن اطار الاسلام .

ونحن عندما نجاهد في سبيل الله - تعالى - ، ونذنب الذنوب ثم نبرر تقصيرنا ببعض الحجج الواهية فان هذا التبرير هو الذي يخرجنا من اطار الجهاد ، فالانسان

(١) بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥١ رواية ١

المجاهد حقا لا يبرر ، بل يمتلك شجاعة انتقاد نفسه ، ومراجعة عيوبه واخطائه ، ومراقبة ما يبدر منه مراقبة دقيقة وشديدة ، ثم يقر بذنوبه واخطائه تلك ، ويستشعر في نفسه الندم عليه ، ويعزم بعد ذلك عزمًا حقيقياً على ان لا يعود الى ارتكاب تلك الاخطاء والذنوب ، ويجسد هذا العزم في واقعه وسلوكه وعلاقاته مع الآخرين .



الباب الخامس

في حصن الله

ولاية الله حصن المؤمن

ولاية الله - سبحانه وتعالى - هي حصن الانسان ؛ فمن دخل حصن هذه الولاية آمن من التخلف والتبعية ، ومن رفض دخوله فانه سوف يصبح عبدا للآخرين وللتقاليد البالية وبالتالي فانه سوف يتخلف في الحياة الدنيا .
وانها لنعمة كبرى من الله بها على الانسان عندما فتح له باب هذا الحصن ودعاه اليه ، وأمر اوليائه ان يدعوا الناس الى دخوله .

معطيات الولاية الالهية :

والنموذج التاريخي الرائع للدخول في حصن الولاية يتجسد في ابراهيم الخليل (عليه السلام) حيث استطاع هذا النبي العظيم ان يحقق الانجازات التالية من خلال دخوله في هذه الحصن :

١- وضع نقطة البداية للتأريخ كما يشير الى ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ (النحل/١٢٠) ، فقد ابتدأ التأريخ بابراهيم ، وجميع الانبياء والرسل الذي ظهروا بعده انما اتبعوا شريعته . فقد اوتي هذا النبي من عند الله - تبارك وتعالى - قوة استطاع بها ان يتحدى جبروت طاغوت زمانه نمرود الذي اتخذ من بابل في ارض العراق مقرا لنشر طغيانه وارهابه في ارجاء كثيرة من المعمورة آنذاك .

وقد كان هذا الطاغية يستعبد الناس ويقتلهم وينهب اموالهم ويعتدي على نسايتهم ولا يدع الناس يعيشون احرارا في حياتهم ويتمتعون بنعم الله ، وقد كان الناس يخشونه ويرهبونه ويخضعون له ، وقد اتخذ لهم اصناما وحملهم على ان يعبدوها ويقدسوها كرمز لقوته وسيطرته وجبروته .

وحينئذ أرسل الله - جل شأنه - ابراهيم نبيا ، وكان اول ما قام به هذا النبي انه دخل في حصن الله ، وسلم نفسه لولايته ، فالمقاتل الذي يريد ان يحارب عليه ان يقوم قبل كل شيء بحفر خندق ، يتترس فيه ثم يبدأ القتال ، وقد كان ابراهيم (عليه السلام) يريد ان يحارب قوة جبارة ، ورجلا أستعبد الناس وأستخفهم ، فما كان منه (عليه السلام) الا ان تترس بالولاية قائلا :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/٧٩)

ان هذه الكلمة الخالدة التي أطلقها ابراهيم (عليه السلام) منحته اولا قوة هي فوق كل قوة اخرى ، وتذوب أمامها قوة البحار والجبال والرياح والارض والبشر . فعندما هم الطاغية بالقائه في النار اللاهبة انتقاما منه لعدم خضوعه لسلطانه نزلت عليه الملائكة من مختلف الاصناف كل ملك كان يعرض على ابراهيم ان ينقذه من النار ، ولكنه (عليه السلام) كان ينظر الى كل واحد منهم بقلب واثق ونفس مطمئنة

مبيناً له انه لا يحتاج الا الى عون ومساعدة جبار السماوات والارض ، فقد كان يخاطبهم قائلاً : " علمه بحالي يغنيه عن سؤالي " .

ان هذه الكلمة الخالدة تعني ان الانسان الذي تمسك بحبل الولاية واعتصم بها ، وتترس في خندقها ، ودخل في حصنها ... هذا الانسان يتعالى ويتسامى على كل قوة عدا قوة الله - سبحانه وتعالى - .

لقد نظر ابراهيم (عليه السلام) الى الشمس بكل عظمتها وقوتها ، ولكنه عندما رأى العجز والنقصان يعتريانها خاطبها قائلاً : ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الانعام/٧٦) .

٢- لقد أعلن ابراهيم (عليه السلام) رفضه لعبادة الاصنام التي كانت رموزاً لمرحلة تاريخية معينة ، فقد كان السبب في عبادة الناس لها تقليدهم للآباء .

وهكذا فقد كانت الحياة جامدة متخلفة ، فما كان بمقدور الناس ان يروا المستقبل بل كانوا يعيشون الماضي دائماً ، فاصنامهم وعقولهم المتحجرة على تلك الاصنام لم تكن تدعهم يطورون حياتهم ، ولذلك فقد كانوا متوغلين في التخلف راسفين في اغلال الجمود والتقوقع ، وقد كانت هذه الاوضاع سبباً من الاسباب التي حدت بابراهيم وبأمر من الله - تعالى - الى ان يقاوم نهج عبادة الاصنام .

وعندما حطم ابراهيم (عليه السلام) الاصنام فانه استطاع ان يحطم الجمود والأغلال والأصر ، ثم انطلق من بابل وتوجه الى مصر ومنها الى فلسطين ومكة ليبنى حضارة عظيمة مازالت آثارها ماثلة أمامنا ، ونحن مدينون لها في كثير من جوانبها ؛ فالحضارة التي نعيشها الآن هي وليدة الجهود التي بذلها ابراهيم الخليل (عليه السلام) .

٣- ان ولاية الله - عز وجل - تمنع وتحول دون ولاية الشيطان ، فالانسان أمامه طريقان لا ثالث لهما ؛ فاما ان يدخل في ولاية الله - عز وجل - ، واما ان يدخل في ولاية الشيطان ، فهو لابد له من مأوى ومن كهف ، فاما ان يدخل في كهف الله ،

واما ان يدخل في كهف الشيطان ، ومن لا يدخل في ولاية الله لا بد ان يدخل في ولاية الشيطان ، ولقد أوتي الشيطان القدرة على السيطرة على الانسان لانه ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الاعراف/ ٢٧) - كما يقول القرآن الكريم - فهو عدو خفي ، ويتمتع بتجارب أكثر من تجاربنا ، فله تجارب مع أيينا آدم ومع جميع الانبياء لان نفسه سولت له - دون جدوى - ان يخدع الانبياء (عليه السلام) .
واذا كان الأمر كذلك فكيف نستطيع ان نتخلص من مكر الشيطان وأساليبه الخبيثة ؟ .

الجواب : ان الشيطان ليس له سلطان الا على من تولاه ، اما الذين يتولون الله - عز وجل - فان الشيطان لا يستطيع ان يسيطر عليهم ، وعلى هذا الاساس فان هناك ولاية تسمى بـ (ولاية الله) لا بد ان ندخلها .

اما كيف يستطيع الشيطان ان يتولانا ويدخلنا في مطباته لتوضيح ذلك نضرب المثال التالي : ان شهوة الجنس هي شهوة قوية ، والشيطان يستغل هذه الثغرة في النفس الانسانية على خطوات ليدخلها في هذا المطب ، ولذلك فان القرآن الكريم يحذرنا قائلا : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (البقرة/ ١٦٨) ، فهو في اليوم الاول لا يدعوك الى الزنا بشكل مباشر بل الى النظر المحرم ثم الى الالتقاء في مكان خفي بعيد عن الانظار ، ولذلك يقول الحديث الشريف : " ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما " .

وهكذا فان الشيطان يستدرج الانسان شيئا فشيئا حتى يسقط في مستنقع الجريمة ، اما الانسان المؤمن فانه عندما يدخل في ولاية الله - جل وعلا - فانه سيمنع بذلك الشيطان من ان ينفذ في قلبه ويستولي على نفسه لانه لا يستطيع ان يدخل معه في حصن الله - تعالى - لانه رجيم ، مطرود من الرحمة الالهية .

والمؤمن اذا اصابه طائف من الشيطان فانه يتذكر الله مباشرة ويستعيز به فما يكون من الشيطان الا ان ينهزم من أمامه ، اما الانسان المنافق والكافر والفاسق والغافل

فانه سيقع فريسة الوسائس الشيطانية لانه لم يدخل في ولاية الله .

أصل الولاية :

ان أصل الولاية ان يقول الانسان : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الاعراف/١٩٦) ، ولقد كانت الكلمة الاولى التي أطلقها ابراهيم (عليه السلام) في هذا المجال قوله : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الانعام/٧٩)

وهنا اود ان اتوقف عند عبارة ﴿ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وفي البداية علينا ان نقول ان (فطر) تعني : شق ، فاذا رأينا شقا في الجدار أطلقنا عليه اسم (فطر) ، واذا رأينا شيئا انقسم الى قسمين قلنا انه (انفطر) ، وبناء على ذلك فماذا تعني عبارة (فطر السماوات والارض) ؟

ان هذا الكون الذي نعيش فيه لا حدود ولا نهاية له ، فاذا ركب الواحد منا طائرة ليدور حول الارض فانه يحتاج الى ايام للقيام بهذه المهمة ، وهذه الارض لو القيت في وسط الشمس فانها تصبح كحصاة في صحراء ، وهناك شمس أخرى اكبر من شمسنا بملايين المرات تسمى بـ (النجوم العملاقة) ، على ان هذه الشمس تقع ضمن مجموعة واحدة يطلق عليها اسم (المجرة) ، ويوجد الملايين من هذه المجرات منتشرة في ارجاء الكون اللامتناهي ...

تري اين نحن من هذه الآيات الباهرة ، والعجائب التي لاحصر لها ؟
اننا نفتخر بأنفسنا ونجعل الغرور يستولي علينا ، في حين ان علينا ان نضحك على هذه العقلية السخيفة التي تجسدت في طغاة كثيرين عبر التاريخ مثل فرعون الذي أمر هامان قائلا :

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى

وَأَنِّي لِأُظَنُّ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ (الْقَصَص/٣٨) ، والذي أمر قومه بعبادته عندما أَدعى الربوبية قائلا : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (النَّازِعَات/٢٤) .

وفي الحقيقة فان كل انسان يضرر في نفسه مثل هذه الكلمات ولكنه لايقولها الا اذا اجتمعت الظروف المساعدة على ظهور تكبره وطغيانه .
واليوم فان الدول الاستكبارية قد تكبرت وطغت بعد ان ظهرت الظروف التي دفعتها الى هذا التكبر والطغيان ، ونحن يجب علينا ان نواجه ونقاوم هذه القوى المستكبرة كما فعل ذلك من قبل ابراهيم (عليه السلام) لاننا دخلنا في حصن الولاية .

ونحن نستطيع من خلال التمسك بالولاية الالهية ، والتوجه الى الله - تعالى - مقاومة كل القوى الاستكبارية في الارض مهما كانت طاغية ومتجبرة ، لانها قوى شيطانية وان كيد الشيطان كان ضعيفا ، وذلك من خلال الخطوتين التاليتين :

١- عندما نتمسك بالولاية فاننا سوف نغير أساليبنا ، ففي هذه الحالة سوف لايبقى أسلوبا مقدسا ، فلا صنم يعبد من دون الله - عز وجل - ولا اسم يعبد من دونه ، وكل شيء يصبح خاضعا للتغيير حسب إرادة الله المطلقة .

٢- عندما ندخل في حصن الولاية الالهية فان قوى الشر سوف لاتستطيع ان تؤثر فينا ؛ اي ان الصفات الاخلاقية السلبية من مثل العداوات والغيبة، والتهمة والكذب والنميمة والانانيات والعنصريات ... كل ذلك سوف ينمحي ويزول من سلوكنا وتعاملنا مع بعض ، وهذا هو الشرط المهم والرئيسي للانتصار . فعندما يتكون مجتمع لا وجود لتلك الصفات السلبية فيه ، وتسوده روح التعاون والتلاحم والانسجام ، وعندما يكون قلبا واحدا ويحمل ايمانا راسخا وهمة عالية وإرادة صلبة وعزما لايلين على المقاومة والتضحية والنداء ، فان مثل هذا المجتمع سوف ينتصر لامحالة ، وبدون أدنى شك ، لانه قد وفر في نفسه وحقق شروط الانتصار التي تقف الوحدة في مقدمتها ، ولانه قد دخل في اطار ولاية الله - سبحانه وتعالى - .

ولاية الله عمل لا كلام :

وعلينا ان نضع نصب أعيننا في هذا المجال ، ونذكر دوما ان ولاية الله - تقدست
اسماؤه - ليست مجرد كلمة يردها اللسان وشعارات تطلقها الحناجر وكلمات
للاستهلاك الاعلامي بل هي منهاج وشريعة وطريقة سليمة علينا ان نتخذها طريقا
واسلوبا لنا في حياتنا في جميع اصعدتها ومجالاتها سواء كانت اجتماعية ام سياسية
وجهادية .

ومن هنا فاننا يجب ان نتمسك بحبل الولاية ، ونستمد من هذا الحبل القوة والقدرة
على مواجهة المشاكل والصعاب



تحكيم ولاية الله في التفكير والعمل

ان تحكيم ولاية الله في ثقافة الانسان ضرورة ايمانية ينبغي على كل مسلم ان يرتفع الى مستواها وبالذات اولئك الذين يتسمنون مركز القيادة الثقافية والفكرية في المجتمع مثل العلماء والمفكرين .

وقد يزعم الانسان انه يستطيع ان يكون حر الفكر دون ان تكون هناك ضوابط ومقاييس معينة تحدده ، في حين ان هذا الزعم يعتبر اساس الكفر بالله والجحود به فلا يمكن للانسان ان يكون حرا الا اذا كان فكره منطلقا من الايمان بالله - تعالى - فالنفس التي استعبدها الشهوات ، والقلب الذي سيطرت عليه الضغوط ، والارادة التي خابت امام التحديات لايمكن ان ينبعث منها فكر حر . وهكذا فان العبودية لايمكن ان تنتج الحرية ، وان الذين يدعون حرية الفكر بعيدا عن

الاعتقاد بالله انما يكذبون على انفسهم وعلى الاخرين ويرتكبون خطأ جسيماً ، فليس من المعقول ان تستطيع الحرية الفكرية تحدي ولاية الله ، لان هذه الولاية تعني تحرير الانسان من ريقه الشهوات ، وعبودية الضغوط ، وبالتالي تحرير من ولاية الآلهة المزيفة وتسليمه الى رب العالمين ، وهذه هي اسمى حرية يطمح الانسان للوصول اليها .

واذا كان الأمر كذلك فينبغي ان يكون الفكر وما يصدر عنه تحت مظلة الولاية الالهية . فالضلالة الفكرية تستتبع - بالطبع - الانحراف السلوكي الذي يجبر صاحبه الى النار ، ولذلك يقول - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج/٨) ؛ اي ان البعض قد يتحدث حول شريعة الله من دون ان تكون لديه خلفية علمية او هداية روحية او مسند يستند اليه .

السبيل الى مواجهة الافكار الضالة :

ان على الانسان ان يتسلح بثلاث حجج يواجه من خلالها تيار الضلال والافكار الباطلة البعيدة عن الهدى الالهي وهي :

١- العلم :

وفي هذا المجال يروى ان الامام علي (عليه السلام) سئل عن المسافة بين الحق والباطل فقال : " أربعة أصابع ، فما رأيته بعينك فهو حق ، وما سمعته بأذنك فهو باطل " ، وبالفعل فان أكثر ما تسمعه الاذن هو باطل كالأخبار التي تذيعها الاذاعات المعادية والتحليلات السياسية التي تكتبها الصحف الصفراء ، فمن الخطأ الفاحش ان يتناول الانسان المؤمن كتاباً ثم يقرأه ويعتقد بما يشتمل عليه دون ان يعرف مؤلفه ابتداء .

وفي السابق كان علماؤنا في الحديث والدراية يبادرون الى دراسة الكتاب الذي

يعثرون عليه من ثلاث جهات هي :

أ - مؤلف الكتاب وحياته ونسبه والاساتذة الذين تلقى الدروس عنهم ، وماذا قيل عنه ، ومن هو القائل .. فقد يكون المؤلف عالما ولكنه قد يكون في نفس الوقت غير عادل ، او ان يكون عادلا ولكنه مبتلى بالخلط نتيجة ذاكرته الضعيفة ، ولذلك فان اولئك العلماء كانوا يحققون ويبحثون لمدة أسابيع بل وشهور في حياة ذلك المؤلف من أجل ان يطمئنوا الى صحة حديثه .

ب - صحة انتساب الكتاب : واذا ما ثبتت عدالة ورجاحة فكر المؤلف وعلمه فانهم يبحثون بعد ذلك في مدى صحة انتساب الكتاب الى المؤلف ، فهل كتاب الكافي - مثلا - هو للكليني ، وهل كتاب التهذيب يعود الى الشيخ الطوسي وهكذا ..

ج - صحة النسخة ومطابقتها للاصل : واذا ثبت ذلك بحثوا في النسخة التي بين ايديهم وفي صحتها ومدى مطابقتها لأصل ، وفي الذين شهدوا على هذه الصحة ، ولذلك فانك قد ترى في بعض النسخ القديمة الكثير من التواقيع من قبل ائمة الحديث صدّقوا صحة انتساب النسخة الى الاصل .

٢- الهدى :

الحجة الثانية هي (الهدى) ، وهو ان لاتعرف الشيء بتفاصيله ولكنك تعرف الاصول التي تنتمي اليها ، فقد يعرف انسان ما الطريق الذي يؤدي الى الكعبة وجهة القبلة ولكنه يجهل التفاصيل ، وربما يفسر الهدى بتقليد العلماء ، فاذا كان هناك عالم موثوق به ثم جاءه انسان غير عالم وعرف ماهو عليه فهو على هدى من ربه .

٣- الكتاب :

وليس كل كتاب حجة ، بل الكتاب المنير هو الحجة ، فكما ان النور يزيل الظلمة ويكشف للانسان الحقائق ، فان الكتاب ايضا يجب ان يكون حقيقة تنير للانسان

المؤمن الطريق ، وتفتح امامه الآفاق .

وهكذا فان ولاية الله - تعالى - في الفكر تستدعي ان يكون بين المؤمن الرسالي وبين الله - تعالى - واحدة من تلك الحجج الثلاث على الاقل .

الورع في اتخاذ المواقف :

وانت حينما تريد ان تتخذ موقفا من أمر ما ، او ان تقيّم نفسك او الآخرين ، فان عليك ان تجعل نصب عينيك حقيقة ان الله مشرف ومهيمن عليك وانه يراك .

وهكذا فان الانسان المؤمن اذا حدث الناس فانهم يثقون به لانه قد اعتمد في كلامه حجة بينه وبين الله - سبحانه - الا وهي الصدق ، فالانسان المؤمن لا يتخذ مواقفه وهو غريق ظلمات نفسه المليئة بالشهوات ، بل يتوجه الى الله ويقوم بدراسة وتقييم افكاره بنظرة سليمة بعيدة عن الشيطان وهوى النفس وعلى ضوء ذلك يتخذ موقفه النهائي .

ومن صفات المؤمن انه انسان عاقل ، ومن صفات الانسان العاقل الرصانة والوقار ؛ فلا يقول كلاما ويتخذ موقفا من دون دليل او رؤية واضحة صادقة ، وعلى هذا فانك اذا اردت ان تتحدث عن الله وعن تعاليم السماء ، وشرائع الاسلام فان عليك البحث والتحقيق والا فانك ستفتري على الله - تعالى - كذبا ، وهذا ما يشير اليه القرآن الكريم في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ * ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الحج/ ٨-٩)

والافتراء على الله هو من الكبائر القبيحة التي يكون جزاؤها الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، هذا ما أكدته القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الحج/ ٩)

ثم ان من صفات المؤمن الخشوع ؛ اي ان يكون قلبه دائما في حالة ذكر الله ، وهذا يعني انه يحاسب نفسه ، ويحاكمها دوما في محكمة الضمير العادلة ، ويعني

ايضا انه يقوم بعملية تصفية وغرلة لافكاره ليأخذ الصالح منها ويترك الفاسد ،
وبالتالي فان مواقفه في الحياة سوف تكون سليمة نابعة من رؤاه وافكاره الصالحة .

متى ندخل في حصن الله :

ويبقى السؤال التالي ماثلا امامنا : كيف يمكن للمرء ان يدخل بفكره في حصن الله ؟

والجواب : ان هذا الدخول ممكن من خلال ممارستين :

١- ان يخضع الانسان نفسه الأمانة بالسوء وشهواته واهواءه ويسيطر عليها ،
وبالطبع فان تحقيق ذلك ليس بالامر اليسير ؛ فالشيطان والنفس والتيارات
الاجتماعية كلها تعمل ضد الانسان ، فعليه ان يعمل جاهدا من أجل تخفيف ضغوطها
بل ومحو آثارها ، والحركة في الاتجاه المخالف للتيار بعزم راسخ واستقامة على
طول الخط .

وفي هذا المجال أوصي بالاكثار من قراءة الدعاء ، فالدعاء يخضع نفس الانسان ،
ويزيدها يقينا ، ويربطها برب العالمين ، وبالتالي فان الدعاء يزيد الانسان معرفة
بمواقفه .

كما ان الدعاء برنامج للحياة ، وسلاح لحفظ الانسان من الشهوات الطائشة ،
ومصباح لهدايته وزرع اليقين في قلبه .

٢ - ان لم يكن الانسان على علم من أمر يريد ان يتخذ موقفا منه ، فانه اذا ما
تصرف وفقا لجهله هذا فانه سيكون ضالا ومنحرفا في تصحيحه . وعليه فان الانسان
بحاجة اليوم الى العلوم أكثر من أي وقت مضى وخصوصا الآيات القرآنية
والاحاديث الشريفة والحقائق التاريخية والعلمية ، فالمرء اذا اراد ان يتجنب الجهل ،
ويحكم ولاية الله في افكاره ومواقفه فلا بد ان ينشط في طلب العلم طيلة عمره .

مظاهر العظمة الالهية في الكون

هناك اخطار كثيرة يحفظنا الله - تعالى - منها آناء الليل واطراف النهار ، فالانسان عندما كان نطفة في صلب أبيه ، او علقه في رحم امه كان معرضا لاطار الجرائم التي من الممكن ان نهاجمه وتسبب موته وفناءه ، بالاضافة الى الاخطار التي كان والداه يتعرضان لها ولكن الله - جل وعلا - نجاهما منها ، ثم هل يعي الانسان انه عندما سقط من رحم أمه الى الارض لم يكن يمتلك حولا ولا قوة ، فمن الذي يحفظه من هذه الاخطار والمهالك ؟

اننا الآن نتمتع بالصحة والقوة والعافية ولكننا قد نجهل ان هناك الملايين من القوانين والانظمة داخل وخارج محيط الانسان هي التي تحفظه من الهلاك ؛ فالطفل - على سبيل المثال - ضعيف في مداركه وتفكيره ودقيق في بدنه ولكننا - في نفس الوقت - نراه متحركا ونشيطا ، ولولا حفظ الله - تبارك وتعالى - له

لهلك هذا الطفل لاتفه الاسباب .

اليد الغيبية في حياتنا :

ونحن كثيرا ما نلمس هذه اليد الغيبية في حياتنا ، فالكثير منا قد يتدحرج من على سلم او يسقط من مرتفع او يتعثر بعقبة في الارض الأمر الذي قد يسبب له العاهة او الاصابة المؤلمة ، وقد نرى الاطفال يتعرضون مئات المرات لمثل هذه الحوادث ولكننا في اغلبها نرى حفظ الله ورعايته للانسان فلا يصاب بأذى ، او قد يصاب إصابة بسيطة لا يلبث بعدها ان يتمائل الى الشفاء . فقد اودع الله - جلّت قدرته - خصوصية قوة النمو ونشاطه في الانسان وخصوصا في السنوات الاولى من عمره ، فالله - سبحانه وتعالى - وحسب العقيدة التي نؤمن بها قد عين ملائكة يقومون بمهمة حفظ الاطفال ، ولقد لمست انا شخصا هذه الحقيقة من خلال مشاهداتي لحوادث وقعت للاطفال ، ثم سلموا فيها .

عندما يفقد الانسان المناعة الذاتية :

وتتأكد هذه الحقيقة اكثر عندما نعلم ان كل جرثومة مرضية تصيب الانسان بإمكانها ان تقضي عليه ، والدليل على ذلك اولئك المصابين بمرض فقدان المناعة الذاتية المعروف بـ (الايدز) ، ترى ما الذي ينقص هؤلاء ، وما هو السبب في موتهم ؟

ان السبب في ذلك ببساطة هو فقدان المناعة الذاتية ؛ اي ان اجسامهم لم تعد محصنة بالحصن الطبيعي الذي خلقه الله - جل اسمه - وهو المناعة ضد الامراض ، وفقدان العناصر المضادة للجراثيم والمكروبات داخل الجسم . وعلى سبيل المثال فان الانسان الطبيعي الذي يصاب بالبرد او بفيروس الانفلونزا تراه بمجرد ان يركن الى الراحة لاسبوع يتمائل الى الشفاء ، ويستعيد نشاطه بتناول شيء من الدواء او المسكنات ، ولكن هذا الشخص ان كان مصابا بالايدز فان

الانفلونزا ستؤدي به لامحالة الى الموت لانه فقد المناعة الذاتية .

معلوماتنا عن الانسان قليلة :

والطبيب المعروف الدكتور (الكسيس كارل) صاحب الكتاب الشهير " الانسان ذلك المجهول " يوضح في كتابه هذا ان معلوماتنا حول ما يجري في جسم الانسان قريبة من الصفر فالاطباء والعلماء ورغم التقدم الذي احرزوه في مجال علوم الاعضاء والتشريح والفسلجة وما الى ذلك من الفروع الطبية المختلفة ما يزالون يجهلون الكثير مما يجري داخل جسم الانسان .

وعلى سبيل المثال فان الغدد اللعابية المنتشرة في اماكن متفرقة من الجسم كتحته الابط وجوانب العنق واماكنا اخرى نرى تنتفخ حين الاصابة المرضية ، والسبب في ذلك ان الملايين من كريات الدم البيض تتجمع في هذه المواضع وتتكدس لتشكّل فيها قواعد دفاعية قوية ضد الجراثيم ، فبمجرد ان تدخل هذه الجراثيم جسم الانسان تدق صافرة الانذار والنفير داخل الجسم لصد هذه الجراثيم ، فالجسم الانساني ليس كالمجتمع لان الاخير عندما يتعرض الى هجمة ما نرى ان البعض من افراده يهب للدفاع في حين ان البعض الآخر يجلس متقاعا ، اما جسم الانسان فانه اذا مرض عضو منه فان سائر الاعضاء تتداعى له بالسهر والحمى .

من مظاهر العظمة الالهية :

ترى من الذي بنى هذا البنيان المعقد والمتكامل ، ومن الذي انشأ هذا النظام في الجسم وفي المحيط الخارجي ؟

اننا نسمع صوت المطر وهو يهطل من السماء في لحظات تعتبر من لحظات استجابة الدعاء لان المطر هو من بركات الله - سبحانه وتعالى - افتدري - ايها الانسان - ما الذي جرى في السماء حتى هطل المطر ، ومن اين حملت الرياح هذا الماء اليك ، وكيف سقاك الله فان لم يكن هو الذي سقاك بهذا الغيث فمن

الذي يأتيك به ؟ الى ذلك يشير قوله - عز وجل - : ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ (الوَاقِعَةُ/٦٩) ، وفي قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ (الْمُلْكُ/٣٠)

ترى كيف تحمل عشرات الملايين من اطنان المياه في السماء ثم تساق الى البقاع النائية المترامية ، وتعصر عصرا حتى تهطل امطارا ، ومن الذي اوجد هذا القانون الفيزيائي العظيم في الكون بحيث تعصر السحب بعضها بعضا عندما تتراكم ، وعندها ينزل المطر ؛ هذا الغيث الالهي .

الغلاف الواقي :

وفي الجو هناك غلاف واق يبلغ سمكه خمسين كيلو مترا ، هذا الغلاف اضحى اليوم مهددا بسبب نفايات وفضلات حضارة التكنولوجيا ، والتجارب النووية التي تعمل على تمزيق هذا الغلاف ، وايجاد الثغرات فيه الامر الذي سيجعل الكرة الارضية في المستقبل القريب عرضة للاشعة الكونية الخطيرة ، والاجرام السماوية المدمرة التي يدخل اجواء الارض منها يوميا حوالي عشرين مليون قذيفة تحترق في جو الارض قبل ان تصل اليها بفضل ذلك الغلاف الجوي الذي اصبح مهددا اليوم بالتمزق ، ولأجله تقام المؤتمرات والاجتماعات هنا وهناك للعثور على حل جذري لهذا الخطر المحدق ، ولعلنا نلمس هذا المعنى في الآيات المباركة من سورة الطارق حيث يقول - تعالى - : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (الطارق/١-٤) .

النيازك والشهب :

ان هناك حقيقة لعل من المفيد بيانها هنا وهي انه بقدر ما في السماء من الاجرام التي من ضمنها الشمس والقمر والزهرة وزحل وعطارد وغيرها من الكواكب

والمجرات ، فان بمقدارها او ربما عشرات الاضعاف منها هناك مواد متناثرة وهي ما تسمى بـ (النيازك) و (الشهب) التي تتحرك في الفضاء وفق قوانين الجاذبية ، وربما قوانين الطاقة والضوء في هذا الفضاء الرحيب الواسع وهي ترتطم بالانجوم والاجرام ، والله وحده هو العالم بما يحدث هناك حين الارتطام ، ولكنها عندما تصل الى الارض فان بوابة الغلاف الجوي ، هذا الحارس العظيم يقوم باتلافها ، وصد ضررها عنا .

الاشعة الكونية :

وهكذا الحال بالنسبة الى الاشعة الكونية التي تولدها الشمس ، فالاشعة منها ما هو مفيد ومنها ما هو مضر ، فالاول يصل اليها فتخضر به الاشجار والنباتات ، وتنمو به الاجسام الحيوانية ومنها الانسان بالاضافة الى آلاف الفوائد الاخرى ، اما الثاني - وهو المضر - فهو مما لا يصل اليها بفضل الغلاف الغازي للارض الذي بات مهددا اليوم .

ترى من اوجد هذا الغلاف ، ومن الذي وضع قوانين عمله ؟

انه ربنا - تعالى - الذي خلقه ، واتقن صنعه ، ولعظمة هذا الخلق فانه - عز وجل - يقسم به قائلا : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ اي قسما بالسماء ، وتلك الاجرام التي تطرقها ، ثم يقول - سبحانه - : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ، فأنت ايها الانسان لاتدري بما يحدث في هذا الكون اللامتناهي ، ففيه من المجاهيل ما لايمكن ليد الادراك والعلم ان تمتد اليه .

لكل نفس حافظ :

ثم يذكر - تعالى - موضوع القسم وهو ان كل انسان عليه حافظ ؛ اي ليس

هناك حفظة للجميع بل ان كل واحد له حفظة خاصون به ، وله معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من كل سوء وشر ، فالانسان يتعرض عشرات المرات يوميا الى الاخطار ، وكثيرا ما يردد اغلبنا عبارات من مثل : كادت اليوم سيارة ان تدهسني ، وكادت عقرب تلسعني ، وكدت اسقط في النهر او من فوق بناية ولكنني نجوت بفضل الله وهكذا ...

واذا اردت - ايها الانسان - ان تعرف بانك محفوظ من قبل الله - تعالى - ليل نهار ، فانظر إلى النطفة البسيطة التي لايمكنها ان تدفع اي خطر عن نفسها ، ومع ذلك فانها محفوظة ومصانة ترعاها اليد الالهية كما يشير الى ذلك - جلست قدرته - في قوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطارق/ ٥)

وقد يداخلنا شيء من الغرور فنقول اننا نمتلك الايدي والارجل والعيون واللسان بل وحتى الحاسة السادسة فلا حاجة - اذن - الى من يحفظنا ، ولكن علينا ان نتساءل في نفس الوقت : ترى من منحنا كل تلك النعم والقدرات ؟

مظاهر عظمة الله لاحصر لها :

ان الحديث عن هذه الامور والظواهر العجيبة التي تتجسد عبرها عظمة البارئ - سبحانه وتعالى - يحتاج الى تدوين مجلدات تلو المجلدات ، وقد اشار الخالق - عز وجل - الى جوانب من هذه العظمة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم كقوله - تعالى - : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق / ٥ - ٨) ، فالحمد لله - سبحانه - قادر على ان يبعث الانسان لينال الثواب او العقاب بعد الحساب .

ثم يستأنف - تعالى - قائلا : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ (الطارق / ٩ - ١٠) ففي ذلك اليوم عندما يعود الانسان الى ربه تراه لايمتلك قوة ولا حولا يدافع بهما عن نفسه ، وليس هناك من ينصره ، ويدافع عنه .

ثم يعود - تعالى - ليقسم ثانية بالسماء والارض قائلاً : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ *
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (الطارق / ١١ - ١٤)
فهو - سبحانه - يقسم بالسماء التي يهطل منها المطر ، والارض التي تتشقق فيخرج
من تحتها النبات ، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، وماهي
بمزحة تتفكك بها ، فلنعيها جيداً ، ولنلمس من خلالها القدرة الهائلة اللامحدودة للخالق
- تبارك وتعالى - لكي يزداد ايماننا به ، ونصوغ سلوكنا وفق منهجه الشامل .



كلمة التوحيد حصن الله

كلمة " لا اله الا الله " هي الاصل في كل خير ، وهي الحصن الذي من دخله كان آمناً من العذاب ، فعندما نقول " لا اله الا الله " في كل صباح ومساء وعلى كل منعطف فان هذا لا يعني انها مجرد كلمة تمرق من شفاهنا ، بل هي موقف ، وهي صبغة الحياة التي قال عنها - تعالى - : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة/ ١٣٨)

ان كلمة التوحيد هي جهة التحرك وهي بالتالي تعبير آخر عن قول المؤمن : " انا لله وانا اليه راجعون " وانعكاس لقوله :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ

المُشْرِكِينَ ﴿ (الانعام/٧٩)

معرفة الله هدف الوجود :

فكل ما في الكون ، وكل ظاهرة في الحياة ، وكل حادثة يمر بها الانسان صغيرة كانت أم كبيرة تهدف هدفا واحدا وهو ان يصل الى معرفة الله - سبحانه وتعالى - ؛ فاذا تنفس الصبح فان هذا يعني انه يسبح بحمد الله ، واذا زالت الشمس فان زوالها يعني ان الشرك والضلالة يجب ان ينحسرا عن الدنيا ، وحتى لو أصابك وجع في ضرسك ، او ألم في رأسك ، او عثرة طفيفة على الطريق فان كل ذلك اشارات اليك من رب العالمين لكي تنمو فيك معرفته ، وتتعرف عليه في كل شيء .

ترى لماذا كل هذه التحولات والتطورات في حياة الانسان ، وماهي الحكمة من ورائها ؟

الهدف من كل ذلك هو ان تقترب من الله - عز وجل - ؛ فمن الناس من لا تقربه عبادته الى ربه ، فيصلي بلا خشوع ، ويصوم بلا تقوى ، ويحج بلا تواضع ، فيفرغ العبادات المفروضة عليه من اهدافها ، ويحولها الى طقوس خاوية بالية ، ومثل هؤلاء يجب ان يصطدموا بالحياة ، ويواجهوا احداثها القاسية لكي يتوجهوا الى الله - عز وجل - ، ويتوبوا اليه .

وعلى هذا فان على الانسان ان ينتفع من المشاكل التي تواجهه في الحياة ، فهي تصقل حياته وروحه وتقربه من الله - سبحانه وتعالى - ، فالمشاكل هي معراج الانسان الى الكمال الروحي ، ولذلك نجد ان الله يبتلي المؤمنين بأعظم البلاءات حسب درجاتهم ، فالبلاء للأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فكلما كان الانسان أقرب الى المثل العليا كلما كان بلاؤه أكثر ، ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وآله) كلمته المشهورة عن نفسه : " ما أؤذي نبي بمثل ما أؤذيت " .

فلو كان الانسان المؤمن على رأس جبل وحده لبعث الله - تعالى - له عدوا

يؤذيه ، لان الايمان لا يكتمل الا بهذا البلاء ، ولان الله يكن له الحب ويريد ان يكمل ايمانه ويزول الكبر والانانيات وسائر الادران الروحية من نفسه ، وتخلص نيته لله - جل جلاله - .

الايمان النافع :

ان الايمان الذي لا ينفع الانسان عند البلاء والشهوات والصعوبات ، ولا يزوده بالمناعة ، ولا يمنحه التصلب والصمود عند هجوم المشاكل عليه ، انما هو ايمان عديم الجدوى . فنحن نطلب الايمان لكي يعطينا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والتربية المثلى في تطورات الحياة ، ولذلك فقد أخذ الله - سبحانه وتعالى - الميثاق من النبيين في عالم الذر بان يحملوا الرسالة ، ويتحملوا مسؤوليتها : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الاحزاب/ ٧-٨)

اي ان الانبياء عندما قبلوا ان يتحملوا مسؤولية تبليغ رسالات الله ، وأعطوا من أنفسهم الميثاق ، فقد طلب منهم الله - سبحانه - الاقرار ، واشهد عليهم ملائكته وهذا هو معنى الميثاق الغليظ الذي يستهدف معرفة الانسان الصادق في ايمانه ، الوفي بميثاقه في وقت الازمات والمصائب والمحن .

ثم يضرب الله - تعالى - لنا مثلاً من واقعة بدر التاريخية فيقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ (الاحزاب / ٩) ، وقد كان عدد المسلمين المقاتلين لا يتجاوز ثلاثمائة وثلاث عشرة رجلاً ، واذا بألف جندي مدجج بالسلاح يأتيهم وحينئذ أرسل الله اليهم جنوده ، وأمدهم بمدده الغيبي .

هذا بالنسبة الى معركة بدر ، واما في معركة الخندق والاحزاب فقد كانت الظروف اكثر ، وصعوبة وتأزما على المؤمنين ، وعن هذه الواقعة يقول - عز وجل - : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ (الاحزاب / ١٠) اي انهم احاطوا بالمدينة ذلك لان القوى الداخلية - وهم اليهود - تأمروا على المسلمين بالاضافة الى قريش والقبائل العربية الاخرى .

ثم يقول - تعالى - واصفا حالة الهلع الشديدة التي اعترت المسلمين : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ (الاحزاب / ١٠) ، فالانسان عندما تنهار اعصابه تزيغ عيناه ، وعندما يدهمه الاحساس بالخوف والخطر يصاب بحالة يشعر معها وكأن قلبه قد انخلع من مكانه وارتفع الى حنجرتة ، وحينئذ تبدأ الشكوك تساور النفس الانسانية ، ويقع الانسان فريسة لسوء الظن : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (الاحزاب / ١٠) .

ثم يبين - عز وجل - الحكمة من وراء هذا الابتلاء الشديد ، والاختبار الصعب في قوله : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الاحزاب / ١١) ، فالابتلاء يعني اظهار ما في القلب ، واختبار لمدى قدرة الانسان المؤمن على الوفاء بالتزامات كلمة (لا اله الا الله) التي تعني تحطيم كل الاصنام الذهنية والنفسية ، ومحاربة هوى النفس والغرور والكبر والانانيات وما الى ذلك من اصنام داخلية ، فكل شيء غير الله يجب ان يسقط ويحل محله كل ما له علاقة به - تبارك وتعالى - .

واذا ما استطاع الواحد منا ان يسقط ويحطم كل تلك الاصنام ، وتمكن من ان يعرج في سلم السمو والكمال فحينئذ سيكون العبد الصالح الذي تستقبله ملائكة الله على ابواب الجنة .

وقد جاء في الروايات ان هناك قسما من الناس بمجرد ان يخرجوا من قبورهم

تفرش لهم الملائكة اجنحتها ، ثم يركبون على هذه الأجنحة ليدخلوا الجنة من دون حساب ، وفي الطريق تشاهدتهم ملائكة أخرى فيسلمون عليهم ويسألونهم : من أنتم حتى تدخلوا الجنة من اوسع ابوابها ومن غير حساب ؟ ، فيجيبون قائلين : لقد كنا نتمتع في الدنيا بصفتين ؛ الاحسان ، والتسليم .

والتسليم يعني تفويض الامر الى الباري - عز وجل - في جميع الظروف والاحوال ، وحمده وشكره على كل ما يأتي ، والترجيع ؛ اي قول " انا لله وانا اليه راجعون " عند نزول المصائب . فالانسان المؤمن صبور ، ممتلك لزمان نفسه ، شكور سواء كان ملك الملوك أم كان يعاني من الأمرين في السجون ، وهو في كل الاحوال في انتظار ما يقدر الله - عز وجل - ويخطط له تاركا التدبير له .

يوسف (عليه السلام) انموذج التسليم :

ولنا في هذا المجال قدوة حسنة بيوسف الصديق (عليه السلام) الذي مر في حياته بسلسلة متصلة من الاختبارات والابتلاءات الشديدة التي لا يستطيع الانسان العادي الضعيف الايمان ان يتحملها ، فقد رمي (عليه السلام) في البئر واشتري وهو النبي العظيم بثمن بخس ، ثم تعرض للمؤامرات تلو المؤامرات في قصر العزيز ، وادع السجن نتيجة لاصراره وتمسكه بمبادئه وقد كان بإمكانه ان يحيا رافلا بالنعمة الكثيرة لو انه تخلى ولو بمقدار ذرة واحدة عن رسالته ومبادئه ، ومع ذلك فقد أطلق هتافه التأريخي في وجه الاغراءات الدنيوية قائلا : ﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (يوسف/ ٣٣)

ولا شك ان التدبير الالهي هو الذي حمله على ان يمر بهذه المنعطفات حتى أوصله هذا التدبير اخيرا الى ذلك المقام الالهي الشامخ في الآخر ، والمنصب الرفيع في الدنيا .

ولذلك فان من المستحب للانسان المؤمن ان يقول دائما : " اللهم اغنني بتدبيرك

عن تدييري " ؛ اي ان يطلب هذا الانسان من الله - عز وجل - ان يقدر ويدبر له ،
لان تقديره - تعالى - افضل بالطبع من تقدير الانسان ، ولان الانسان لا يستطيع ان
يعلم الغيب ، ولا يعرف ما سيحدث في المستقبل .

اهمية كلمة التوحيد :

وكل هذا لا يمكن ان يحدث الا من خلال ايمان الانسان العميق بكلمة التوحيد ؛
هذه الكلمة التي من شأنها ان تنمي صفة التوكل المطلق على الخالق - عز وجل -
في النفس الانسانية ، فتجعل هذه النفس مطمئنة بقدر الله - تعالى - راضية به ،
شاكرة له في كل ما يقدر لها سواء كان هذا التقدير مما تميل اليه هذه النفس ، او
مما تنفر منه وتستثقله ، وحينئذ سيدخل الانسان في حصن الله - تبارك وتعالى -
المنيع في الدنيا والآخرة ، وسيكون مصداقا للحديث القدسي الذي رواه لنا الامام
الرضا (عليه السلام) عن آبائه واجداده (سلام الله وصلواته عليهم اجمعين) عن النبي
الاعظم (صلى الله عليه وآله) عن جبرائيل (عليه السلام) :
" كلمة لا اله الا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " .



هل ندخل حصن الله ؟

قال - عز وجل - في الحديث القدسي الشريف المروي عن الامام الرضا (عليه السلام) : " كلمة لا اله الا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " ، والكلمة هذه تدل على ان أسمى وأهم وأعظم اهداف الانسان في الدنيا هو هدف الاستقلال ؛ الاستقلال عن جاذبية الارض المتجسدة في الثروة والشهوة ، والاستقلال عن جاذبية الاجتماع المتمثلة في القوة والسلطة ، وبالتالي الاستقلال عن كل قوة ضغط او جاذبية تريد ان تحول الانسان الى اداة ، والى تابع بسيط يدور في فلكها .

والانسان - بطبعه - مقهور للطبيعة من حوله ؛ فهو يحس بالجوع فيندفع نحو الطعام اندفاعا ، كما يضر به العطش فيبحث عن ماء يروي به عطشه هذا ، ويأخذ التعب منه كل مأخذ فيبحث عن مأوى يأوي اليه فيستريح ، ولو ان هذا الانسان ترك نفسه فانه يصبح بعد حين جزء من عملية تناول الطعام والشراب ، وبتعبير آخر ؛ قمرا

يدور في فلك الطبيعة حيث دارت .

بالإرادة نتحرر :

وهذا الانسان انما يستطيع ان يجعل نفسه بمنجى من هذا الفلك الذي يدور به اذا استخدم ارادته وقرر ان يعيش كما يريد لا كما تريد الطبيعة ، فالطبيعة تريد منى ان ابحت عن الخبز ، والخبز هذا مضمون اذا كيفت نفسي مع المجتمع ، وعشت كما يريد ، والا فإنني سوف لن أحصل على طعامي وحينئذ لا أستطيع ان أحصل على شيء فيستعبدني المجتمع .

اننا نجد ان هناك عادة اناسا يستخدمهم الطاغوت والمجتمع الفاسد ، ويقومون بممارسات خاطئة في الحياة ، واذا ما سألتهم عن سبب استسلامهم هذا قالوا لك ان معيشتهم تفرض عليهم ان يقوموا بهذا العمل او ذاك .

وهناك اناس آخرون يخوضون حيث خاض الناس لانهم يخشون من سيطرة المجتمع من جهة ، ويريدون ان يكيفوا انفسهم مع طبيعة هذا المجتمع من جهة اخرى .

هذا في حين ان الانسان المؤمن يكون دائما في حالة تحد لضغط المجتمع ، والطبيعة لانه يؤمن بكلمة (لا اله الا الله) ؛ اي ان القوة التي يجب ان يتبعها ويستسلم لها من دون قيد او شرط هي القوة الوحيدة في الكون وبعبارة اخرى ، هي حاكمية الله ، وولايته - سبحانه وتعالى - ، وولاية الله هي ولاية الحق ، وولاية الحق هي ما يوحي به العقل ، وما اوحى به الله - تبارك وتعالى - للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين - .

وهذه هي خطة الحياة المستقيمة ، فاذا نبذت جانبا نفسك ، وعقلك وتركت - بالتالي - الحق ، وولاية الله - سبحانه وتعالى - ، فانك ستصبح ذليلا ، مستسلما بل اداة في جهاز كبير لاتحس فيه بذاتيتك وجوهرك .

واذا اردت عزا بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، فما عليك الا ان تخرج من ذل معصية الله الى عز طاعته ، وطاعته - تعالى - هي الخضوع لولايته الاحدية ، وهي تعني بالطبع رفض جميع الآلهة والانداد والشركاء من دون الله - تبارك وتعالى - ، ورفض تلك القوى التي تستعبد الانسان ، والوقوف في وجه قوة الشهوة والثروة من جهة ، وقوة الارهاب والسلطة من جهة اخرى .

وكما قلنا فان قوة الثروة والشهوة تمثلا جاذبية الطبيعة في حين ان قوة السلطة والارهاب تجسد جاذبية المجتمع .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : كيف وبأية وسيلة يستطيع الانسان ان يضمن استقلاله ؟ ان طبيعة الحياة تستعبدك ، وكل فرد من ابناء المجتمع يفرز من حولك جاذبية تحاول ان تستقطبك وتستعبدك بالتالي ، فكيف تستطيع ان تنقذ نفسك من ضغط الجاذبيات المختلفة الموجودة في الانسان نفسه او في الطبيعة ؟

للإجابة على هذا السؤال نستعير مثالا من عالم الطبيعة فنقول : كيف تستطيع قطعة من الحديد ان تنقذ نفسها من جاذبية الارض ؟ اننا نعلم ان في علم الفيزياء قانونا يقول ان أية كتلة في الطبيعة تمتلك جاذبية بقدر وزنها ، فكلما كانت الكتلة اكثر كثافة كلما كانت جاذبيتها أكثر وأعظم ؛ فالارض لها جاذبية ولكن جاذبيتها تعتبر تافهة بالنسبة الى جاذبية الشمس ، فالكتلة هي التي تقرر الجاذبية حسب كثافتها . ترى فكيف يكون بامكان قطعة الحديد ان تتخلص من جاذبية الارض ؟ هذا السؤال يجيب عليه علم الفيزياء فيقول : ان ذلك ممكن من خلال الحركة ؛ فكلما كانت حركة قطعة الحديد أكثر وأسرع استطاعت ان تخفف من وطأة جاذبية الارض عليها .

الحركة والنشاط ضمانتا التحرر :

و هكذا الحال بالنسبة الى الانسان ؛ فكلما كان أكثر حركة ونشاطا كان أقدر على

دفع الجاذبيات والضغط من حوله وخلق جاذبية جديدة ، فالانسان المؤمن لا يتحرك ويستقل عما وعمن حوله فحسب بل انه يحمل معه موجة من الجاذبية تستقطب الآخرين وتنقذهم من عبودية الشهوة والثروة ، او الخضوع للقوة والسلطة وهذه هي سنة الله - تعالى - في الطبيعة ، وسنة الحياة في عالم الانسان .

انك - ايها الانسان - اذا اردت ان تجسد في ذاتك مفهوم (لا اله الا الله) وتخرج من ضغط الطبيعة ، وعبودية الانسان للانسان ، فعليك ان تخرج من اطار معصية الله - تعالى - الى رحاب طاعته ، ومعصية الله ان تترك نفسك وتهملها ، وطاعته ان تتبعها وتجهدها في سبيله ، فهذه الطاعة لا يمكن ان تكون الا بالتحرك الأسرع فالأسرع ، فان لم تكن ساعيا بسرعة فان حقوقا كثيفة ومتراكمة سوف تحيط بك .

حقوق عملية :

انا عندما نقرأ رسالة الامام زين العابدين (عليه السلام) في الحقوق نجد ان كل هذه الحقوق هي حقوق عملية تحتاج الى الإداء والعمل والنشاط ، اما الانسان الكسول فانه يضيع حق الله - عز وجل - والناس ، فعندما لا ينهض مبكرا في الصباح ولا يؤدي الصلاة فانه يضيع حق الله ، وعندما لا يذهب الى العمل فانه يضيع حق عائلته ومجتمعه ، وقد جاء في الحديث الشريف : " ملعون ملعون من ضيع من يعول " ^(١) وفي حديث آخر له (صلى الله عليه وآله) : " ملعون من ألقى كله على غيره " ^(٢) .

تري كيف يلقي الانسان كله على الآخرين ؟ رسول الله (صلى الله عليه وآله) يضرب لنا مثلا في اولئك الذين كانوا معه والذين صام طائفة منهم بينما قام الآخرون بخدمتهم عند الافطار ، فأكد (صلى الله عليه وآله) على ان الثواب قد كان من

(١) بحار الانوار ج ١٠٠ ص ١٣ رواية ٦٢

(٢) بحار الانوار ج ٧٤ ص ١٤٢ رواية ١

نصيب المفطرين لانهم تحركوا ، وخدموا الصائمين ، صحيح ان الصوم يعني ان يبذل الانسان جهدا لمقاومة جاذبية الشهوة ولكنه قد يكون استسلاما للركود والسكون ، ولذلك فان الانسان الذي يتحرك هو الذي يحصل على الثواب الاكثر ، ويا حبذا لو كانت هذه الحركة مقرونة بالصوم .

وعلى هذا فان الحركة هي مقياس مدى خروج الانسان من عبودية ما حوله ، فالانسان الاكثر نشاطا وحركة هو الأقدر على تحقيق الاستقلال ونيله ، والانسان انما يحتاج الى الآخرين بسبب حرصه وطمعه ولذلك يقول الحديث الشريف : عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما سأله فأى ذل أذل قال الحرص على الدنيا ... ^(١) ، اما الانسان الذي يمتلك السعي والحركة فانه لا يحتاج الى احد بل ان الناس هم الذين يحتاجون اليه .

الإحسان نوع من الحركة :

ترى لماذا اختار الله - سبحانه وتعالى - انبيائه (عليهم السلام) من بين المحسنين ، ولماذا قال - تعالى - في أكثر من موضع بعد ان تحدث عن الانبياء : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الانعام/٨٤) ، الجواب نجده في جانب من قصة موسى (عليه السلام) وذلك عندما يذهب الى مدين ، وعندما يصل الى هذه المدينة وقد انهكه التعب والجوع ويرى تينك الفتاتين تذودان من أجل ان تسقيا اغنامهما ، ثم واذا به يأوي الى الظل ويرفع يديه الكريمتين الى السماء قائلا : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص/٢٤) ، فلا يفكر في تلك اللحظات انه جائع وغريب ، ولا يفكر انه طريد تلاحقه قوى الطاغوت بل يفكر كيف يقدم خدمة ، وكيف يتحرك ، فينبري الى مساعدة الفتاتين ، وهذا هو الاحسان الذي يمثل الحركة في الجانب الاكبر منه .

(١) بحار الانوار ج ٧٠ ص ١٦١ رواية ٤

والانسان المحسن هو الذي يهتدي ويحصل على الرحمة والفلاح والسعادة كما يؤكد على ذلك - تعالى - في قوله : ﴿ اَلَمْ تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هٰذِي وَرَحْمَةٌ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لُقْمَانُ/١-٣)

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : اننا كلنا نطمح في ان نكون متحركين ونشيطين ولكن الحاجات المادية ، وعقبات المجتمع تقف حائلة بيننا وبين التحرك الاكثر فاعلية ونشاطا ، فكيف ياترى يعمل الانسان ؟ ان جسمه بحاجة الى الراحة فهو يجوع ويمرض ويتعب ، ومن جهة أخرى فان الانسان عندما ينوي العمل فانه لا يجد من رفاق عمله سوى التثبيط والدعوة الى التكاسل والقاعس ، فهناك في المجتمع سواء في مجال التحرك الاسلامي أم المادي عناصر نشطة وأخرى كسولة تقف عقبة امام الانسان ، فكيف يستطيع ان يتجاوزهم ، وهل يعمل معهم أم على انفراد ؟ فان اراد ان يعمل لوحده انطبق عليه الحديث الشريف : " الشاردة للذئب " واذا ما اراد ان يعمل مع الآخرين فانهم سوف يحددون حركته .

للإجابة على هذا التساؤل نطرح ما سبق ان اكدنا عليه وهو ان تجربة الانسان في الدنيا ليست تجربة عضلاته فقط وإنما ايضا تجربة عقله وارادته ؛ فالارادة تتحدى ، والعقل يفتح الطريق ، فعندما يكون عقل الانسان كاملا ، وعندما لا يدع الانسان شيئا دون ان يفكر فيه تفكيراً جدياً كما يقول الامام علي (عليه السلام) في وصيته لكميل : " يا كميل إعلم أنه لا بد لك في كل جولة من فكرة " ، وعندما يكون فكر الانسان هو الذي يحدد مسيرته ، فانه سيكون مديراً جيداً ، فالانسان لا يتحدى ولا يتجاوز العقبات بجسمه وعضلاته فقط ، فقد يكون الانسان ضعيف الجسم ولكنه يستطيع بعقله ان يتجاوز الكثير من الصعاب والعقبات .

عقبات ليست مستحيلة :

وهكذا فان العقبات التي تعترض طريقنا ليست مستحيلة التجاوز اذا استخدمنا

عقولنا ، ولذلك فعلى الانسان ان يكون مديرا ومديرا اذا أراد ان يكون مستقلا ، وأراد ان يضمن استقلاله ، ويطبق على نفسه واقع كلمة التوحيد ، ويدخل في هذا الحصن المنيع .

صحيح ان الجسم بحاجة الى راحة ولكن على الانسان ان يدير هذا الجسم لا ان ينام الساعات الطويلة بحجة ان الجسم بحاجة الى راحة ، ولقد أثبت العلم الحديث ان تجزئة النوم تؤدي الى راحة الجسم ؛ اي اننا باستطاعتنا ان ننام بصورة متقطعة لا ان نستمر في النوم لفترة طويلة ، فالعلم والتجربة أثبتا ان الانسان باستطاعته ان يأخذ قسطا قليلا من الراحة ثم يتابع بعد ذلك عملا مجهدا .

وهكذا الحال بالنسبة الى الاكل فان الجسم بحاجة اليه ايضا ولكن ليس كل ما يستهويه مذاقك هو الافضل لجسمك بل حاول ان تبحث عن الطعام الخفيف الذي ينفع جسديك ، فما الفائدة من امتلاء البطن بالأكل اذا كان يسبب انواع الامراض ؟ وبناء على ذلك فالتأني بحاجة الى ان نبذل عن السلوك المناسب لادارة اجسامنا ، فعندما تكون الادارة قوية في مملكة الجسد فان الانسان سيستطيع ان يلبي احتياجات جسمه بالشكل المطلوب .

ونفس الشيء يمكن ان يقال عن ادارة المجتمع المحيط بنا هذا المجتمع الذي يمثل هو الاخر عقبة لا يستطيع الانسان اختراقها بسهولة ، وفي هذه الحالة عليه ان يتلطف في تجاوز وتذليل هذه العقبة ، وقد استخدمت هذه الكلمة (التلطف) في القرآن في قصة اصحاب الكهف عندما أمروا بأن يتلطفوا في تجاوز المشاكل الاجتماعية التي تصادفهم وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف/١٩)

و (التلطف) يعني ان هناك طرقا واساليب باستطاعة الانسان البحث عنها في سبيل مواجهة وحل المشاكل التي يواجهها في حياته ، ولذلك نقول ان الانسان باستطاعته ان يقفز فوق العقبات ويتجاوزها دون ان يثير غضب الآخرين بل وحتى دون ان يشعرهم

بذلك ، فباستطاعة الانسان في كثير من الامور ان يتسلح بسلاح التلطف والكتمان وحينئذ سيكون بمستطاعه ان يتجاوز الكثير من العقبات الاجتماعية كما يقول - تعالى - على لسان أحد اصحاب الكهف : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .

ادارة النفس طريق الاستقلال :

فاذا اردت ان تحافظ على استقلالك فعليك ان تعرف كيف تدير نفسك ، فالانسان كان سابقا محكوما بالبرد والحر والجوع والعطش والألم ولكنه اليوم استطاع ان ينقذ نفسه من هذه الحتميات ويتحرر من ضغوطها عن طريق النشاط والعقل والادارة ، وعندما استطاع هذا الانسان ان يدير الحياة ، ويستخدم اجهزته ضدها فانه قد انقذ نفسه من جاذبيتها .

ومن هنا فاني ادعو الاخوة الرساليين الى البحث الجاد عن اساليب الادارة لانفسهم ولما حولهم ، وقد تكون هذه الادارة علما تقرأه في الكتب ، وقد تكون فنا تتعلمه في مدرسة الحياة ، فاذا توفرت الارادة والعقل والتفكير فانه ليس بإمكان شيء ان يعجزك ، فكل الحياة ستأتيك طائعة ، وحينئذ سوف تستطيع ان تصل الى قمة الاستقلال .

وهذه الدعوة ليست موجهة الى الافراد فحسب ، فالتجمعات التي تكون نشيطة ومديرة ومديرة فانها تستطيع ان تحافظ على استقلالها ؛ فالتجمع الذي يرفض الشرق والغرب ، ويستجيب للاسلام بكل قوة واصرار ودون ان تكون استجابته هذه شعارا فارغا فهو انما يجسد هذا الشعار ضمن الافراد ايضا ، فالله - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ فَقَاتِلُوا أُمَمَ الْكُفْرِ ﴾ (التوبة/ ١٢)

ومثل هذه الحركات هي حركات نادرة لانه ليس من السهل ان تقول (لا اله الا الله) ، وان تخرج نفسك من جاذبية الطبيعة وجاذبية المجتمع البشري ، وليس من السهل ان تقف لوحده امام العالم كله ، بل انت بحاجة الى من يعينك ، ويقف الى جانبك .

ان القرآن الكريم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الانفال/ ٧٣) ، فلماذا لانعلن رفضنا القاطع لكل القوى

الاستكبارية ، ومم نخاف ، ولماذا نتصور اننا لانمتلك القوة ؟ الجواب : لاننا لم نتحرك ، ولم نعمل ، ولم نسع ، ولم نتجاوز العقبات ، في حين ان الحركة هي مفتاح الاستقلال ، والانسان الذي يمتلك العقل والارادة ، ويتمتع بالحركة والادارة فانه يكون قريبا من الاستقلال ، ومن تطبيقه كما يقرر ذلك الحديث القدسي :

" كلمة لا اله الا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي " .



كيف نوطد العلاقة مع بارئنا ؟

لاريب في ان خلاصة اهداف الرسالات الالهية بناء العلاقى الوطيدة بين العبد وخالقه ؛ بين قلب هذا الانسان وروحه وبين بارئ هذا القلب ونافخ الروح - جل شأنه - . فالرسالات السماوية قاطبة تسعى سعيا حثيثا من أجل ان توجد الآصرة القوية المتينة بين حياتنا الدنيا المادية التي نخوض غمارها ، وبين الآخرة التي سنستقبلها عند انقضاء الآجال ، وحلول ساعة الموت . وهذه هي زبدة الاهداف التي تبتغيها وتصبو الى تحقيقها في وجودنا رسالات الله - سبحانه - ورسله ، وانبيائه (عليهم السلام) .

ومع ذلك فان الانسان عندما يبتعد ، وينأى عن عالم الروح التي تحن الى السمو والكمال ، فانه سيبتعد - بالطبع - عن الرسالات الالهية واهدافها الخيرة ، فيتحول

الى كيان هزيل تذروه الرياح ، وتهوي به في وديان سحيقة مظلمة ، ويغدو ضحية
اخبطوط الاهواء والشهوات الممتدة اذرعه الى كل زاوية من زوايا النفس الانسانية ،
وحينئذ ينطبق قوله - تعالى - عليه : ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج/ ٣١) .

زكريا انموذج الروح السامية :

والقرآن الكريم ، هذا الكتاب السماوي الخاتم الذي يحمل بين دفتيه مضامين
الرسالات الالهية جميعا ، ترسخ آياته ، وتؤكد تلك الروح المعطاء ، والمعنويات
الرفيعة السامية . وفي هذا الصدد يذكر لنا القرآن قصة زكريا (عليه السلام) ، ذلك
العبد الصالح المطيع لله - تعالى - ، والذي اخلص له في العبودية والطاعة فعبده ،
وسجد له حتى وهن العظم منه ، واشتعل رأسه بالشيب شاهدا على اخلاصه في
العبادة التي وسمه الله - سبحانه - بها . فما اعظمها ، وأنبأها من سمة سمائية كريمة
ان يتصف الانسان بصفة العبودية الخالصة والطاعة اللامحدودة لله ، لا للنفس الامارة
بالسوء ، والشيطان ، وعالم الاهواء الرخيصة ، والشهوات المبتذلة ، ولا لشياطين
الانس من طغاة وفراعنة ونماردة متجبرين ، بل هي دائمة وأبدا لله الواحد الأحد
الفرد الصمد .

علاقة الرحمة :

وفي الحقيقة فان هذه هي العلاقة الوثيقة الخالصة حيث يعبر عنها - تبارك
وتعالى - بعد ان يذكر حروف النور : ﴿ كَهَيْعِص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ
زَكَرِيَّا ﴾ (مريم/ ٢-١) ، فالعلاقة التي يجب على الانسان ان يجهد نفسه ، ويبذل جل
سعيه من اجل بلوغها هي علاقة الرحمة التي هي بمثابة الجسر الممتد بين العرش
الالهي وعباد الله - جل جلاله - . والملاحظ في هذه الآية الكريمة انه - تعالى

شأنه - استخدم لفظة (الرحمة) بين ذكره العلي ، وعبد الولي زكريا . فلم يقل (ذكر ربك) بل قال : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا﴾ ، ذلك لان الرحمة هي الرابط والآصرة بين العبد وربّه . فهو - سبحانه - يريد تأكيد المعنى الواسع في ان الذكر هذا انما يتجلى في الرحمة المنفردة بخصوصيتها لكونها آتية من رحمان رحيم ، وفي بحبوحتها ، و رياضها الوارفة عاش العبد الصالح المؤمن زكريا عندما ناجى ربه بتلك المناجاة ، ودعاه بذلك الدعاء من القلب الى السماء حيث العلي الأعلى . فكان نداء ينطلق من اعماق الانسان ، وسر من اسراره لم يسمعه احد إلا السميع العليم ، وخفيا يتسرب من ذلك العمق في كيان النفس الانسانية ، حيث يقول - تعالى - : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (مريم/ ٣) .

النداء الصادق :

اي نداء صادقا لا كذب ، ولا نفاق ، ولا خداع ، ولا رائحة للوساوس الشيطانية فيه . وهذه هي مواقف الضراعة والتبتل والخضوع والتقرب الى الله - تعالى - عند تأثر القلب ، وذوبانه بالخشوع ، والخوف ، والتقوى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم/ ٤) ، ذلك الانسان قد يقسو قلبه ، وتكسوه غشاوة تحجب عنه النور الالهي ، وضياء البصائر بما يركن اليه من متاع الدنيا ، وبما يعيش في نفسه من ادواء الغرور والكبرياء ، في حين ان النور عندما يسطع على القلب الكسير ، والنفس المتضرعة وينعكس دموعا سيالة ، فان هذا النور ، وتلك البصائر سوف تخترق ذلك القلب ، وتزوده بنبض الحياة الحقيقية ؛ حياة النبل ، والكرامة ، والايمان .

انكسار القلب مقياس القرب :

ولذلك فان انكسار القلب ، واستشعار الخشوع الذي يملأ جوانب النفس يمثلان

العلاقة التي تدل على قرب الانسان ، ودنوه من بارئه الجليل ، وفيض رحماته التي لا تنقطع . فإله - تعالى - ليس ببعيد عن الانسان ، بل ان الانسان هو الذي يبتعد عن الرحمان الرحيم بغروره وكبره وركونه الى الشهوات والملذات ، ولذلك جاء في الدعاء والمناجاة الشريفة لاهل بيت العصمة (عليهم السلام) قولهم :

" وانك لا تحتجب عن خلقك الا ان تحجبهم الاعمال دونك وان الراحل اليك قريب المسافة " .

ويعزز قولنا هذا الحوار الذي دار بين الكليم موسى بن عمران (عليه السلام) ، والعليم الحليم رب السماوات والارضين ، فقد سأل موسى (عليه السلام) ربه قائلاً : يا رب اين انت ؟ فأجابه - جل وعلا - : انا عند المنكسرة قلوبهم . وهناك شهادة اخرى تعكس هذه الحقيقة ، حقيقة دخول النور القلب عند انكساره حيث روي عن الامام الرضا (عليه السلام) انه قال : اقرب ما يكون العبد من الله عز وجل وهو ساجد وذلك قوله عز وجل : " واسجد واقترب " ^(١) فالعبد الساجد لله الممرغ جبهته بتراب هذه الارض التي منها خرج واليها يعود تارة اخرى ، يعيش حالة عظيمة من الذوبان في الله ، فتستشعر كل خلية من خلايا جسده ، وكل نبضة من نبضات قلبه الخشوع والضراعة . ولذلك قال زكريا (عليه السلام) : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ . فها أنت تعلم يا رب وترى كيف اني طلقت الحياة الدنيا ، وجعلتها وراء ظهري ، فهاهي الخطوات متسارعة للقاء وجهك الكريم ، وهاهو الاجل قد دنا مني ، وليس عندي من يخلفني في حمل عبئ الرسالة . وهذا هو مضمون ما دعا زكريا به ربه ، فطلب منه ان تستمر الرسالة ، وان يكون له من يحملها بعده خصوصاً وانه لم يكن يمتلكها ولا مالا

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٦٥

ولا بنين ، بل هو وريث يحمل ويتحمل الرسالة الالهية ومهامها الشاقة التي من أجلها أفنى ربيع عمره .

ثم تستمر المناجاة مع الخالق وبيان علة الطلب : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ ﴾ (مريم/٥) ؛ فلقد خشيت يا رب ان يحبط هؤلاء بي كما يحبط من هم امثالهم بكل الاولياء والصالحين محاولين الانتفاع وكسب ثقة الناس بهم من خلال استغلال مظلة اولئك الاولياء والصالحين منتظرين الفرص ، ومتربصين بهم الدوائر صفاتهم الحميدة لفرض وجودهم على الامة .

لماذا طلب زكريا الولد :

ثم يستأنف زكريا دعاءه قائلا : ﴿ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (مريم/٥) ، وقد يكون امرا عاديا وشائعا بين الناس ان يطلبوا من الله - جل وعلا - ان يرزقهم من طيبات رزقه ، ورحماته ، ونعمه التي لا تحصى ، كأن نطلب ان يرزقنا شيئا من المال او الاولاد او الزوجة الصالحة او النصر والتقدم والازدهار وغير ذلك مما تقوم به حياة الانسان على الارض ، ولكن الغريب والعجيب ان يدعو زكريا ربه ليرزقه الولد وهو يعلم ان امرأته عاقر عقيم ، وربما هو نفسه اصبح عقيما بعد ان هرم ووهن العظم منه ، واشتعل رأسه بالشيب ، فلم يعد ممن يرجو ان يخرج منه خلف يرثه . وهذه النقطة المهمة الاولى من الدعاء ، اما النقطة الثانية فتتمثل في انه يريد ان يكون له من يرثه ، وهذه الورثة ليست ككل وراثه متعارفة ، فالارث الذي قصده هذا النبي هو من نوع آخر ، فهو ارث ممتد غير مقتصر عليه ، حيث قرنه بآرث السابقين الصالحين من آل يعقوب ولذلك قال (عليه السلام) : ﴿ يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ ﴾ (مريم/٦) . فالارث المقصود هنا هو الارث المعنوي ؛ ارث المبادئ والمثل والقيم الخيرة الصالحة ، وباختصار فانه ارث الرسالات السماوية ،

فزكريا (عليه السلام) انما اراد الامتداد والاستمرار للخط الرسالي الذي تبناه من قبل آل يعقوب والذي يعتبر زكريا القائم به في عصره . فهو انما اراد وصيا يتكفل بمهام ومشاق الدعوة الرسالية ، ويتحمل هذه الامانة الالهية بصبر وعزم وثبات .

الوصي الرضي :

وبالاضافة الى ذلك فانه (عليه السلام) لم يقصر دعاءه على مجرد الوارث ، بل دعا له بالمنقبة ، والفضيلة الشاملة التي تكمن في طياتها جميع الخصال ، وتتفرع منها كل الصفات الحسنة ألا وهي ان يكون راضيا ، حيث يقول زكريا : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (مريم / ٦) . فهو (عليه السلام) عندما دعا ربه فانما دعاه لكي يكون وصيا له اولا ، ولكي يتصف هذا الوصي بالرضا ثانيا . فهو (اي زكريا) نبي يعلم ان الله - سبحانه وتعالى - لا يمكن ان يترك خلقه بدون تبليغ رسالي ، ويدعهم لحالهم من غير وصي يكون حجة بالغة عليهم يوم القيامة ، ولذلك فان دعاءه كان منطلقا من هذا العلم ، ثم انه عندما دعا الله - تعالى - ان يجعله مرضيا فانه يعلم حق العلم ان الامم وانطلاقا من آفة الجهل والاستعلاء سوف تخالف وتعارض ، بل وربما تقارع انبياءها ، ولا تتقبل دعواتهم . وهذا الامر لا يقتصر على الانبياء ، بل يمتد الى الاوصياء فهم ايضا يقفون داعين الى الله - تبارك وتعالى - بالموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، فان لم ينفع هذا الاسلوب فبالسيف والجهاد في مواجهة ردود الفعل السلبية للامم تجاه رسالات الله ، ولذلك كان الدعاء الثاني يدور حول ان يكون الوصي راضيا بقضاء الله وقدره ، صابرا على بلائه لكي يؤمن الناس برسالته ودعوته فيكون مرضيا عندهم .

الاستجابة الالهية :

وبناء على ذلك فان زكريا (عليه السلام) دعا الله - جل وعلا - غير آيس ، ولا

قائظ من رحمته رغم انه يعلم العجز في نفسه وزوجه . وانطلاقا ايضا من العلم بالسنة الالهية القاضية بحتمية الوصي والحجة على الخلق ، ولذلك جاءت الاستجابة التي لا تعجز الله ، فهو رب المعاجز ، وهو الذي اذا اراد شيئا فانما يقول له كن فيكون ، فجاءت الاستجابة تحمل على اكتافها البشرى :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (مريم/٧)
فاسم يحيى (عليه السلام) مشتق من اسم الخالق ، فهو سميّ الجليل ، والحي الذي لا يموت ، والباقي بعد فناء كل شيء ، الازلي الأبدي الذي لا يحده زمان ولا مكان . صحيح ان الله - تبارك وتعالى - يكره ان يسمى احد باسمائه المختصة بذاته ، ولكنه - كما يتضح لي - اراد من هذه التسمية الاشارة الى الحياة الأبدية الخالدة لهذا النبي ، لانه - سبحانه - يعلم في علمه الازلي ما الذي سيجري على هذا النبي الوصي ، وما سيلاقية من اذى الطواغيت ، وقد كان علمه حتما مقضيا حيث استشهد هذا النبي بتلك الطريقة الدموية المفجعة ، فجاء اسم سميّة مشتقا من حياة الخلد (يحيى) رغم ان الانسان لم يكتب له الخلد ، فلا بد له من أجل كما يقول - تعالى - : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (الانباء/٣٤)

فالخلود - اذن - مختص بالله - تعالى - ، والفناء بخلائقه ، ولكن هذا الخلود الالهي والحياة الربانية كتبتا ليحيى (عليه السلام) لانه قد استشهد في مواجهة الشرك ، ومن اجل ان يعبد الله - تعالى - وحده .

ثم يمضي السياق مستعرضا القدرة الالهية وذلك من خلال قول زكريا مخاطبا ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (مريم/٨-٩) .

العبادات جسور الى الحضرة القدسية :

وهكذا فان الدعاء ، والمناجاة ، والصلاة ، والسجود لله ، وسائر العبادات ، والطاعات ، والاخلاص للخالق - تعالى - هي الجسور التي توصلنا الى الحضرة القدسية ، والجلال العظيم عند ذي العرش ، ولذلك فمن بات عارفا ومدركا اهمية وقيمة تلك الكنوز ، وخاصة في مجال الدعاء والمناجاة فسوف يحيى مصونا لا تهزه الهزائر ، ولا تعصف به العواصف ثابتا كالجبل الاشم ، وذا مناعة من وساوس النفس والشیطان ، ومغريات الهوى والشهوات والكبر .

وفي الحقيقة فان هذا هو الهدف المتوخى من كل انواع الدعاء والمناجاة التي منها الاستعاذة والاستغفار والتوكل والتوسل الى الله - تعالى - بوسائل العصمة ، والتشفع بها . فالأئمة (عليهم السلام) هم الوسائل ، والسبل الواضحة ، والابواب المفتحة التي توصلنا الى عالم القدسية والرحمة والمغفرة الالهية . وفي هذه اللحظات عندما يجمع الشيطان جنوده الكافرين في معسكر النفس الامارة بالسوء للهجوم على الانسان المؤمن ، يتجلى حينئذ أثر التوكل والدعاء والاستعاذة والاستغفار وسائر انواع التوجه الى الله - سبحانه - في صد تلك الحملات .

منزلة الدعاء في العبادة :

والدعاء له كيانه الخاص في العبادة ، فلا يستهين احد منا بالدعاء . كلا ، فالدعاء هو احب شيء الى الله ، فهو الذي يأمرنا به مباشرة في قوله : ﴿ اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر / ٦٠) ، فالدعاء هو مخ العبادة ، واولئك الذين يولون ظهورهم للدعاء يصفهم الله بانهم يستكبرون في قوله :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر/٦٠) ، فمع وجود هذه النعمة الالهية ، نعمة

الدعاء ، نجد في احيان كثيرة ان هذا الانسان الجاهل لهذه النعمة ، وثمارها العظيمة ، هذا الانسان الغافل لا يلتفت الى هذه الجوهرة التي منحها الله - سبحانه - له فيغفل عنها ، او يتغافلها .

مقاييس استجابة الدعاء :

فلندع الله ، ولا نبخل بهذه النعمة العظيمة على انفسنا ، فهو - سبحانه - اعلم منا بما في نفوسنا ، فان لم يستجب الدعاء احيانا فانما لمصلحة لنا لا ندرکها ، او ربما لان الدعاء لم يكن صادرا منا بصدق كأن لا ينسجم مع افعالنا ، وتصرفاتنا ، وسلوكنا في الحياة ، وهذا هو المراد من الصدق في الدعاء .

وفي احيان اخرى يستجيب الله - جل جلاله - لنا بالفعل ولكننا لا تلمس أثر ذلك في حياتنا الدنيا ، بل يدخر ذلك لنا يوم القيامة حيث جاء في الرواية عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان المؤمن ليدعو الله عز وجل في حاجته فيقول الله عز وجل اخروا اجابته ، شوقا الى صوته ودعائه ، فاذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل : عبدي ! دعوتني فأخرت اجابتك وثوابك كذا وكذا ودعوتني في كذا وكذا فأخرت اجابتك وثوابك كذا وكذا ، قال : فيتمنى المؤمن انه لم يستجب له دعوته في الدنيا مما يرى من حسن الثواب .^(١)

وبناء على ذلك فان علينا ان ندعو الله - تبارك اسمه - في كل الاحوال ، فان لم نل الاستجابة في الدنيا فانه مذكور لنا في الآخرة كما يقول - تعالى - : ﴿ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (الضحى/ ٤٥) وكما يقول - تعالى - : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (الشورى/ ٣٦) . وهذه شهادات الهية توحى بهذا المعنى ، فلندع الله ،

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٩٠ رواية ٩

ولنلح عليه بالدعاء فهو - سبحانه - يحب العبد الملحاح ، فهو رحيم رؤوف ودود يحب السؤال ، والالاحاح فيه ، وعلينا ان لا نتصور ان الله قد اصم اذنه عنا ، فحاشى له ان لا يسمع عبده وهو السميع العليم بذات الصدور ومكنوناتها . فهو - تبارك وتعالى - يحب الدعاء منا ، والالاحاح في الطلب ، ففي ذلك مزرعة للثواب الذي هو خير وابقى ، فالخالق قد يمنع الاجابة ، او يؤخرها ليزداد ثوابك ، وتنمو نفسك في جو الخضوع والخشوع لله الذي يربو فيه ثواب تضرعك وبكاؤك ودموعك من خشيته وهول عذابه وناره .

وفي الحقيقة فان هذا هو سلم من السلالم التي نبلغ بها الكمال ، فلندع جانباً هذا التولي والعناد والتبغض مقابل ذلك التجنب وتلك الدعوة كما يشير الى ذلك الدعاء الشريف : " انك تدعوني فاولي عنك ، وتتجنب الي فاتبغض اليك ، وتتودد إلي فلا أقبل منك " فلنحذر من ان تنطبق علينا هذه الحالة ، ولنحاول ان نزكي انفسنا ، ونحدث التغيير فيها اولا لكي يكون بإمكاننا حينئذ ايجاد التحوّل الايماني المطلوب في العالم .



الفصل السابع

الايمان بلقاء الله منبع الفضائل

لكي نعرف شيئا ما معرفة تامة لابد ان نعرف نهايته وعاقبته ، فاذا أردنا ان نختار نمطا في الحياة ونسلك مسلكا معيناً فلا مئاص لنا من ان نتساءل : الى أية عاقبة ينتهي هذا النمط او المسلك ؟

ان هذا التساؤل يمثل فطرة انسانية . وسنة عقلائية معروفة ، فاذا أردنا ان نختار منهاجاً في الحياة يتعين علينا قبل ذلك ان نتساءل عن نهاية هذه الحياة ، وهل هي خالدة أم محدودة ، وهذه هي المنهجية الصحيحة لمعرفة الدنيا والحياة المثلى فيها ، ولكن البعض من الناس يستحبون ويفضلون الدنيا على الآخرة وينكرون وجود الآخرة ، فالأفضل اذن - حسب تصورهم - ان تتمتع بهذه الدنيا ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، ولا شأن لنا بالآخرة !

نتائج استحباب الدنيا على الآخرة :

والقرآن الكريم يعالج هذه الحالة ويشير الى هذا النمط من التفكير في قوله تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (إبراهيم/٣) ، فيفضلون الحياة الدنيا ولسان حالهم يقول : مادامت هذه الدنيا عاجلة وحاضرة فمن يبيع النقد بالدين ، ومن ذا الذي يبيع بضاعة مقابل ثمن يدفع في المستقبل ، وهذه هي بداية ولعلها تكون بداية بسيطة ولكن نهاية هذا النمط من التفكير ستكون نهاية سيئة ، لان من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة سيبتلي بعدة صفات سلبية منها :

١- انغلاق القلب : ان قلب هذا الانسان سيصبح قلبا منكرا ومغلقا لانه لا يرى الا هذه الدنيا ، ولا يرى الآخرة وما وراءها . فاذا فقد عزيزا او صديقا فانه يبدأ يفلسف فقدانه لهذا الانسان بألف تفسير وبطريقة لاتمت اليه بصلة ؛ أي أنه يبعد الموت الذي جاء لهذا الانسان عن نفسه ، ويتصور أنه سوف لا يشمله ، وعلى العكس فان الانسان الذي يدرك ان الدنيا محدودة ولا يفضلها على الآخرة فان قلبه سيكون متفتحا يستوعب العبرة والنصيحة .

٢- انكار الحقائق : ان الانسان الذي يفضل الدنيا على الآخرة لا يلبث ان يبدأ بانكار الحقائق الآخرة ، فينكر رسالات الله - تعالى - ، لان هذه الرسالات لا يؤمن بها الا من يخشى الله ويخشى العقاب ويرجو الثواب ، اما الانسان الذي يقول : ماهي الا حيانا الدنيا وما يهلكنا الا الدهر ، فانه لا يمتلك دافعا يدعوه الى ان يؤمن برسالات الله ، ولذا نرى هذا الانسان يتخذ من الكفر منهجية له في الحياة ، وعن مثل هؤلاء يقول - سبحانه - : ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل/٢٢) ، وفي آية اخرى يربط القرآن الكريم بين الكفر بلقاء الله ، والكفر بسائر الحقائق في قوله - عز من قائل - : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ (المؤمنون/٣٣) ، وعلى هذا فان الكفر هو احدى

النتائج القريبة من التكذيب بالآخرة .

٣- تزين الاعمال : ان اعمال هؤلاء الكافرين بقاء الله تزين لهم ؛ فهم يعتبرون جميع اعمالهم السيئة حسنة وان سرقوا وخانوا الأمانة واعتدوا على الآخرين ... لانهم لا يمتلكون معيارا ، ولا يستطيعون ان يفرقوا بين الحق والباطل ، ولانهم لا يعيشون الا لهذه الدنيا ، ولذلك يقول - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (النمل/٤) ، ولذلك فان من المستحيل لهذا الانسان ان يتوب ويقطع عن اعماله السيئة ، وفي آية اخرى يقول - جل وعلا - : ﴿ فَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (يونس/١١) ؛ فالذي لا يرجو لقاء الآخرة يتركه الله لشأنه ، فلا يهديه ولا يزوده بنور .

٤- المبادرة الى التكذيب : ان هؤلاء سوف يبتعدون عن الصراط المستقيم بمسافات شاسعة كما يقول - جل وعلا - : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ (سبا/٨) ، فقد يسير الانسان في الطريق فينحرف عنه لمسافة قصيرة ، ولكن انحرافه هذا قد يكون لمسافات شاسعة ، وفي هذه الحالة لا ترجى له العودة الى الطريق المستقيم .

٥- المجادلة بالباطل : ان هؤلاء الكفار يبحثون دائما عن افكار باطلة يتشبثون بها ويقاومون من خلالها الحقائق ، والى هذا المعنى يشير قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (السجدة/١٠) ، فلأن هؤلاء كفروا بقاء الله ، ولانهم لم يعتقدوا بوجود الآخرة والحساب والكتاب نراهم لا يعترفون بإمكانية العودة الى الحياة مرة أخرى ، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، فيقول امثال هؤلاء : من ذا الذي يستطيع ان يجمع ذرات الانسان بعد موته ليحولها الى الوجود الاول ؟

انك ايها الانسان المنكر ألم تكن في بداية خلقت سوى نقطة ، ثم خلق الله - تعالى - من تلك النقطة وجودك المتكامل ، أفليس بقادر على ان يجمع هذه الذرات ليعيدها الى حالتها الاولى ؟

وهناك من يبرر عدم ايمانه باساليب اخرى ، فيقول - على سبيل المثال - اننا لانريد هذا القرآن بل نريد كتابا آخر ، غافلين عن ان الرسالات السماوية لايمكن ان تتبدل ، وقد اشار - عز وجل - الى مجادلة هؤلاء قائلا : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا اَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا اَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي اَنْ اُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي ﴾ (يونس/ ١٥) ، فهم يتصورون ان الرسول (ص) هو الذي يأتي بالقرآن من عنده ، ولذلك فقد طلبوا منه ان يبدله في حين ان القرآن هو وحي منزل من السماء ، والرسول لا يستطيع ان يغير منه حرفا واحدا والقرآن يؤكد ذلك في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الكهف/ ١١٠) .

الا ان قلوب هؤلاء أصبحت منكرة وعقولهم مضطربة لانهم لا يؤمنون بالآخرة ، على ان الأمر لم ينته عند هذا الحد ؛ فقد طالبوا الرسول باكثر من ذلك ، وهذا ما يرويه لنا القرآن الكريم في قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ اَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ (الفرقان/ ٢١) ، متناسين ان ذرة واحدة من نور الله - جلّت قدرته - لو نزلت على جبل لدكته وجعلته هشيما ، فنحن لانستطيع ان ننظر الى نور الشمس ولو لدقيقة واحدة فكيف يمكننا ان نرى نور الله ؟

ثم يستأنف العلي القدير قائلا :

﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْ اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيْرًا ﴾ (الفرقان/ ٢١) ، وهذا نوع من الاستكبار يدفع الانسان الى ان يطالب بانزال الملائكة عليه في حين انها لاتنزل الا على قلب معمور بالايمان ، فكيف تنزل على هؤلاء الكفار والمشركين المليئة قلوبهم بالذائل والاحقاد ؟!

الصبر دعامة الايمان :

وعلى هذا فان تلك الافكار الباطلة التي جادل بها اولئك الكافرون ناجمة كلها من عدم ايمانهم بالآخرة ، وعدم صبرهم على فهم الحقيقة ، ولذلك فان الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) يعتبر (الصبر) اول دعائم الايمان ، والصبر بدوره يتشعب الى أربع شعب هي : " الشوق والشفق والترقب والزهد ، ثم يقول (عليه السلام) : " فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات " ، فالصبر هو اساس الايمان ، وهو بمثابة الغاء المسافة بيننا وبين الآخرة ، كما ان اساس الايمان الاعتبار بمن مات والاعتقاد بحتمية الموت كما قال - تعالى - : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (آل عمران/ ١٨٥)

ان هذه المسافة هي مسافة هذا النفس الذي يصعد فلا ينزل او ينزل فلا يصعد ، وهي مسافة لا تستغرق سوى لحظات ، والانسان الذي يلقي هذه المسافة بينه وبين الآخرة تراه يشتاق دوما الى الجنة ، ويشفق من النار ويترقب الموت ، وهذه هي المعاني التي اشار اليها أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله : " فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ، ومن زهد في الدنيا رغب في الآخرة ، ومن ترقب الموت هانت عليه المصيبات " .

فاذا اراد الواحد منا ان يزداد ايمانا فعليه ان ينمي في داخله وعي الآخرة ، ويجعل حياته حياة من يترقب الموت ، وكفى بالموت واعظا ، فلنبن حياتنا على اساس الايمان بالموت لا ان نفعل العكس .

الآثار الايجابية للايمان بالموت :

والانسان الذي يوقن ان الموت نازل عليه تراه يكون انسانا شجاعا ، فمادام جسده سوف ينتهي فلماذا لا يبيعه في سبيل الله - تعالى - ؟ وبالإضافة الى ذلك فان الانسان الذي يعتقد انه سيموت في أية لحظة يكون صادق الكلام ، ويكون تعامله مع

الناس عادلا فلا يأكل اموالهم بالباطل ويسارع في الخيرات .. فكل عمل صالح يحتاج اليه الانسان ولذلك يجب ان لا يستصغر اي عمل .
كما ان الانسان الذي يعتقد بالموت يكون قلبه متعاليا على هذه الدنيا ، فتراه يعيش دائما مطمئن القلب ، ولذلك فان المصائب تهون عليه لانه يضع الموت نصب عينيه دائما .
وبناء على ما اسلفناه فان مما يجعلنا نزداد ايمانا ان نؤمن بقاء الله - تبارك وتعالى - ، وان لانفعل عن هذا اللقاء ، وبالإضافة الى ذلك فان الايمان بالآخرة يجعلنا نؤمن بكل الحقائق ايمانا راسخا وعميقا .



الفهرس

٣	المقدمة
٥	الباب الاول : المعرفة الربانية
٧	الفصل الاول / معرفة الله قمة الغايات
١٥	الفصل الثاني / الطريق الى معرفة الله
٢٣	الفصل الثالث / السبيل الى المعرفة الالهية
٣٤	الفصل الرابع / كيف نحى ربانيين ؟
٣٩	الفصل الخامس / تجليات اسماء الله في الحياة
٤٦	الفصل السادس / اسماء الله تتجلى في احكامه
٥٢	الفصل السابع / الاسماء الحسنى تجليات السنن الالهية

٦١ الباب الثاني : حقيقة التوحيد

٦٣ الفصل الاول / التوحيد قمة الهرم القيمي

٧٠ الفصل الثاني / التسليم شرط التوحيد

٧٩ الفصل الثالث / فلسفة التوحيد

٨٥ الفصل الرابع / العقل دليل التوحيد

٩١ الفصل الخامس / السبيل الى اليقين

١٠١ الباب الثالث : تجليات التوحيد

١٠٣ الفصل الاول / ذكر الله اساس الاستقلال

١١٠ الفصل الثاني / التوحيد حصن المؤمن واستقلاله

١١٤ الفصل الثالث / التوحيد سبيلنا الى الاستقلال

١٢٣ الفصل الرابع / الاساس التوحيدي للعلاقات

١٣١ الفصل الخامس / التوحيد منطلق محاربة الطاغوت

١٣٨ الفصل السادس / التوحيد يتحدى

١٤٥ الباب الرابع : واقع الشرك

١٤٧ الفصل الاول / رفض الشرك شرط العبادة

١٥٣ الفصل الثاني / اثر الشرك في الواقع الاجتماعي

١٦١ الفصل الثالث / الاستكبار افراز الشرك بالله

١٦٦ الفصل الرابع / الشرك مصدر التبرير

١٧٥ الفصل الخامس / الشرك هروب من المسؤولية

١٨٥ الباب الخامس : في حصن الله

١٨٧ الفصل الاول / ولاية الله حصن المؤمن

١٩٤ الفصل الثاني / تحكيم ولاية الله في التفكير والعمل

١٩٩ الفصل الثالث / مظاهر العظمة الالهية في الكون

٢٠٦ الفصل الرابع / كلمة التوحيد حصن الله

٢١٢ الفصل الخامس / هل ندخل حصن الله

٢٢١ الفصل السادس / كيف نوطد العلاقة مع بارتنا ؟

٢٣١ الفصل السابع / الايمان بقاء الله منبع الفضائل

هذا الكتاب

التوحيد صبغة الحياة ، وضمير العالم ، وغيب الوجود . وحين يهي الانسان حقائق التوحيد ، ويصل قلبه بنوره السني ، فإنه يتواصل وكل سنن الحياة وانظمتها ، ويتناغم مع معاني العوالم ، ويتفاعل مع غيب الوجود .

وإذا تأملت في آيات القرآن وحديث الرسول وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله ، فإنك تجد الهدف الاسمي لكل التعاليم والاحكام ، وهو الارتفاع بك الى ذلك الافق المبين ، حيث يتصل قلبك عبر العمل بتعاليم الرب واحكام الشريعة ، يتصل بذلك النور النهمي نور الله الساطع في كل شيء ، والمتجلي في كل افق . وما هذا الكتاب الذي بين يديك إلا انفتاح من تجليات التوحيد في الحياة .



To: www.al-mostafa.com